السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

محمد الصوياني

الجزء الثالث

العبيكان
Obeikan

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني، محمد

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة./ محمد الصوياني.- الرياض، ١٤٢٩هـ.

٤ مج.

٢٩٦ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٤-٥٢٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)

٥-٥٢٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج٣)

١. السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ٣٦٦٨ / ١٤٢٩

رقم الإيداع: ٣٦٦٨ / ١٤٢٩

ردمك: ٤-٥٢٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)

٥-٥٢٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج٣)

الطبعة الثالثة

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ - ٢٩٣٧٥٨١ / فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤ / فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي» أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

معركة ثانية على أرض بدر

بعـــد غزوة أحد اغترّ أبو ســـفيان (قائـــد قريش) بما حدث، فصـــاح بالنبي ﷺ متحدياً: (موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا)[1]

كان أبو سفيان ومن معه يريدون أن يملأوا آبار بدر بأجساد المؤمنين، مثلما حشر المؤمنـــون جثث طواغيت قريش في تلك البئر المنتنة على أرض بدر. حلم لقريش، فهل يتحقّق..؟

كان أبو سفيان يريد استغلال مناسبة إقامة موسم بدر، وهو موسم للعرب يجتمعون فيه تجارةً وأدباً وشعراً، لكن أبا سفيان أراد أن يجعل للحرب نصيباً في هذا الموسم.. حرب تستعيد بها قريش بعض ما تناثر من هيبتها.. حرب يشهدها العرب جميعاً.

فليكن لأبي ســـفيان مـــا يريد.. ها هو ﷺ عندما اقترب موعد إقامة ســـوق بدر يســـتعدّ للسفر، لا للحرب فقط، بل للحرب والتجارة.. متجاهلاً كل صيحات المخذلين والجبنـــاء في المدينـــة، الذين يقولون للنبي ﷺ وأصحابـــه: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشـــوهم). فقد ردّ ﷺ على أولئك المخذلين والجبناء بعزم شاركه به أصحابه رضي الله عنهم فقالوا: (حســـبنا الله ونعـــم الوكيل). فامتدح الله هذا الإيمان المتجذّر وهذه الثقة الراسخة بالله، فقال ســـبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[2]

فـ (قد كان أبو سفيان قال للنبي ﷺ: موعدك موسم بدر، حيث قتلتم أصحابنا.

فأمّا الجبان فرجع، وأما الشجاع فأخذ أُهبة القتال والتجارة فأتوه)[3].

وصل الشـــجعان إلى أرض بدرٍ، فرحبت بهم وذكرتهم بنصرهم.. كانت أرض بدرٍ أرضـــاً للانتصـــار.. هكذا هي في عقول وقلـــوب المؤمنين، أمّا بالنســـبة لقريش فهي تذكرهم بالهزيمة. لذا لم يســـتطع أبو سفيان وجيشـــه مغادرة مكّة، ولا الحركة منها،

---

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن غزوة حمراء الأسد.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٧٣).

(٣) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن غزوة حمراء الأسد وهذا هو آخر ذلك الحديث.

فالتشاؤم يعيقهم عن الحركة.. يشلّهم عن الوفاء بالوعد والتحدّي. أبو سفيان وكبار القوم خائفون.. يخشون أن تحشر جثثهم في بئر أخرى فلم يحضروا.

وهكذا انتهت غزوة بدر الثانية قبل أن تبدأ، فليس على الساحة سوى المؤمنين.. إنهم يتلفتون فلا يرون أحداً.. يذرعون أرض بدر.. يمشطونها بحثاً عن جيش الوثنيين، فلا يرون أحداً. وهكذا انهزمت قريش في معركة هي التي طلبتها، وحدّدت مكانها وزمانها، أما رسول الله ﷺ وجنده، فقد مالوا بمطاياهم نحو موسم بدر (فأتوه فلم يجدوا به أحداً، وتسوقوا فأنزل الله: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾)[1]، فطلب ﷺ من أصحابه أن يكتبوا هذه الآية وأن يجعلوها بعد الآية السابقة، لتقرأ هكذا: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[2].

فتفضّل سبحانه على نبيّه ﷺ وصحابته رضي الله عنهم بانتصار لم ترق فيه قطرة دم، فباعوا واشتروا وكسبوا ودعوا إلى التوحيد، وربما كسبوا أتباعاً ومؤمنين جدداً ينشرون التوحيد في قومهم، أو يهاجرون، ثم عادوا شوقاً إلى أهلهم.. شوقاً إلى المدينة. المدينة التي أصبحت غادة مكتنزة بالجميل والجديد، وأصبح هواؤها صافياً نقياً بعد أن تطهّر من ذلك الوباء الذي لوّث الصحة والعقول، وأنزف الدماء والأموال. المدينة الآن نقية لأنه قد نزل:

تحريم الخمر

الخمر التي تؤرق بعض الصحابة ويحيّرهم أمرها.. كانت تصنع في المدينة من خمسة أطعمة هي (التمر والعسل والبر والشعير والعنب) حيث يقول ابن عمر رضي الله عنه: (نزل تحريم الخمر، وإن في المدينة يومئذٍ لخمسة أشربة)[3] (نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير)[4].

---

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن غزوة حمراء الأسد وهذا هو آخر ذلك الحديث.

(٢) سورة آل عمران: (١٧٣ - ١٧٤).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦١٦).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦١٩).

وكان نزول تحريمها لأسباب مازالت ممتدة حتى الآن.. ما زالت شنيعة وخطيرة حتى الآن، وما جاء الإسلام إلاّ لتطهير المجتمع من مثل هذه الأسباب التي تهدّد أخوّة الإيمان وودّه ووصاله.

من هذه الأسباب قول أحد الصحابة: (إنما نزل الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا، فلما ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه، ورأسه، ولحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي فلان - وكانوا أخوة ليس في قلوبهم ضغائن - والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع هذا بي.

حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾)[1]

ويقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا، فشربنا الخمر قبل أن تحرم، حتى انتشينا، فتفاخرنا، فقالت الأنصار: نحن أفضل. وقالت قريش: نحن أفضل.

فأخذ رجل من الأنصار لحى جزور، فضرب به أنف سعد، ففزره، وكان أنف سعد مفزراً، فنزلت آية الخمر: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾)[2] عن هذه الخمر.

هل أنتم منتهون عن هذه الخمر التي تعبث بالعقل، وتمحو اللياقة الأدبية. إن في الخمر لذّة لاشكّ في ذلك، ولولا ما فيها من نشوة ما شربها أحد، لكنها تسبّب الصداع والغثيان بعد تلك النشوة، وهي تحيل شاربها إلى إنسان مريض.. وقح يتفوّه بكل بذيئة، ويفشي كل ما ينبغي إخفاؤه من رغبات ونزوات تكدّر النديم والجليس والصاحب

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٠.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٤ - ١٨٧٦ والبيهقي في السنن (٨/٢٨٥).

والقريب.. الخمر يدمر ذلك التحكم المهذب، الذي يحفظ للإنســان شخصيّته ووقاره واحترامه.. وإنسانيته وكرامته.

بالخمر يتحوّل السكران إلى حيوان يهذر بكل قبيح، وينزو على كل محرم. بالخمر يختلط الخطأ بالصواب، والحلال بالحرام، والأدب باللاأدب، أما

تحريم الميسر

فالميســر وهو (القمار) مرض آخر من أمراض التخلّف واللامســؤولية، فالإنسان الذي يكدّ ويكدح من أجل تحصيل مال، وبعد أن يجمعه يقف على شرفة جبل تطل على بحر، فيرمي كل ما جمعه في سنين في ذلك البحر. الإنسان الذي يفعل ذلك أبسط ما يقال عنه إنه: مجنون. والمجنون لا يُترك ولا يُسمح له أن يؤذي نفسه ولا غيره.

الميســر يدمر الأســر والدول والأخلاق.. الخمر والميسر نوعان من أنواع الجنون، ورســالة الإســلام جاءت لإيقاظ العقول.. توقدها تحضّراً ورقياً وتمدّناً، فكيف تلقى الصحابة هذا الخبر..؟ كيف اســتقبلته قلوبهم ونفوسهم..؟ كيف استقبله أولئك الذين كانوا لا يصبرون عنها..؟

تعالوا إلى بيت أم ســليم وأبي طلحة حيث كان: أبو دجانة، وأبو عبيدة، ومعاذ بن جبل، وســهيل بن بيضاء، وأبي بن كعب فــي ضيافة أبي طلحة رضي الله عنهم. كانوا ندامى يحتسون أقداحاً من الخمرة، وكان ساقي أولئك الندامى الأخيار ابن أم سليم.. أنــس بــن مالك الذي يقول: (بينما أنــا أدير الكاس على أبي طلحــة، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وســهيل بن بيضاء، وأبي دجانــة، «وأبي بن كعب» حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر، «فإذا مناد ينادي، قال: أخرج فانظر»

فسمعنا منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت.

«فما قالوا: حتى ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس، اكف ما بقي في إنائك. فوالله ما عادوا فيها»

«فقــال لي أبو طلحة: اخــرج فأهرقها. فهرقتها» «يا أنس، قــم إلى هذا الجرار فاكسرها. فقمت إلى مهراس لنا فضربته بأسفله حتى تكسرت». فما دخل علينا داخل

ولا خرج منا خارج، حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، وإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(1)، فانتهى الصحابة بعد سماعهم لهذه الآية في مسجد النبي ﷺ.. رغم إدمان بعضهم لها، والمدمن يحبس في مصح أحياناً كي يتخلّص ويعالج من إدمانه، لكن إيمان الصحابة وتربية النبي ﷺ لهم كانت من العمق والسموّ والامتداد بحيث يتلاشى أمامها أي إدمان.

تخلّصت المدينة من أمّ الخبائث، وأم الأمراض والمشاكل، لكن ماذا لو استفاد البعض من الخمرة في غير الشرب.. في البيع والشراء مع غير المسلمين.. في العلاج مثلاً..؟

أما العلاج فلا تصلح الخمر أبداً لأنها مرض، فالنبي ﷺ يقول: (إنها ليست بدواء، ولكنها داء)(2) والطب الحديث يؤيّد ذلك ويحذر منها(3).

أمّا عن التجارة بالخمر، فقد جاء تاجر خمر من الصحابة رضي الله عنهم يقال له (كيسان) (كان يتجر في الخمر زمن رسول الله ﷺ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق -يريد بها التجارة- فأتى بها رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني جئتك بشراب طيّب. فقال رسول الله ﷺ: يا كيسان، إنها قد حرمت بعدك، قال: فأبيعها يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إنها قد حرمت، وحرّم ثمنها، فانطلق كيسان إلى الزقاق، فأخذ بأرجلها ثم هرقها)(4). ثم قال ﷺ: (إن الله تعالى حرّم الخمر، فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء، فلا يشرب، ولا يبع)(5).

---

(1) البخاري ٢٤٦٤ ومسلم١٩٨٠ ولمالك١٥٤٤ والزوائد لهم واللفظ للبيهقي ٨-٢٨٦.

(2) حديث صحيح. صحيح الجامع (٤٧٨/١).

(3) شاهدت مقابلة مع الطبيب الشهير OZ وقد سألته مريضة عن وضع مادة الكحول على الجرح فقال لها: المادة التي لاتضعينها على عينك احذري من وضعها على جرحك، ثم بين أن الكحول يقتل الجراثيم، لكنه يقتل عشرة أضعافها من المضادات الجسدية.

(4) سنده صحيح رواه أحمد ٤-٣٣٧حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن عبد الرحمن، عن نافع بن كيسان أن أباه أخبره. نافع صحابي، وسليمان البصري تابعي ثقة التقريب ٢٥٣ وحديث ابن لهيعة صحيح، لأن تلميذه قتيبة ثقة ثبت التقريب ٤٥٤.

(5) حديث صحيح رواه مسلم ٣ - ١٢٠٥ (باب تحريم بيع الخمر).

وهذا رجل آخر (أهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر، فقال له رسول الله ﷺ: هل علمت أن الله قد حرمها؟ قال: لا. فسارّ[1] إنساناً، فقال له رسول الله ﷺ: هل علم أن الله قد حرمها؟ قال: لا. فقال له رسول الله ﷺ: بم ساررته؟ فقال: أمرته ببيعها، فقال: إن الذي حرّم شربها حرّم بيعها، قال: ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها)[2] ثم (سئل ﷺ عن الخمر تتخذ خلاً؟ فقال: لا)[3].

لا، بهذه الكلمة انتهت علاقة الإسلام بالخمر.. قطيعة وحرب لا هوادة فيها ضدها، ليبدأ أولئك المؤمنون بالاستفادة من أوقاتهم التي كانت تسفكها الخمر. انتهت علاقة الإسلام بالخمر، و

انتهت عدة زينب بنت جحش

مرّ على طلاقها من زيد بن ثابت ثلاثة أشهر، أي ثلاث حيضات، والمرأة لابدّ أن تنتظر ثلاث حيضات حتى تتأكّد من خلوّ رحمها من أي علاقة من زوجها الأوّل، وتتأكّد من عدم وجود حمل حتى لا تختلط الأنساب، وتتفشّى الأمراض.

يقول سبحانه: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[4].

وبعد أن مرت تلك الأشهر أمر الله النبي ﷺ بالزواج من زينب رضي الله عنها لسبب واحد ذكره الله في القرآن، ونزل به جبريل عليه الصلاة والسّلام، فما

سبب زواج النبي ﷺ من زينب

كان الناس في ذلك الوقت يعتبرون الابن بالتبنّي كالابن الحقيقي، أي أن الابن بالتبني إذا طلّق زوجته فهي حرام على أبيه والعكس، فأنزل الله نسخ ذلك الشيء وأبطله بتزويج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، التي كانت زوجة لابنه بالتبني (زيد بن حارثة)

---

(١) أي كلم رجلاً سراً بينه وبينه دون أن يسمع النبي ﷺ. والراوية هي القربة.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم (باب تحريم الخمر).
(٣) حديث صحيح رواه مسلم (باب تحريم تخليل الخمر).
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

أنــزل الله ذلــك الأمر بعد أن كان النبي ﷺ يخشــى كلام الناس حول ذلك، لكن النبي ﷺ لا يســتطيع أن يخفي شــيئاً من الوحي ولا القرآن، فإذا نزل الأمر فما عليه ســوى السمع والطاعة لربّه ســبحانه وتعالى، ولذلك يقول أنس: (جاء زيد بن حارثة، فجعل النبي ﷺ يقول: اتّق الله وأمسك عليك زوجك.

قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه)[١].

زيد يخطب زينب للنبي ﷺ

يقــول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما انقضت عدة زينب قال رســول الله ﷺ لزيد: فاذكرها عليّ.

فانطلق زيد حتى أتاها -وهي تخمر عجينها- قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أســتطيع أن أنظر إليها -أن رســول الله ﷺ ذكرها- فولّيتها ظهري، ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك؟

قالت: ما أنا بصانعة شــيئاً حتى أوامر ربي. فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن)[٢] أي نزل قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾. (وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن)[٣] لأنه لا يحتاج إلى ذلك، فقد زوّجها الله إياه من فوق سبع سماوات، فكان ذلك تكريماً لها.. فرحاً لها.. حباً لها.

كانــت رضي الله عنها تبتهــج بذلك (كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ، تقول: زوجكــنّ أهاليكن، وزوّجني الله تعالى من فوق ســبع ســماوات)[٤] وكان في ذلك الزواج تكريم لزيد رضي الله عنه، فقد خصّه الله بذكر اسمه من بين جميع أصحاب النبي ﷺ في القرآن. حقاً لقد كان:

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٧٤٢٠).
(٢) حديث صحيح رواه مسلم (زواج زينب).
(٣) حديث صحيح رواه مسلم (زواج زينب).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٧٤٢٠).

زواج زينب فرحاً وتحولاً

فــي حياة الصحابة والأمّــة.. أحداث كثيرة في ذلك الزواج.. آداب وتشــريعات، ومظاهر سرور صاحبت ذلك الزواج الكريم.

تعالوا نتجوّل في تقاسيم ذلك الفرح المليح.. سنبدأ أولاً بـ:

الوليمة والهدايا والمعجزات

يقول أحد الذين حضروا وشاركوا في تلك الوليمة: (ما رأيت رسول الله ﷺ أولم على امرأة من نســائه ما أولم على زينب، فإنه ذبح شــاةً)[1]، (ما أولم رســول الله ﷺ على امرأة من نسائه أكثر أو أفضل مما أولم على زينب)[2] (أطعمهم خبزاً ولحماً حتى تركوه)[3] شبعاً.

لم يشــارك أنس بن مالك في الأكل فقط، بل ســاهم مع أمّه أم ســليم رضي الله عنها في زيادة مساحات الفرح.

يقول رضي الله عنه: (أن رســول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار، فخرج الناس وبقي رجال يتحدّثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتّبعته، فجعل يتتبع حُجُرَ نســائه يسلّم عليهن، ويقلن: يا رســول الله، كيف وجدت أهلك)[4]. ويحدّثنا أنس عن هدية أمّه فيقول: (فصنعت أمي -أم سليم- حيساً، فجعلته في تور[5] «مــن حجارة» فقالت: يا أنس، اذهب بهذا إلى رســول الله ﷺ، فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منّا قليل يا رسول الله.

فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إن أمي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منّا قليل يا رســول الله. فقال: ضعه. ثم قال: اذهــب، فادع لي فلاناً، وفلاناً، وفلاناً، ومن لقيت «من المسلمين» وسمّى رجالاً، قال: فدعوت من سمّى ومن لقيت.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم زواج زينب.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم زواج زينب.
(٣) حديث صحيح رواه مسلم زواج زينب.
(٤) حديث صحيح رواه مسلم زواج زينب.
(٥) إناء. والحيس تمر وسمن وأقط.

قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة، وقال لي رسول الله ﷺ: يا أنس، هات التور «وضع النبي ﷺ يده على الطعام، فدعا فيه، وقال ما شاء الله أن يقول» فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: ليتحلّق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه. فأكلوا حتى شبعوا، فخرجت طائفة، ودخلت طائفة حتى أكلوا كلّهم، فقال لي: يا أنس ارفع.

فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت؟ وجلس طوائف منهم يتحدّثون في بيت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله ﷺ «فأطالوا عليه الحديث»، فجعل النبي يستحي منهم أن يقول لهم شيئاً «فأخذ كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام من القوم، فقعد ثلاثة» فخرج رسول الله ﷺ فسلم على نسائه، «فمشى، فمشيت معه حتى بلغ حجرة عائشة، ثم ظنّ أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فرجع، فرجعت الثانية، حتى بلغ حجرة عائشة» ثم رجع «فرجعت»، فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، فابتدروا الباب، فخرجوا كلّهم، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر، ودخل وأنا جالس في الحجرة، فلم يلبث إلاّ يسيراً حتى خرج عليّ، وأنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ، وقرأهن على الناس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ (١) إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾(٢) (قال أنس: أنا أحدث الناس عهداً بهذه الآيات، وحجبن نساء النبي ﷺ)(٣) بعد هذا الموقف المحرج أمرت نساء النبي ﷺ بالحجاب وكان:

---

(١) أي لا تتطفلوا تترقبون نضج الطعام ثم تعرضون أنفسكم للدخول دون دعوة.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم والزوائد له أيضاً، باب زواج زينب. وأكملت الآية لأن الحديث يقول: إلى آخر الآية بعد كلمة: يؤذي النبي.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم وهو جزء من الحديث السابق.

لنزول الحجاب قصة

فقــد كان عمر بن الخطاب قبل نزول الحجــاب يقترح على النبي ﷺ أن يحجب نســاءه. (قال عمر بن الخطاب: قلت لرســول الله ﷺ: لو حجبت عن أمّهات المؤمنين، فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب)[1]

وتقول عائشــة رضي الله عنها: (أن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفلح فكان عمر يقول للنبي ﷺ احجب نساءك فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل فخرجت ســودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشــاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرضا على أن ينزل الحجاب فأنزل الله آية الحجاب)[2]

وفي حادثة أخرى كرّر عمر بن الخطاب تلك الأمنية، حيث كان رضي الله عنه أجرأ من غيره في البوح بما يضمره ويضمره غيره من إجلال لبيت النبوّة.تقول عائشة: (كنت آكل مع النبي ﷺ حيســاً في قعب، فمر عمر، فدعاه، فأكل، فأصابت أصبعه إصبعي، فقــال: حس، أو: أوه، لو أطاع فيكن ما رأتكــن عين. فنزل الحجاب)[3] ولكن فيما بعد، فالحجاب لم ينزل بعد هذه الأحداث مباشــرة. تعالوا نســأل أنس بن مالك: من أعلم النــاس بنزول الحجاب؟ قال رضي الله عنه: (أنا أعلــم الناس بالحجاب، لقد كان أُبيٌّ بن كعب يسألني عنه، قال أنس: أصبح رسول الله ﷺ عروساً بزينب بنت جحش، وكان تزوجها بالمدينة، فدعا الناس للطعام بعد ارتفاع النهار، فجلس رســول الله ﷺ، وجلس معه رجال بعدما قام القوم، حتى قام رســول الله ﷺ، فمشــى، فمشيت معه، حتى بلغ حجرة عائشــة، ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعــت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فرجــع فرجعــت الثانية حتى بلغ حجرة عائشــة، فرجع فرجعت، فــإذا هم قد قاموا،

---

(١) سنده صحيح رواه ابن جرير ١٠-٣٢٤ حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد عن أنس. حميد تابعي ثقة ســمع من أنس، وابن أبي عدي: محمد بن إبراهيم ثقة - التقريب ٤٦٥ وابن بشــار هو الثقة محمد بن بشار، التقريب ٤٦٩.

(٢) صحيح البخاري ١-٦٧.

(٣) ســنده قوي رواه ابن أبي حاتم ١١-٤٩٠ حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا ســفيان عن مسعر عن موسى بن أبي كثير عن مجاهد عن عائشة..

فضرب بيني وبينه بالستر، وأنزل الله آية الحجاب)[1]، وكانت هذه الآية تتحدّث عن زوجات النبي ﷺ فقط، ثم أنزل الله سبحانه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[2].

ففرض الحجاب على المؤمنات جميعاً.

وبينما كانت المدينة تعيش فرحاً وتشريعاً يمنح سلاماً في كل زاوية.. كان هناك خطر ينذر بفاجعة.. كان هناك خطر قادم من مكّة.. يطفح بالغلّ والثأر. أتذكرون ذلك الشبح الذي نهض من بين جثث أحد، ثم توجه نحو مكة نازفاً؟ ها هو يعود، ولكن لوحده هذه المرة، فقد آلمه ما حدث في بدر، وما أصابه في أُحُد.

الشبح يتسلّل لاغتيال النبي ﷺ

أنس بن مالك كما حدّثنا عن الحجاب من قبل يحدّثنا الآن عن قصة هذا القادم، الذي حمله حقده وثأره نحو النبي ﷺ، ليسجل له التاريخ حادثة تهزّ الجزيرة من البحر إلى البحر.

يقول أنس: (كان وهب بن عمير شهد أُحُداً كافراً، فأصابته جراحة، فكان في القتلى، فمرّ به رجل من الأنصار، فعرفه، فوضع سيفه في بطنه حتى خرج من ظهره، ثم تركه، فلما دخل الليل وأصابه البرد لحق بمكة، فبرأ، فاجتمع هو وصفوان بن أمية في الحجر، فقال وهب: لولا عيالي ودين عليّ، لأحببت أن أكون أنا الذي أقتل محمداً، فقال له صفوان: فكيف تصنع؟

فقال: أنا رجل جواد لا ألحق، آتيه فأغترّه، ثم أضربه بالسيف، فألحق بالخيل، ولا يلحقني أحد.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٩٢) ومسلم (١٤٢٨) واللفظ له.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٩.

فقال له صفوان: فعيالك مع عيالي، ودينك عليّ، فخرج يشحذ سيفه وسمه، ثم خرج إلى المدينة، لا يريد إلاّ قتل النبي ﷺ، فلما قدم المدينة رآه عمر بن الخطاب، فهاله ذلك، وشقّ عليه، فقال لأصحاب النبي ﷺ: إني رأيت وهباً، فرابني قدومه، وهو رجل غادر، فأطيفوا نبيكم[1].

فأطاف المسلمون بالنبي ﷺ، فجاء وهب، فوقف على النبي ﷺ، فقال: أنعم صباحاً يا محمد. قال ﷺ: قد أبدلنا الله خيراً منها[2]. قال: عهدي بك تتحدّث بها وأنت معجب.

فقال له النبي ﷺ: ما أقدمك؟ قال: جئت أفدي أساراكم.

قال ﷺ: ما بال السيف؟ قال: أما إنّا قد حملناها يوم بدر فلم نفلح ولم ننجح.

قال ﷺ: فما شيء قلت لصفوان في الحجر: لولا عيالي ودين عليّ لكنت أنا الذي أقتل محمّداً بنفسي. فأخبره النبي ﷺ خبره. فقال وهب: هاه.. كيف قلت؟ فأعاد عليه.

قال وهب: قد كنت تخبرنا خبر أهل الأرض، فنكذّبك، فأراك تخبر خبر أهل السماء «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله». قال: يا رسول الله، أعطني عمامتك، فأعطاه النبي ﷺ عمامته، ثم خرج إلى مكة.

فقال عمر رضي الله عنه: لقد قدم وإنه لأبغض إليّ من الخنزير، ثم رجع وهو أحبّ إليّ من بعض ولدي)[3]

قال عمر ذلك لأنه لا يملك قلبه.. لقد أهداه إلى أحب الخلق إليه، بعد أن أهداه إلى خالقه. قلب عمر ليس ملكاً لعمر، ولذلك أحب وهباً بعد أن كان كالخنزير أمامه.

متى أهدى عمر قلبه

أهدى عمر قلبه عندما كان يمشي مع حبيبه ﷺ يحمله الشوق.. يحمله الحب، فالتفت نحو ذلك الحبيب فباح له بحب عظيم. يحدثنا الصحابي عبد الله بن هشام

---

(١) أي كونوا حوله.

(٢) يعني تحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(٣) سنده قوي وقد مر معنا تحت عنوان: شبح على أرض أحد.

عـــن ذلك فيقول: (كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال لـه عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي.

فقال النبي ﷺ: لا، والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن. والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر)[1].

تنازل عمر عن قلبه وعن نفســـه، فتماهى هواه وقلبه بحب الله ورســـوله، فعاش عمر مأخوذاً بمراد الله ورسوله ﷺ.

دعوني أحدّثكم عن الحب

دعوني أحدثكم عن رجل كان يدخل البهجة على رســـول الله ﷺ.. كان يضحكه. أُتي به إلى النبي ﷺ وهو ســـكران، حيث شـــرب الخمرة التي لعن شاربها، وعاصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومشتريها، وآكل ثمنها، ومعتصرها، وساقيها، ولعنت هي قبل ذلك.

افتـــتن هذا الرجل بحب الخمر قبل تحريمها، فلمـــا نزل حكمها حاول تركها فلم يستطع، ونزلت عقوبتها فشرب وسكر فخرج وعوقب، ثم سكر ثانية فعوقب. ورغم أن للخمر ذنبا من الوزن الثقيل والكبير، إلا أن للقلوب والمشـــاعر تجاه الله ورســـوله عليه الســـلام أوزانا أثقل، فقد نال جزاءه ونفذ عليه الســـلام حكم الله فيه، لكنه لم يبعده، ولم يهجره، ولم يعبس في وجهه، أو يســـبه، ولم يطرده من قلبه، بل أحبه.. أجل أحبه، وحرض على حبه!

ذات يوم أتي به ســـكراناً، فطبق الحد عليه، فرآه أحد الصحابة رضي الله عنهم، فغضب من تكراره وقال: (اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به)[2] فالتفت عليه السلام لذلك اللاعن وأنكر عليه، وقال له كلمات تكشف عوالم الحب داخل ذلك الرجل المدمن.

قال عليه الســـلام: (لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورســـوله)[3] لكن هواه غلبه فهوى، والإســـلام لا يلغي نقاط الضعف لدى الإنسان ولا يتجاهلها، لكنه لا

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٦٣٢).
(٢) صحيح البخاري (٦٧٨٠).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٦٧٨٠).

يبالغ في وصفها ووصف المعاناة منها. الإســـلام يقف أمامها ريثما يرفع ذلك المنحدر عنها.. ريثما يضمد جراحه وعواطفه من سنانها، ثم ينفث فيه من جديد حب الانطلاق والتجديد والتشييد.

ذات مرة شـــرب (فقال بعض القوم: أخزاك الله. قال رســـول الله ﷺ: لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان، ولكن قولوا رحمك الله)[1] كان عليه السلام وفياً.. كان حانياً يعرف أن صحابته ليســـوا ملائكة، لذا فهو ينظر إلـــى المناطق الخصبة فيهم.. يمطرها بالحب فتهتز ربيعاً أخاذاً.

لكن ماذا لدى شـــارب الخمر الفقير المعدم هذا من مساحات خصبة حتى يحتفي به عليه السلام؟

كان لديه الحب لله ولرسوله.. حب يشرق في قلبه وينسرب في أعماقه، لذا بادله عليه الســـلام بحب أجمل، فتحول ذلك الصحابي المحب إلى راسم للبسمات على ثغر محمد الجميل، حتى أغرته ابتســـامات نبيه وضحكاته إلى حد تدبير المقالب له، فكان عليه السلام يشرب مقالبه كالماء البارد.

أتحبون أن تعرفوا إحدى مقالبه؟

كان يذهب لدكاكين المدينة، فيستلف منهم الطعام، ثم يأخذه إلى بيت أحب الناس إليـــه.. إلى بيت محمد الذي لم يعنفه يوماً، ولم يكشـــر فـــي وجهه، أو يعيره بذنبه، أو يســـخر منه، فيهديه تلك الهدية، فيقبلها عليه الســـلام منه، وتمر الأيام، فيراه التاجر فيمسك بتلابيبه، ويطلب منه سداد ديونه التي كثرت، فيهون من الأمر، ويأخذه ليسدد له، فيأتي المقلب كما يرويه عمر بن الخطاب الذي يقول أن الرجل: (كان يهدي لرسول الله ﷺ العكة من الســـمن، والعكة من العســـل، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه جاء به إلى رسول الله ﷺ فيقول: يا رسول الله أعط هذا ثمن متاعه. فما يزيد رسول الله ﷺ أن يبتسم، ويأمر به فيعطى)[2]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٦-٢٤٨٨ وأحمد ٢-٢٩٩ واللفظ له.

(٢) ســـنده حســـن رواه أبو يعلى ١-١٦١ حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا أبي حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر. أسلم مخضرم وابنه ثقة وعبد الله وابنه ثقات أما هشام فصدوق له أوهام وهو من رجال مسلم التقريب ٥٧٢.

هذا هو نبينا لمن أرادأن يتأمله ويتأمل جماله وسـعة صدره ورفقه وأفقه، فلسنا أحرص على دينه ولا على أمته منه، ولسنا أكثر تأثيراً منه، وليس لدينا مدن ملائكة، وليست مفاتيح الجنة والنار بأيدينا. ما أجمل أن نحب الله ورسوله أكثر من أي شيء وإن كنا مقصرين.. ما أروع أن نرفض الإساءة لهما. ما أجمل أن نكون مثل ذلك الرجل الذي أخرجه قلبه من بيته.. أخرجه حب لم يقو على كتمانه، فحلق به حبه أبعد مما يأمل.. أبعد مما يحلم عندما باح به وقال لنبيه: (متى الساعة؟ قال عليه السلام: وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله. فقال: أنت مع من أحببت. قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت. قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم)[1]

هذا هو الحب في الله، وهذا هو الحب في الإسلام، وهذه هي الرحمة عند المؤمن الذي يحب الله ورسوله.. هذه هي العلاقة الحقّة بين المؤمنين، فـ:

تعالوا أحدّثكم عن الحب والرحمة

في قصة أشد تأثيراً على النفوس.. قصة قال فيها النبي ﷺ:

يا هزال لو سترته بثوبك

ها هو ابن هزال.. حدثنا يا نعيم ما ذلك الشيء الذي تمنى ﷺ لو ستره والدك بثوبه، أو من هو؟

قال نعيم رضي الله عنه: (كان ماعز بن مالك في حجر أبي، فأصاب جارية من الحي، فقال له أبي: ائت رسول الله ﷺ فأخبره بما صنعت لعله يستغفر لك - وإنما يريد بذلك رجاء أن يكون له مخرج، فأتاه، فقال: يا رسول الله إني زنيت فأقم عليّ كتاب الله «يا رسول الله طهّرني.

فقال: ويحك ارجع، فاستغفر الله وتب إليه.

فرجع غير بعيد ثم جاء، فقال: يا رسول طهّرني.

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٤٩.

فقال رسول الله ﷺ: ويحك ارجع، فاستغفر الله وتب إليه.

فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهّرني.

فقال النبي ﷺ مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ»: إنك قد قلتها أربع مرات، فيمن؟ قال: بفلانة. «فسأل رسول الله ﷺ: أبه جنون؟ فأخبر أنه ليس بمجنون. فقال: أشرب خمراً؟ فقام رجل فاستنكهه(١)، فلم يجد منه ريح خمر».

قال ﷺ: هل ضاجعتها؟ قال: نعم، قال: هل باشرتها؟ قال: نعم. قال: هل جامعتها؟ قال: نعم [قال ﷺ: فهل أحصنت؟(٢) قال: نعم] فأمر به أن يرجم، فلما رجم، فوجد مسّ الحجارة جزع، فخرج يشتدّ(٣) «واشتددنا خلفه» فلقيه عبد الله بن أنيس وقد أعجز أصحابه، فنزع له بوظيف بعير(٤) فرماه به، فقتله، ثم أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له.

فقال: هلاّ تركتموه، لعله يتوب، فيتوب الله عليه. «فكان الناس فيه فرقتين: قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته.

وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبي ﷺ، فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة.

فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلّم، ثم جلس، فقال: استغفروا لماعز بن مالك، فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. فقال رسول الله ﷺ: لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»)(٥).

لله حدود يجب تنفيذها دون مجاملة أو مداهنة، وللنبي ﷺ حدود لا يستطيع تجاوزها. فتح ﷺ لماعز أكثر من عشرة أبواب.. أشرعها ليهرب منها، لكنه أصرّ على تنفيذ حدّ الله فيه.

---

(١) أي شمه.

(٢) بالزواج.

(٣) أي أصيب بالفزع وأحس بالألم ركض هارباً.

(٤) عظم الساق أو الذراع.

(٥) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٢١٧ وأبو داود ٤٤١٩ من طريق: وكيع حدثنا هشام بن سعد أخبرني يزيد بن نعيم بن هزال عن أبيه. وما بين الأقواس لمسلم، وما بين المعقوفين للبخاري. نعيم صحابي وابنه مقبول والصواب أنه صدوق من رجال مسلم وثقه العجلي. ولا أدري لماذا ضعف الإمام الألباني كلمة لعله أن يتوب، وهي من هذا السند.

فعل ﷺ ما يمكنه أن يفعله لماعز، ثم نفذ حكم الله فيه، لكن مازال في صدر النبي ﷺ لماعز الكثير الكثير.

توجّه ﷺ بحديثه نحو الرجل الذي أشار على ماعز بالاعتراف، فهل شكره على فعله ذلك..؟

الإجابة رحمةً كالعادة، فما محمد ﷺ إلاّ رحمة مهداة. التفت ﷺ بحديثه إلى هزال معاتباً، وقال له كلمة كالحزن: (يا هزال لو كنت سترته بثوبك كان خيراً مما صنعت به)(١) (لو كنت سترته بثوبك كان خيراً لك)(٢)

لم يقل ﷺ: لو سترته بثوبك لكان خيراً لماعز رضي الله عنه، بل قال: خيراً لك أنت يا هزال.. أنت أيها المبلغ، ولك أنت أيضاً أيها المتلذّذ بفضح المستترين بدعوى الغضب لله ورسوله.

أما من أراد أن يمنح لنفسه حق اختراق جدران الآخرين وحريتهم المستورة، فإن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما يقدمان له درساً في التحضر بالإسلام.

يقول (عبد الرحمن بن عوف: أنه حرس ليلة مع عمر بن الخطاب، فبينما هم يمشون، شب لهم سراج في بيت، فانطلقوا يؤمونه، حتى إذا دنوا منه، إذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر - وأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف: أتدري بيت من هذا؟ قلت: لا قال: «هذا بيت» ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى؟

قال عبد الرحمن بن عوف: أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله «عنه قال الله تعالى»: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. فقد تجسسنا.

فانصرف عنهم عمر وتركهم)(٣)

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٥/٢١٧) وأبو داود (٤٤١٩) وهو الحديث السابق.

(٢) صحيح الجامع الصغير (٢/١٣٢٣).

(٣) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ١٠-٢٣١ والبيهقي ٨-٣٣٣ وابن حبان في الثقات ٤-٢٦٧ والحاكم ٤-٤١٩ عن الزهري حدثنا زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف عن المسور بن مخرمة أخبره عبد الرحمن. وزرارة تابعي ثقة، والمسور صحابي.

لكن كم هو حجم ذلك الخير الذي يحصل عليه من ستر على مسلم وحافظ على نقاء صورته أمام المجتمع..؟

قال عليه السلام: (من ستر أخاه المسلم ستره الله في الدنيا والآخرة)[1] ولما (أتي ابن مسعود فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمراً. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسّس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به)[2] لـ (أن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم)[3] والإسلام لا يريد إفسادهم، ولا أذيّتهم.

هذه بعض حقوق الإنسان - أي إنسان - في الإسلام.. دمه، وماله، وعرضه مكفولة الحماية، بل إن الدهشة لتسافر بالمرء عندما يعلم فداحة الجرم الذي يرتكبه أولئك السابحون في أعراض إخوانهم.. المنقّبون عن عيوب الناس لينشروها. إليك هذه:

المقارنة بين العرض وغيره

قال ﷺ في قليل الربا: (درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشدّ عند الله من ستة وثلاثين زنية)[4].

وقال في أقلّ الربا: (أهون الربا كالذي ينكح أمّه)[5].

ترى ما الذنب الذي يعادل أشدّ الربا إذا كان أهونه يعادل ذلك الفعل الشنيع والجريمة القذرة..؟

الإجابة التي تذهل المسلم هي في قول النبي ﷺ: (أربى الربا شتم الأعراض)[6] (أربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه)[7].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وابن حبان (٥٣٤) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح رواه أبو داود (٤٨٩٠) وغيره من طرق عن الأعمش عن زيد بن وهب قال: قيل لابن مسعود. زيد ثقة مخضرم، والحديث صححه الإمام الألباني ١-٢٧٧.

(٣) حديث حسن رواه أبو داود ٤٨٨٩ وغيره عن إسماعيل بن عياش وهو صحيح الرواية عن أهل بلده عن ضمضم بن زرعة وهو حمصي حسن الحديث، عن شريح بن عبيد وهو حمصي تابعي ثقة عن صحابيين وهو لم يسمع منهما وعن مخضرمين وتابعي كبير. لكن له شاهد عند البخاري في الأدب (٢٤٨).

(٤) صحيح الجامع (٦٣٦).

(٥) حديث صحيح.. صحيح الجامع (٤٩٦).

(٦) حديث صحيح.. صحيح الجامع (٢١٢).

(٧) حديث صحيح.. صحيح الجامع (٤٩٦).

فلنعد إلى أقدس الأعراض والدماء.. عرض محمد ﷺ ودمه، الذي كان وهب بن عمير قبل قليل يريد نثره على طرقات المدينة، لكنه عاد إلى مكّة بغير القلب الذي جاء به.. عاد إلى مكة يحمل الحب والإيمان وعمامة النبي ﷺ.

عاد وهب مسلماً، لكن فعله قبل أن يسلم أثار لدى النبي ﷺ وأصحابه حالة اليقظة والحذر، فقد يكون هناك أكثر من مشروع لتصفية النبي ﷺ جسدياً. وقد صدق التوقع، وأفاد الحذر، حيث تسرّبت الأخبار إلى النبي ﷺ عن خطر قادم من جهة مكة، لكنه ليس من قريش،

خطر قادم من قبيلة بني المصطلق

وبنو المصطلق قبيلة عربية تسكن قرب مكة، في المنطقة الواقعة ما بين مكة والمدينة، وقد أراد ﷺ استغلال واستثمار الوقت بمفاجأة تلك القبيلة قبل أن تتحرّك ويتكامل استعدادها.. أراد ﷺ أن يباغتها بضربة سريعة تشلّها، لأن أي تأخير قد يضاعف من خطرها، وذلك لقربها من عدو النبي ﷺ الأول «قبيلة قريش».

أي تأخير يعني مزيداً من الأعوان والعتاد والخطر، فمباغتة ذلك الجيش الوثني وهو مسترخٍ على أرضه.. هو أسرع الطرق وأيسرها للقضاء عليه وإراحة المدينة من خطره. فاستعدّ ﷺ بجيش قوي لـ:

غزو بني المصطلق

وقد انضمّ إلى هذا الجيش مجموعة من المنافقين.. على رأسهم كبير المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول -ربما- لشعوره بقوة جيش النبي ﷺ، وتأكده من هزيمة بني المصطلق.

وقبل أن ينطلق النبي ﷺ بجيشه ذلك أقرع بين سودة وعائشة وأم سلمة، وزينب، لتصحبه إحداهن في رحلته تلك، فالنبي ﷺ (كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه)[١].

---

(١) حديث صحيح رواه الشيخان رحمهما الله وسيأتي بقيته.

القرعة تقع على عائشة

وبعد إجراء القرعة خرج سهم عائشة الحبيبة، لتصحب حبيبها ﷺ في سفره ذلك.

تقول عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها معه، فلما كانت غزوة بني المصطلق، أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهنّ، فخرج بي رسول الله ﷺ معه، وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق[1]، لم يهيجهن اللحم فيثقلن[2]، وكنت إذ رحل بعيري[3] جلست في هودجي[4]، ثم يأتي القوم الذين يرحلون بي بعيري، ويحملوني، فيأخذون بأسفل الهودج، يرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فينطلقون به)[5] (وذلك بعدما أنزل الحجاب، وأنا أُحمل في هودجي، وأنزل فيه، فسرنا)[6] وانطلق الجيش، وانطلقت الهوادج تتمايل عبر الصحاري والقفار، وخلال الأودية والشعاب.. تتمايل بعائشة ورفيقاتها رضي الله عنهن، كما تتمايل القلوب بصوت حادي العيس أنجشة.. ذلك الصوت العذب، الذي يأخذ الأسماع، وربما أخذ الإبل أيضاً.

سمع ﷺ ذلك الصوت الشجي في بعض أسفاره، فخاف على أجساد النساء وقلوبهن.

يقول أنس رضي الله عنه: (كان لرسول الله ﷺ حادٍ حسن الصوت «غلام أسود يقال له (أنجشة) يحدو، فقال له رسول الله ﷺ: يا أنجشة، رويدك سوقاً بالقوارير» رويداً يا أنجشة لا تكسر القوارير)[7]

كان ﷺ من الرقّة والذوق.. بحيث لا يلهيه هدفه العسكري والخطر الذي يكمن له عن تفقد رفاقه والعناية بهم، لدرجة أنه (كان يتخلّف في المسير، فيزجي الضعيف،

---

(١) الطعام اليسير.

(٢) التهييج هو الورم من الشحم.

(٣) أي جهز للرحيل.

(٤) الهودج هو ما تجلس داخله النساء مثبتاً فوق ظهر البعير.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وابن إسحاق وهذا لفظ ابن إسحاق.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠) وأحمد (٦/١٩٤) واللفظ له.

(٧) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم (٢٣٢٣) واللفظ له.

ويردف، ويدعو لهم)[1]. ويدعو أنجشة أن يخفّف من سيره حتى لا تتعب أجساد النساء الرقيقة، وكان وصف النبي ﷺ للنســاء بـ (القوارير) منتهى الذوق والدلال، فالقوارير ناعمة وجميلة، وتحتاج إلى عناية فائقة، وأماكن تليق بها وبرقّتها وجمالها، والمرأة هي الرقّة والجمال والفتنة.. تحتاج إلى مستوى رفيع من التعامل والملاطفة بالقول والفعل، وهو ما فعله ﷺ عندما قال ﷺ لأنجشة: (ويحك يا أنجشة، رويداً بالقوارير)[2].

ها هو ﷺ يحاول طرد الملل والســأم عن نفس حبيبته عائشــة في ذلك الســفر، حيث أمر ﷺ فرســانه الشــجعان بالتقدّم، ثم نادى حبيبته وطلب منها أن تتأخر معه، فالسفر طويل وشاق، ولا بأس ببعض اللهو يدخل البهجة ويجدّد النشاط. فماذا طلب منك الحبيب يا ابنة الصديق؟

تقول رضي الله عنها: (إنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر -وهي جارية- فقال لأصحابه: تقدموا. فتقدّموا، ثم قال: تعالي أسابقك.

فسابقته، فسبقته على رجلي)[3].

لابدّ أن هذا الفوز أسعد عائشة وأضحكها، أما النبي ﷺ فقد تقبّل الخسارة بروح طيبة، لكنه يضمر لعائشة ثأراً وسباقاً آخر قد ينتصر عليها فيه.

وصل الجيش إلى أراضي بني المصطلق.. فكانت:

إغارة كالبرق

فوجــئ بها القوم وصعقوا، وحــدث قتال غير متكافئ لهول المفاجأة، لأن (النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تسقي الماء، فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم)[4]

---

(١) سنده رواه أحمد ٢-١٢٦ حدثني إسماعيل ابن علية حدثنا الحجاج بن أبي عثمان عن أبي الزبير أن جابر حدثهم. أبو الزبير وتلميذه وإسماعيل ثقات، وأبو الزبير لم يدلس.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٢٣٢٣).

(٣) حديث صحيح رواه النســائي في الكبرى (٥/٣٠٤) عن هشــام عن رجل عن أبي ســلمة عن عائشة وهذا الســند فيه جهالة، لكن هشــام رواه عن أبيه عن عائشــة عند أحمد (٦/٢٦٤) وعند النسائي أيضاً في الكبرى (٥/٣٠٤).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٤١).

فكســـرت شوكة بني المصطلق، وبدأت جذوة قريش والشـــرك تخبو في نفوسهم بعد أن رأوا (مائة أهل بيت)[1] وأكثر يساقون سبايا نحو المدينة، وكان من هؤلاء السبايا شابة هي ابنة زعيم بني المصطلق واسمها (جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه)[2] (وكانت امرأة حلوة، ملاحة، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه)[3].

ســـارت جويرية والألم يعتصر قلبها، وهي تســـاق جارية بعد أن كانت ســـيدة نســـاء قومها. أحسّـــت بفداحة الجرم الذي ارتكبه زعماء قبيلتهـــا في حقّها، بل وحق مائة بيت اقتيدوا نحو المدينة، ورغم حسن المعاملة ولطف العناية التي حظي بها هؤلاء من النبي ﷺ وأصحابه، إلاّ أن للوطن والأهل حباً زرعه الله في قلب الإنسان، وقد أثار هذا الذلّ الذي أصاب جويرية وقومها ذلك الشوق والحنين إلى تلك المرابع.. رغم أن النبي ﷺ وأصحابه أكثر البشـــر تحضراً في التعامل مع الأســـرى، وأرقى من يكرمون الأسير، فهم (يطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً)

ورغم أن النبي ﷺ وأصحابه يؤثرون الأسرى بالطعام الجيد على أنفسهم، إلاّ أن قطرات الذلّ تفســـد أشهى الأطباق، وهو ذلّ جلبه صلف الشرك لبني المصطلق، فلولا استعدادهم وإعدادهم للهجوم على المدينة وأهلها، لما أصابهم ما أصابهم..

كانوا يحلمون بســـبايا المدينـــة يقتادونها نحو مرابعهم.. يحلمـــون بدم النبي ﷺ وأصحابـــه وإخماد دعوته، لكن الله ردّ كيدهم في نحورهم، وها هي بيوتهم وأحلامهم قـــد خلت منهم، وها هو جيش محمد ﷺ يعود إلـــى المدينة بهم، وفي الطريق يتوقف النبي ﷺ ويتوقف جيشـــه للاســـتراحة قرب المدينة، فتنبث الجموع هنا وهناك، ومع حلول الليل تتلاشـــى تلك الحركة، وبعد أداء صلاة العشاء يأوي كل إلى فراشه، ويقوم من يقوم منهم في سياحة روحية، وكان أحد أفراد الجيش واسمه (صفوان بن معطل) متأخـــراً عن الجيش -ربما بأمر النبي ﷺ- ليكون عيناً خلفية للجيش ونذيراً لهم إذا ما لحق بهم أحد أو هاجمهم من الخلف، وبعد منتصف الليل أمر ﷺ جيشـــه بالحركة نحو المدينة..

---

(١) سنده صحيح عند ابن إسحاق وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.

(٢) سنده صحيح عند ابن إسحاق وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.

(٣) سنده صحيح عند ابن إسحاق وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.

النبي ﷺ يسبق عائشة

لكن دون سباق.. دون ركض.. دون ابتسامات وضحكات.. سبق النبي ﷺ عائشة في قصة تفيض بالأحزان والدموع والبراءة.

تحرك الجيش ولم تتحرك عائشة، وأشرقت الشمس والأحزان على ذلك الموقع، فلم تجد فيه سوى فتاة صغيرة منكسرة أضاعت عقدها وهودجها، ورحل عنها حبيبها ووالدها وصويحباتها.

أشرقت الشمس والأحزان على عائشة، ووصل صفوان بن معطل ليجد ذلك الحزن في طريقه، ليبحر به خلال بحر أسود من الأحزان والهموم.. بحرٌ تقول عنه عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.. فأقرع بيننا في غزوة غزاها «غزوة بني المصطلق»، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، مسيرنا «وكنت إذا رحل بعيري، جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون هودجي في بعيري، ويحملوني، فيأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه، فيضعونه على ظهر البعير، فيشدّونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير، فينطلقون به»، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه، وقفل، ودنونا من المدينة، «نزل منزلاً، فبات فيه بعض الليل، ثم» آذن[1] ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني، أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقدي من جزع ظفار[2] قد انقطع «انسلّ من عنقي ولا أدري» فرجعت، «عودي على بدئي إلى المكان الذي ذهبت إليه» فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط[3] القوم الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكانت النساء إذا ذاك خفافاً، لم يهبلهن[4] ولم يغشهن اللحم «لم يهيجهن[5] اللحم فيثقلن»، إنما يأكلن العلقة[6] من

(١) أعلنوا الاستعداد للرحيل.

(٢) خرز من مدينة ظفار.

(٣) هم الرجال أقل من عشرة.

(٤) يمتلئن بالشحم واللحم.

(٥) التهييج هو الورم من الشحم أو المرض.

(٦) الطعام اليسير.

الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن[1] الجمل وساروا، «ولم يشكوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به»، ووجدت عقدي بعدما استمرّ الجيش، «ورجعت إلى العسكر»، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فتيمّمت[2] منزلي الذي كنت فيه «فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني الذي ذهبت إليه» وظننت أن القوم سيفقدوني، فيرجعون إليّ.

فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، «فوالله إني لمضطجعة، إذ مرَّ بي صفوان بن المعطل السلمي» وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرّس من وراء الجيش «قد كان تخلّف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس في العسكر» فأدلج[3]، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني، فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب عليّ، «فلما رآني، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! أظعينة رسول الله! وأنا متلفّفة في ثيابي».

فاستيقظت باسترجاعه[4] حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه[5]، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها «واستأخر عني، فركبت وجاء فأخذ برأس البعير»، فانطلق يقود بي الراحلة «سريعاً يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقودني» حتى أتينا الجيش. بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة[6] «فقال أهل الإفك فيَّ ما قالوا، فارتجّ العسكر»

فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولّى كبره[7] عبد الله بن أبي بن سلول، «ووالله ما أعلم بشيء من ذلك» فقدمنا المدينة..)[8].

---

(١) وكان عمرها رضي الله عنها آنذاك بين الثالثة عشر والرابعة عشر.
(٢) قصدته وذهبت إليه.
(٣) سار آخر الليل.
(٤) قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٥) قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٦) شدة حر الظهيرة.
(٧) أي صاحب النصيب الأكبر في إشاعة الإفك ونشره.
(٨) حديث صحيح رواه مسلم والزوائد لابن إسحاق.

مهلاً يا أمّاه

ما هو الإفك، ومن هم أهله..؟ وما هي الفرصة التي غرز فيها هذا المنافق الحقير أنيابه ونفث فيها سمومه..؟

عندما رأى المنافقون عائشة الصغيرة.. عائشة الطاهرة المسكينة على راحلة صفوان بن المعطل رضي الله عنه.. رقصت الفتنة في قلوبهم، وتراقص الشيطان بينهم، وطالت أنيابهم تنهش أطهر الأعراض.. عرض النبي ﷺ.

انطلقت ألسنتهم في جرأة وقحة.. في حقد متربّص تتهم عائشة النقية بالخنا، وتتّهم صفوان البرىء بعائشة رضي الله عنها.

عاصفة من الحقد والتشفّي أطلقها المنافقون، وعاصفة رملية أخرى للنفاق علاقة معها.. عاصفة كادت تدفن الجيش وهو يقترب من المدينة.

عاصفتان ونفاق

العاصفة الأخرى يحدّثنا عنها جابر رضي الله عنه، فيقول: (إن رسول الله ﷺ قدم من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب، فزعم أن رسول الله ﷺ قال: بعثت هذه الريح لموت منافق.

فلما قدم المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات)[(١)].

فرح النبي ﷺ وأصحابه بهلاك ذلك الطاغوت.. ذلك الكهف الذي تتسلّل إليه الأفاعي والعقارب الآدمية التي تعيش بين المؤمنين، وتتكلّم بألسنتهم، وتتظاهر أنها منهم، وفرح ﷺ بقدوم عائشة، وفرحت عائشة بحبيبها وهي لا تعلم، وهو أيضاً لا يعلم ما تتلقّفه ألسنة المنافقين من جريمة، وبعد الوصول قام ﷺ بـ:

توزيع الغنائم.. توزيع الرحمة

عائشة المسكينة البريئة.. التي تلوك عرضها ألسنة المنافقين وهي لا تعلم شيئاً عن ذلك حتى الآن.. عائشة التي أتعبها السفر، فانهار جسمها الضعيف على فراش

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم –صفات المنافقين (٢٧٨٢).

المرض.. تحدّثنا عن معاناة لها مع توزيع الغنائم والسبايا، فتقول: (لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عمة له، فكاتبته على نفسها[1]، وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها.

قالت عائشة: فوالله ما هو إلاّ أن رأيتها على باب حجرتي، فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت، فدخلت عليه)[2].

دخلت جويرية فدخلت الرحمة على قومها

تقول عائشة رضي الله عنها في حديثها عن جويرية: (فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عمٍ له، فكاتبته على نفسي[3]، فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال ﷺ: فهل لك في خير من ذلك؟

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال ﷺ: أقضي عنك كتابتك وأتزوّجك.

قالت: نعم.. يا رسول الله، قد فعلت.

قالت عائشة: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوّج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار. فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم[4].

قالت عائشة: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها)[5]

---

(١) أي يحررها مقابل مال تدفعه له.

(٢) سنده صحيح انظر: تخريجه في نهاية القصة.

(٣) أي يحررها مقابل مال تدفعه له.

(٤) حرروهم وأطلقوهم.

(٥) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وغيره من طريقه: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة، محمد ثقة من رجال التقريب (٤٧١) وعروة مر معنا كثيراً.

وما أعلم أحداً أعظم بركة عليها وعلى قومها وعلى الناس جميعاً من محمد ﷺ.. لقد وجدت في رحمته وسماحته مكاناً لمطالبها الصعبة، فهي أسيرة عنده، ومع ذلك تطلب منه أن يعينها للفكاك بماله، فيأخذ بيديها، ويشرع لها باباً يطل على كنوز الدنيا والآخرة، وهل هناك كنز في الدنيا أعظم من أن تكون شريكة حياته ﷺ.

لم تقتصر بركته ﷺ على تلك الكريمة الجميلة.. لقد كانت بركة كالشمس ينساب شعاعها على أكثر من مائة بيت من بني المصطلق، فانطلقوا معززين مكرمين في دفئها وشعاعها يحملون الحرية والعرفان للنبي ﷺ وأصحابه الكرام.

وفي وسط تلك الأجواء الاحتفالية.. كانت عائشة تحسّ بآلام السفر والإعياء الشديدين.. سقطت بعد أيام قليلة في فراشها، وطال رقادها على فراشها وأنينها، لكن ألمها ازداد عندما أحست بجفوة غريبة من النبي ﷺ.. أحسّت بتغيّر معاملته لها، وهي التي تعوّدت منه الرقّة واللطف.. خاصة عندما تكون مريضة، حيث يتدفق حبه عليها ﷺ.. يغمرها بكلماته ولمساته الحانية المحبة.

تقول رضي الله عنها: (فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكى، «أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك في شكواي تلك، فأنكرت منه» إنما يدخل رسول الله ﷺ «عليَّ وأمي تمرّضني» فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ «لا يزيد في ذلك» ولا أشعر بالشر)[1].

شهر من المعاناة

وعائشة لا تدري عما يدور حولها.. لقد تطاول المنافقون على حصنها المنيع.. حاولوا تشويهه.. قذفوا عائشة وأرجفوا في البلاد، فارتجّت المدينة، ووصل الخبر إلى النبي ﷺ، فتكدّر لإلقاء التهم جزافاً على مسلمة طاهرة.. هي زوجته وأحب الناس إليه، وتأثر بتلك الشائعة أناس مؤمنون، وضعفوا أمام لغط المنافقين، وهم بشر كبقية البشر، ولكل إنسان هفوات وأخطاء..

(١) رواه مسلم (٢٧٧٠) واللفظ له والبخاري (٤١٤١) والزوائد لابن إسحاق وقد مر معنا.

تلقف ثلاثة من المؤمنين الإفك، فاتهموا عائشة الطاهرة، وهم: رجلان وامرأة.. ثلاثة أشخاص لا تحوم حولهم شبه النفاق، لكنهم يظلّون بشراً ناقصين.. معرّضين للإثم والخطأ في كل لحظة وثانية، أما الرجل الأشهر منهم فهو شاعر النبي ﷺ، الذي يؤيّده روح القدس في أشعاره التي دافع بها عن النبي ﷺ (حسان بن ثابت) والآخر رجل من أهل بدر وقد (اطّلع الله على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)[1] واسمه (مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب) وقد كان أبو بكر الصديق ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره، ومع ذلك حدث منه ما حدث.

أما المرأة فهي أخت أم المؤمنين (زينب بنت جحش) واسمها (حمنة) ولا أدري ما هو دافع الرجلين، أما حمنة فكان دافعها الحمية لأختها زينب، التي كانت تنافس عائشة في المنزلة عند رسول الله ﷺ.

أما رأس الحية وسمّها، ومنبع قيح الإفك فهو زعيم المنافقين (عبد الله بن أبي بن سلول) الذي ذهب يزرع المدينة.. شوارعها ومجالسها.. بلسانه المتعفّن. حوله الحقد إلى رجل تافه بلا قيم.. بلا أخلاق.. رجل لا يحترم مكانته بين قومه.. رجل أفقده الحسد عقله ورزانته، فأصبح كالأبله لا همّ له، ولا شأن سوى عائشة الصغيرة.. يتشفّى بذكرها واتّهامها، بعد أن فقد الأمل في الحصول على زعامة، أو حتى مكانة محترمة في المدينة.. بعد أن أحرقته عيون أهلها باحتقار سلوكياته، والتقزّز منه ومن مجالسه وجلسائه، الذين هم خليط من عفن الشرك واليهود والخونة.

هذا هو ابن سلول وهذه هي عقيلته الصغيرة، فهو الذي تولّى كبر الإثم ومعظمه، لكن:

متى علمت عائشة بالإفك

تقول رضي الله عنها: (كان الذي تولّى كبره عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً، «اشتكيت شكوى شديدة، لا يبلغني شيء من ذلك، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ، وإلى أبوي، ولا يذكران لي من ذلك قليلاً ولا كثيراً» والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤).

يريبنـــي في وجعي أني لا أعرف من رســـول الله ﷺ اللطــف الذي كنت أرى منه حين أشـــتكي، إنما يدخل رســـول الله ﷺ فيســـلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ فذاك يريبني، ولا أشــعر بالشـــر «كنت إذا اشـــتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك في شكواي تلك، فأنكـــرت منه، وكان إذا دخل عليّ وأمـــي تمرضني قال: كيف تيكم؟ لا يزيد على ذلك، حتى وجدت نفســـي مما رأيت من جفائه عني، فقلت له: يا رســـول الله، لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني؟ قال: لا عليك.

فانتقلت إلى أمي ولا أعلم بشيء مما كان»، حتى خرجت بعدما نقهت[1]، وخرجت معي أم مســـطح قبل المناصع[2] وهو متبرزنا، ولا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف[3] قريباً من بيوتنا، وأمرنا العرب الأول في التنزّه[4]، وكنّا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مســـطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مســـطح ابن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها[5]، فقالت: تعس مسطح.

فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبّين رجلاً قد شهد بدراً [أي أم، تسبين ابنك؟

وسكتت، ثم عثرت الثانية، فقالت: تعس مسطح.

فقلت لها: تسبين ابنك؟ ثم عثرت الثالثة، فقالت: تعس مسطح.

فانتهرتها. فقالت: والله ما أسبّه إلاّ فيك.

فقلت: في أي شأني؟]

قالـــت: أي هنتاه! أوَلم تســـمعي ما قال؟ قلت: وماذا قـــال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك [فبقرت لي الحديث[6].

فقلت: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله].

---

(١) فترة النقاهة هي الأيام الأولى للشفاء من المرض حيث عادت إلى بيتها.
(٢) مكان خارج المدينة.
(٣) المكان الساتر.
(٤) الخروج للنزهة في الصحراء.
(٥) ثوبها وهو كساء من الصوف.
(٦) أي فصلت الحديث وسردته.

فـــازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، «فمازلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع قلبي»، فدخل عليّ رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم؟

قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي، وأنا أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما. فأذن لي رسول الله ﷺ.

فجئت أبوي [فأرســـل معي الغلام، فدخلت الدار فوجدت أم رومان[1] في الأسفل وأبـــا بكر فـــوق البيت يقرأ. فقالت أمـــي: ما جاء بك يا بنيـــة؟ فأخبرتها، وذكرت لها الحديث، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ مني]

فقلـــت لأمي: يا أمتاه، ما يتحدث الناس؟ فقالت: يـــا بنية هونّي عليك [خفضني عليك الشـــأن]، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة [حســـناء] عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلاّ كثرن[2] عليها، [إلاّ حسدنها وقيل فيها، وإذا لم يبلغ منها ما بلغ مني.

قلت: وقد علم به أبي؟

قالت: نعم.

قلت: ورسول الله ﷺ؟

قالت: نعم، ورسول الله ﷺ.

قلت: سبحان الله، وقد تحدث الناس بهذا؟ «تحدث الناس بما تحدّثوا به، وبلغك ما بلغك، ولا تذكرين لي من ذلك شـــيئاً» [واســـتعبرت وبكيت، فســـمع أبو بكر صوتي -وهو فوق البيت يقرأ- فنزل، فقال لأمي: ما شأنها؟

قالت: بلغها الذي ذكر من شـــأنها، ففاضت عيناه، قال: أقسمت عليك أي بنية إلاّ رجعت إلى بيتك، فرجعت].

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع[3]، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي)[4].

---

(١) هي أم عائشة رضي الله عنها.

(٢) أي أكثرن من ذكرها بما يعيبها.

(٣) أي أن دمعها لم يتوقف تلك الليلة ولم يغش النوم عينها.

(٤) مسلم ٢٧٧٠ ومابين الأقواس الصغييرة لابن إسحاق وما بين المعقوفين للبخاري ٤١٤١.

أفاقت عائشة من مرض السفر على مرض أشدّ.. أفاقت رضي الله عنها والعالم ينهار على رأسها.. بكت بكاءً مراً حتى أحرق البكاء كبدها، أما والداها فكالحزن حولها.. ليس بأيديهما ما يخفف وجع هذه الشابة المكلومة المبتلاة ولا ما يسليها.

أما النبي الحزين الحائر ﷺ فالوحي لم ينزل عليه حتى الآن، والإشاعات تحاصره وتخنق أنفاس حبيبته، فاجتهد ﷺ اجتهاد البشر، واستدعى علياً وابنه أسامة بن زيد بن محمد، فقد ضاق به الحال، وتأذى كثيراً وهو يسمع المنافقين يلوكون عرضه الطاهر ليل نهار، فهل من نهاية لهذا الأمر..؟ إلى أين يأخذه الحزن..؟ إلى أين تأخذه قدماه الشريفتان..؟

توجّه النبي ﷺ إلى أحد أبياته.. إلى بيت زينب بنت جحش رضي الله عنها بالتحديد، ليسألها عن عائشة فهي التي تنافسها من بين زوجات النبي ﷺ، فلعلّها تقول شيئاً يزيل حيرته ﷺ.. لعله يعرف مصادر الفرية التي تلوكها أختها «حمنة».

النبي ﷺ يسأل زينب

وزينب كالمطر.. ستقول الحقيقة، ولن تأبه بحمية أختها لها وغيرتها من عائشة.

تقول عائشة: أن (رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش -زوج النبي ﷺ- عن أمري: ما علمت أو ما رأيت؟ فقالت: يارسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلاّ خيراً.

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني[1] من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع. وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك)[2] (وكان الذي يتكلم به فيه: «مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، والمنافق عبد الله بن أبي بن سلول» وهو الذي كان يستوشيه[3]، ويجمعه، وهو الذي تولّى كبره[4] منهم هو وحمنة)[5] التي لم تكن تعرف

(١) تنافسني.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم -التوبة.

(٣) ينشره ويحث غيره على نشره وإشاعته.

(٤) معظمه.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري ٤ - ١٧٨٠ والزيادة للطبراني ٢٣-١١٠.

النفاق، لكنها الغيرة التي تورد من يرعاها بين أضلاعه موارد الضياع والهلاك، والهوى يعمي ويصم، والصحابة ومنهم حمنة وحسان ومسطح بشر غير معصومين.

أما نبي الله ﷺ فقد توجهت به الهموم إلى مزيد من التســاؤل والاستشارة، فقد آذاه ابن سلول في أهله وصاحبه، وقد تجاوز أذاه كل الحدود.

النبي ﷺ يستشير ويسأل عن حل

تقول عائشــة رضي الله عنها: (ودعا رســول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي[1]، يستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشــار على رســول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود. فقال: يا رسول الله، هم أهلك ولا نعلم إلاّ خيراً «وهذا الكذب والباطل».

وأمّا علي بن أبي طالب فقال: «يا رسول الله» لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، «وإنك لقادر على أن تستخلف» وإن تسأل الجارية تصدقك)[2].

فأخذ ﷺ برأي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في سؤال جارية عائشة واسمها «بريرة»، ولم يأخذ رأيه بتطليقها الذي يلوح بين كلماته، ليريحه من همّ التفكير والحيرة التي طالت عليه ﷺ.

استدعاء بريرة

تقول عائشة الطاهرة: (فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟

قالــت له بريرة: والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليهــا أمراً قط أغمصه[3] عليها، أكثر من أنها جارية حديثة الســن، تنام عن عجين أهلهــا، فتأتي الداجن[4] فتأكله)[5]

(١) تأخر عن النبي ﷺ.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٦-٢٦٨٣ واللفظ له والبخاري ٢-٩٤٢ والزوائد لابن إسحاق.
(٣) أعيبها به.
(٤) الشاة التي تألف البيت ولا تخرج للمرعى.
(٥) حديث صحيح رواه مسلم ٤-٢١٢٩.

(وانتهرها بعض أصحابه[1]، فقال: اصدقي رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به[2])[3] (فقال رسول الله ﷺ: لست عن هذا أسألك.

قالت: فعمه..؟ فلما فطنت قالت: سبحان الله!! «والله» ما أعلم من عائشة إلاّ كما يعلم الصائغ من التبر[4] الأحمر)[5]

وماذا يعلم الصائغ من الذهب الأحمر النقي قبل صياغته واختلاطه بغيره سوى النقاء..؟

كانت بريرة تتحدّث عن الصفاء.. عن الطهارة.. عن عائشة، أمّا المنافقون فكانوا يتحدّثون قيحاً وصديداً ينزّ من نفوسهم السوداء، لكن ماذا عن البريء الآخر.. (صفوان بن معطل) ذلك الشاب الذي قُذف هو الآخر، ولوّثه المنافقون بأنفاسهم الموبوءة،

تنامى إلى سمعه ما يقال عنه وعن أمّه عائشة، فما زاد على كلمات تحدثنا عنها عائشة، فتقول: (وبلغ الأمر إلى ذلك الرجل الذي قيل له: فقال: سبحان الله، والله ما كشفت كنف أنثى قط!!)[6]

لكن عبد الله بن أبي بن سلول يصرّ على تشويهه والافتراء عليه، ويتشهى بذكره وذكر أمّه عائشة في مجالسه، حتى طفح الكيل، فأغضب صنيعه رسول الله ﷺ فماذا فعل؟

رسول الله ﷺ يخطب حزناً

فبعد أن سمع ﷺ رأي أقرب الناس من عائشة، وأعلمهم بحالها.. خاصة أسامة وزينب وبريرة.. تحرك نحو منبره، وجمع أصحابه يطلب منهم أن يعذروه.. أن ينصروه على ذلك المنافق الذي يخرج من أعماقه وسخه ليلطخ به رسول الله ﷺ وأهله وأصحابه.

---

(١) هو علي بن أبي طالب، وقد ورد أنه ضربها ضرباً شديداً، لكنني لا أستطيع الجزم بصحة سند هذه العبارة، فربما كانت من المراسيل التي عند ابن إسحاق.

(٢) أي: صرحوا لها بالتهمة.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٥٧).

(٤) الذهب النقي الخالص.

(٥) سنده صحيح رواه الطبراني ٢٣-١٠٦ وأبو يعلى ٨-٣٣٥ من طريق حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

(٦) هو بقية حديث البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠) واللفظ له.

تقول عائشة المكلومة: «فخرج النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه»، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فاستعذر[1] من عبد الله بن أبي سلول. فقال: رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبنوا[2] أهلي، ما علمت عليهم من سوء قط، وابنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط، ولا تغيب قط إلاّ وهو معي، ولا دخل بيتي قط إلاّ وأنا شاهد». يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري[3]، فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله[4]، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً، ولكن اجتهلته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله «أما والله أن لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم».

فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان: الأوس والخزرج «حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ في المسجد»، حتى همّوا أن يقتتلوا)[5].

تأزم الموقف، ورقص الشيطان طرباً لما يحدث، وتمايل قلب عبد الله ابن أبي بن سلول وفرك الحقد يديه فرحاً.. ابتهج المنافق بالمسافة التي وصلت إليها الأمور.

يا الله.. كلمة واحدة.. لا دليل عليها ولا برهان سوى الكذب.. أوصلت الأمور إلى حد كادت السيوف أن تُسلّ، والدماء أن تغرق المسجد ومن فيه، وتلك العبارات التي تفوّه بها سعد بن عبادة رضي الله عنه في دفاعه عندما اجتهلته الحمية.. تلك

---

(١) من يقوم بعذري ولا يلومني إن جازيته على فعله القبيح.

(٢) رموهم بخلق قبيح وقذفوهم بالزنا.

(٣) وهو سيد الأوس.

(٤) أي أنا أنصرك.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٢٧٧٠) والزوائد للبخاري (٤٧٥٧).

العبـــارات التي قيلت دفاعاً عــن رأس المنافقين وخبيثهم في ســـاعة غضب وحمية.. كانـــت كلمات خطيرة جداً.. كانت مليئة بالدماء.. قالها أحد عظماء الإســـلام ورجاله السابقين، ولا تقل عنها في الخطورة تلك الكلمات التي أطلقها أسيد بن حضير رضي الله عنه غضباً لله ورسوله، وهو من عظماء الإسلام ورجاله السابقين كسعد بن عبادة، لكنه غضب لله ورسوله غضباً جعله يصف ابن عبادة الكريم بالنفاق.

تلـــك الألفاظ التي انطلقت كالرصاص الطائش داخل المســـجد كانت أمام ســـمع النبي ﷺ وبصره.. أمام سمع نبي مجروح في عرضه وشرفه ومكانته، وهو قائد هذه الأمة، وفي بقعة هي من خير البقاع على وجه الأرض.. داخل المسجد النبوي الكريم.

موقفان خطيران.. حدثا أمام النبي ﷺ، ومازالت مشاهدهما تتكرّر في كل زمان.. موقفان يتجسدان أكثر ما يتجسدان بين الدعاة وبين العلماء.. بين من يحملون الإسلام خطـــاً ومنهاجاً وإن تحوّرت القبيلة إلى جماعة في بعض المشـــاهد.. موقفان لا يمكن وصفهما إلاّ بالتطرف.

موقف من تجتهله الحمية وتقوده فينســـى نفسه وحدوده، وموقف من يغضب لله ومحارمه غضباً ينسيه نفسه وحدوده، فإذا غضبه يقتحم النوايا والقلوب والضمائر.

لا هذا الموقف يهم، ولا ذاك.. لا موقف سعد بن عبادة رضي الله عنه، ولا موقف أســـيد بن حضير رضي الله عنه، لأنها تســـر وتفرح ابن ســـلول ومـــن معه من أعداء المســـلمين جميعاً، والمتضررون منها هم المســـلمون ودولتهم الفتيـــة، أما نحن فأمامنا موقف هذا الحزين الواقف فوق منبره..

هذا النبي الذي لا ينطق عن الهوى..

صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وســـلّم.. ما أجمله وأحلمه وأحكمه.. هو الحكم والحكمة.. محمد ﷺ والبقية تبع لمحمد..

ماذا فعل بأبي هو وأمي، وهو يحس بالمنايا تموج تنتظر السيوف والدماء..؟

لقد قتل الفتنة في مهدها، وأعاد الطرفان إلى الصواب والحكمة، فسعد بن عبادة ملء السمع والبصر، وأسيد بن حضير ملء السمع والبصر، لكنهما غاضبان، والأمر لا يستحق أن تسفك من أجله الدماء، وما سفكت الدماء في مثل هذه المواقف إلاّ لغياب تلك الحكمة التي تتلألأ فوق منبره ﷺ.

تقول عائشة وهي تشعر بأن تلك السيوف تسافر في قلبها أن الأوس والخزرج (همّوا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، وسكت.

قالت عائشة: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي)[1].

كاد الحزن أن يهلكها ويفنيها .. إنها تصف الحزن الذي أحرق كبدها شهرا، والمأساة التي وصلت إليها فتقول: (لما بلغني ما تكلّموا به، هممت أن آتي قليباً فأطرح نفسي فيه)[2] لكنها لم تفعل لخوفها من الله وثقتها به، وأنه لن يتركها وحيدة في هذا العالم الحائر في أمر شابة طهور كالمطر.

تواصل حزنها وحديثها عن النبي ﷺ وما جرى في مسجده فتقول: (وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، «فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً»، وأبواي يظنّان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، استأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي «معي».

فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ «وقد صلّى العصر»، فسلم. ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شأني بشيء «وقد اكتنفني أبواي عن يميني وشمالي» فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا .. وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب «إلى الله» تاب الله عليه.

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته[3]، قلص دمعي[4] حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب عنّي رسول الله فيما قال.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم (٢٧٧٠) واللفظ له.

(٢) سنده حسن من أجل ابن خداش وقد وثقه أئمة النقد وجرحه غير مفسر، التهذيب ٣-٧٤. رواه الطبراني ٢٣-١٢١. حدثنا أحمد بن القاسم حدثنا خالد بن خداش حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة. ابن أبي مليكة تابعي ثقة التقريب ٣١٢ وتلميذه السختياني ثقة ثبت حجة وحماد ثقة ثبت فقيه وشيخ الطبراني ثقة، البلغة (٦١).

(٣) حديثه.

(٤) توقف دمعها.

فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ.

فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ)[1].

سكت الجميع.. خرست الكلمات وفاضت الدمعات والزفرات، فتحررت من صدر عائشة الطاهرة المظلومة كلمات كالجمر.. زفرات لا تضل طريقها أبداً:

دعوة مكروب

انفجــرت داخل صدرها كالبركان.. دعوة نبيّ الله يعقوب عندما فقد أحبّ أبنائه إليه يوسف وبنيامين عليهما السّلام.. دعوة أطلقها يعقوب بعدما أصابه العمى، وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم، لكن حزن عائشة أنساها اسم ذلك النبيّ المكروب.

حاولت تذكره فلم تستطع، لكنها عاشت معاناته ودعاءه، فتوجهت عائشة الصغيرة نحو أبيها الذي لا يدري ما يقول.. نحو أمها التي تمسح دمعها، ونحو حبيبها الذي آذاه الناس وتأخّر عنه الوحي، فقالت كلمات كالجمر.. قالت رضي الله عنها: (فقلت: وأنا جارية حديثة الســن، لا أقرأ كثيراً من القرآن، «تشــهدت، فحمدت الله تعالى وأثنيت عليــه بما هــو أهله ثم قلت: أما بعد»: إنــي والله، لقد عرفت أنكم قد ســمعتم بهذا حتى اســتقرّ في نفوســكم وصدقتم به، فإن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقونــي بذلك، «والله عزّ وجلّ يشــهد إني لصادقة، ما ذاك بنافعي عندكم، لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم»، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ، والله يعلم أني بريئة، لتصدقونني «إن قلــت إنــي فعلت، والله يعلم أني لم أفعل، لتقولن قد باءت به على نفســها». وإني والله، ما أجد لي ولكم مثلاً إلاّ كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ «والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه»)[1]

حاولت عائشة تذكر اسم يعقوب فلم تستطع، فألقت بجسدها وقلبها المتعبين على فراش كالمرض، وألقت بكمدها وبثها إلى الله وسكتت.

---

(١) هو حديث البخاري ومسلم السابق.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٥٧).

فقد بلغ بها المرض والكرب مسافات أتعبتها وضعضعت جسدها النحيل الذي كان قبل أيام يسابق رسول الله ﷺ ويسبقه على طريق بني المصطلق، أما اليوم فهي جلد على عظم، وحزن على حزن، ولكن الله أرحم بهذه المسكينة التي أنحفها الضَّيْم، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

هبطت رحمة الله ونزل عدله سبحانه، فسمعت عائشة في تلك الحجرة حركة غريبة وهمهمة ليست غريبة، فاعتدلت بهدوء ونظرت فإذا النبي ﷺ يغشى عليه ويوحى إليه، والعرق يتحدّر من جبينه الشريف، وهو يعاني ثقلاً وشدّة من نزول الوحي عليه.. كان ثقلاً يزيح عن عائشة جبالاً من الهموم.. نزل الوحي بـ:

براءة عائشة رضي الله عنها

تقول رضي الله عنها بعد أن لهجت بدعائها: (فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون. ثم تحولت، فاضطجعت على فراشي، وأنا والله يعلم أني بريئة، وأن الله مبرّئي ببراءتي. ولكن، والله، ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلّم الله عزّ وجلّ فيّ بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

فوالله ما رام[1] رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه ﷺ، فأخذه[2] ما كان يأخذه من البرحاء[3] عند الوحي، حتى إنه كان ليتحدّر منه مثل الجمان[4] من العرق في اليوم الشات[5]، من ثقل القول الذي أنزله عليه، «وأنزل على رسول الله ﷺ من ساعته، فسكتنا، فرفع عنه وإني لأتبيّن السرور في وجهه وهو يمسح جبينه» فلما سرّي[6] عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك، فكان أوّل كلمة تكلّم بها أن قال: أبشري يا عائشة، أما الله فقد برّأك «أنزل الله براءتك». فقالت لي أمي: قومي إليه.

(١) أي: ما فارق.
(٢) جاءه أصابه.
(٣) الحمى الشديدة التي تسيل العرق.
(٤) مثل حبات اللؤلؤ.
(٥) أي أن ذلك يسيل منه حتى في أيام الشتاء الباردة.
(٦) انتهى ما به من معاناة نزول الوحي.

فقلت: والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلاّ الله، هو الذي أنزل براءتي، «وكنت أشد ما كنت غضباً.

فقال لي أبواي: قومي [فقبلي رأس رسول الله]، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمده، ولا أحمدكما، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيّرتموه».

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ(1) مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ(2) وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ(3) ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ(4) فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ(5) بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ(6) فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾(7)، عشر آيات، فأنزل الله عزّ وجلّ هؤلاء الآيات براءتي)(8).

---

(1) جماعة.

(2) المقصود حسان وحمنة ومسطح وهم من المؤمنين رضي الله عنهم.

(3) المقصود رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول.

(4) خضتم فيه.

(5) تتلقونه ويرويه بعضكم عن بعض وهو كذب.

(6) تنتشر.

(7) أكملت الآيات العشر للفائدة.

(8) هو حديث البخاري مسلم السابق.

وتصف عائشة رضي الله عنها حالها وثقتها بربها وطهارتها، وتصف حالة والديها والخوف يكاد يقتلهما، خشيت أن تثبت التهمة على ابنتهما..

أثناء نزول هذه الآيات الكريمات، والنبي ﷺ مغشى عليه من شدّة الوحي كانت حجرة عائشة عوالم من المشاعر والانتظار والتقرب، تشعر بها عائشة البريئة فتقول: (فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه، ووُضعت وسادة من أدم[1] تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت وما باليت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا[2] من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس[3].

ثم سرّي عن رسول الله ﷺ، فجلس، وإنه ليتحدّر من وجهه مثل الجمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: أبشري يا عائشة، قد أنزل الله براءتك. قلت: الحمد لله)

ثم قام ﷺ وخرج من البيت متجهاً نحو الناس.. نحو المدينة.. نحو العالم، ليخبرهم ببراءة حبيبته إلى يوم القيامة.. ليكشف للمدينة كذب ابن سلول ومن معه، وليضع أمام الدنيا.. كل الدنيا حقيقة طاهرة، وحكماً لا يزول: أن من سيقذف عائشة بعد اليوم فقد كذب الله وكفر بكتابه.. خرج ﷺ لـ:

إعلان البراءة واستدعاء الجناة

تقول عائشة: (ثم خرج ﷺ إلى الناس، وتلا عليهم ما أنزل الله عزّ وجلّ من القرآن في ذلك و«لما تلا رسول الله ﷺ القصة التي نزل بها عذري على الناس، نزل فأمر برجلين وامرأة، ممن تكلم بالفاحشة في عائشة فجلدوا حدهم»: أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدّهم)[4]

(١) جلد. (٢) خوفاً.

(٣) أي خوفاً من أن تصدق تلك التهمة الكاذبة.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق من رواية الإفك الصحيحة: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، عن عمرة، عن عائشة. عبد الله تابعي ثقة التقريب ٢٩٧ وعمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ثقة تتلمذت على عائشة وأكثرت الرواية عنها التقريب ٧٥٠.

أي جلـد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثمانين جلدة، لأن الله سـبحانه وتعالى قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ[1] ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] وقد تاب الثلاثة رضي الله عنهم بعد أن نزلت الآيات، وتأكدوا من تهوّرهم واستخفاف ابن أبي بن سـلول بعقولهم، وكان لأبي بكر موقف من مسطح تبيّن من خلاله مدى الجرح الذي كان يئن منه أبو بكر ويعاني، لكن إيمان أبي بكر كان أعظم من أي موقف.. أسما من أي قرار يتّخذه ساعة غضب، لأنه أبو بكر، ولأنه الصدّيق.

موقف أبي بكر الغاضب

تقول عائشـة رضي الله عنهـا: (فقال أبو بكر، وكان ينفق على مسـطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شـيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة «فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسـطحاً بنافعة أبداً»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فقـال أبو بكر: «بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا»، والله إني لأحب أن يغفر اللـه لي. فرجع إلى مسـطح النفقة التي كانت ينفق عليـه، «وعاد له بما كان يصنع»، وقـال: لا أنزعها منه أبداً)[3]. فأفاق مسـطح بن أثاثة على نسـمات أبي بكر الباردة، وأدرك عظمـة الصديق وكرمه، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في حقه وحق ابنته الطهـور، فأبو بكر الذي تغلغل في سـويداء النبي ﷺ واحتلّ ما لـم يحتله غيره.. لا يستحق كل هذا العقوق، ولكي يعرف العالم مساحة أبي بكر في عالم النبي ﷺ أسوق هذه القصة التي حصلت فيها:

---

(١) يتهمونهن بالزنا.

(٢) سورة النور: الآيتان ٤، ٥.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٥٧) ومسلم -التوبة-.

مشادة بين أبي بكر وعمر

سوء خلاف بين أعظم رجلين في أمة محمد ﷺ.. سوء الخلاف ذلك أثار غباراً انقشع، فلم تر الدنيا بعد انقشاعه إلاّ أبا بكر، ثم عمر والباقين رضي الله عنهم جميعاً.

صحابي جميل اسـمه أبو الدرداء شـاهد ما حدث ورواه، فقال: (كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً، فاتبعه أبو بكر يسـأله أن يسـتغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: أما صاحبكم فقد غامر(1).

وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سـلّم، وجلس إلى النبي ﷺ، وقصّ على رسول الله ﷺ الخبر.

قـال أبو الدرداء: وغضب رسـول الله ﷺ «فجعل وجه النبـي ﷺ يتمعر(2) حتى أشـفق(3) أبو بكر، فجثا على ركبتيه»(4)، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسـول الله، لأنا كنت أظلم «يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم».

فقال رسول الله ﷺ: هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟

هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟

إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت «وواساني بنفسه وماله»

«فما أوذي بعدها»)(5)

إذا كانـت هـذه الغضبة من أجل أبي بكر وفي أمر يسـير، ومع من؟ مع عمر وما أدراك ما هذا العظيم المسـمّى عمر، فمـاذا يقال عن إيذاء مَنْ هم دون عمر، وافتراء من هم أقل من عمر على أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً.

---

(1) أي خاصم.

(2) يتغير لونه.

(3) خاف.

(4) جلس على ركبتيه.

(5) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦٤٠) والزوائد عنده (٣٦٦١).

هذه المرة لم ينتصر النبي ﷺ لأبي بكر.. لقد انتصر له الله، وآزره الله، وأنزل فيه وفي ابنته آيات تتلى إلى يوم القيامة، أما عدوّه وعدّو الله وعدوّ رسـول الله ﷺ (عبد الله بن أبي بن سـلول) جرثومة النفاق، فقد وجدت له سببين لكل هذه الحملة القذرة التي شنّها ليلوّث بها عرض رسول الله ﷺ وعرض صاحبه الصديق:

السبب الأول هو كفره وحقده وحسده للنبي ﷺ على زعامته وإقامته دولة مسلمة في عقر داره ودار قومه.

أما السبب الثاني، فهو سؤال حول:

عبد الله بن أبيّ بن سلول هل كان قواداً

والقواد هو الشـخص الوضيع الذي يقوم بتنظيم حفـلات البغاء وتأجير البغايا، مقابـل مبالغ قذرة مثله، وكان عبـد الله بن أبيّ يقوم بذلك، بل كان يرغم جاريته على ذلك إرغاماً، ويبدو أنه تضايق كثيراً عندما نزل تحريم الزنا، فهو وأمثاله يريدون نشر مهنتهم في هذا المجال وإشـاعتها، وعندما لم يجد بدّاً من التخلص من قذارته رماها على عتبة دار عائشة النظيفة النقيّة.

يقول أحد الصحابة: (في قول الله تعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾: نزلـت في عبد الله بن أبي، كانت عنده جارية «يقال لها مسيكة»، وكان يكرهها على الزنا، فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾)[1]، بهنّ.

إذاً فهذا هو عالم ابن سلول المليء باليهود والعفن والبغايا والنفاق، وهو عالم ما زال يتناسـل حتى اليوم.. تناسـل الحشرات التي لا تجد نفسـها إلاّ عند العفن، وهو لم يكن

(١) سـنده صحيح رواه البزار ٣-٦١ ، زوائد والطبراني ١١/٢٨٤) والطبري في تفسـيره والزيادة له: حدثني الحسـن بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير، أنه سـمع جابر. الحجاج والحسن صدوقان وابن جريج وأبو الزبير صرحا بالسماع ورواه البزار عن ابن السائب عن ابن جبير عن ابن عباس، وعن ابن إسحاق عن الزهري عن أنس واللفظ له والزيادة للطبري.

كذلك في جاهليته، لكنه الحسد.. يطيح بالقامات ويجتث من النفوس المكرمات، ويسفل بالهمة والاهتمامات، أمّا من حاول الدفاع عنه في لحظة من لحظات الضعف البشـري حين تمسّها العصبية، فله قصة أخرى جعلته يفيق من لحظة السهو القصيرة تلك.

أقصد سعد بن عبادة رضي الله عنه، الذي تحدّى سعد بن معاذ أن يقتل عبد الله ابن أبي بن سلول.

قصة ابن عبادة مع القذف

ابن عبادة الكريم.. الصحابي العظيم الجليل.. يحب قبيلته، ويتمزّق قلبه لأفعال ابن سلول المشينة.. يؤلمه ما يقوله عبد الله بن أبي، ويتمنى هدايته لكن ابن أبي كان حجراً.

نزلت الآية تبيِّن أن من قذف يجلد، فتحركت الغيرة في دم سعد بن عبادة وغلت، فتكلـم بكلام لم يعجب النبي ﷺ، فابتلاه الله بمصيبـة وقعت في قومه، فكانت عاراً على قوم ابن أبي بعد أن كان يتمنى تعليق العار على باب النبي ﷺ.

فعندما (نزلت هذه الآيـة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾، قـال سـعد بن عبادة: لهكذا أنزلت يا رسـول الله؟! لو أتيت لـكاع[١] قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرّكه، حتى آتي بأربعة شهداء؟ فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء، حتى يفرغ من حاجتـه! «إن أنا رأيت لكاع متفخذها رجل، فقلت بمـا رأيت، إن في ظهري لثمانين»، فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار، أما تسمعون إلى ما يقول سيدكم؟

قالـوا: لا تلمـه فإنه رجل غيور، ما تزوج فينا قط إلاّ عـذراء، ولا طلّق امرأة له، فاجترأ رجل منّا أن يتزوجها «فقال رسول الله ﷺ: فإن الله يأبى إلاّ ذاك»[٢].

قال سعد: «صدق الله ورسوله» يا رسول الله بأبي وأمي، والله إني لأعرف أنها من الله، وأنها حق، ولكن عجبت لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرّكه، حتى آتي بأربعة شهداء، والله لا آتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته.

---

(١) وصف يطلقه سعد هنا على الزوجة التي يراها زوجها وهي تزني.

(٢) أي أن الله لا يقبل إلا حكمه سبحانه.

فوالله ما لبثوا إلاّ يسيراً حتى جاء هلال بن أميّة «ابن عم له» من حديقة له، فرأى بعينيه، وسمع بأذنيه، فأمسك حتى أصبح، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه، فقال: يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاء، فوجدت رجلاً مع أهلي، رأيت بعيني وسمعت بأذني.

فكره رسول الله ﷺ ما أتاه به، وثقل عليه جداً، حتى عرف ذلك في وجهه، فقال هلال: والله يا رسول الله، إني لأرى الكراهة في وجهك مما أتيتك به، والله يعلم أني صادق، وما قلت إلاّ حقاً، فإني لأرجو أن يجعل الله فرجاً.

واجتمعت الأنصار فقالوا: ابتلينا بما قال سعد، أيجلد هلال بن أمية، وتبطل شهادته في المسلمين؟ «فشق ذلك على المسلمين، فقال: لا والله لا يجعل في ظهري ثمانين أبداً، لقد نظرت حتى أيقنت، ولقد استسمعت حتى استشفيت».

فهمّ رسول الله ﷺ بضربه، فإنه لكذلك يريد أن يأمر بضربه، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه، إذ نزل عليه الوحي، فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا أن الوحي قد نزل، حتى فرغ، فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ[1] وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ[2] عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾.

فقال رسول الله ﷺ: أبشر يا هلال، فإن الله قد جعل لك فرجاً. فقال: قد كنت أرجو ذلك من الله. فقال رسول الله ﷺ: أرسلوا إليها. فجاءت، فلما اجتمعا عند رسول الله ﷺ، قيل لها: فكذّبت. فقال رسول الله ﷺ: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟ فقال هلال: يا رسول الله بأبي وأمي لقد صدقت، وما قلت إلاّ حقاً. فقال رسول الله ﷺ: لاعنوا بينهما)[3].

---

(١) يقذفون زوجاتهم.

(٢) يمنع ويدفع عنها الحد.

(٣) حديث صحيح انظر: تخريجه عند نهاية القصة.

ماهي الملاعنة

الملاعنة تكون بين الزوجين فقط، وذلك في حالة اتّهام الزوج لزوجته بالزنا، فيحلف قائلاً أربع مرات: أشهد بالله أنني صادق في اتهامي، وفي المرة الخامسة يقول: أن لعنة الله عليَّ إن كنت كاذباً عليها. بعد ذلك يقام على زوجته الحد والعقوبة إلا في حالة أن تدافع عن نفسها، وذلك أن تشهد هي بالله أربع مرات أنه لمن الكاذبين في اتّهامه لها. أي تكرر أربع مرات شهادته كالتالي: أشهد بالله أن زوجي كاذب. ثم تقول في المرة الخامسة: أن غضب الله عليَّ إن كان من الصادقين.

(فقال رسول الله ﷺ: لاعنوا بينهما.

قيل لهلال: يا هلال، اشهد. فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. فقيل له عند الخامسة: يا هلال، اتق الله، فإن عذاب الله أشدّ من عذاب الناس، وإنها الموجبة التي توجب عليك العذاب.

فقال هلال: والله لا يعذبني الله عليها، كما لم يجلدني عليها رسول الله ﷺ، فشهد الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

ثم قيل لها: اشهدي، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. فقيل لها عند الخامسة: اتقي الله، فإن عذاب الله أشدّ من عذاب الناس، وإن هذه الموجبة التي توجب عليها العذاب، فتلكأت[١] ساعة، ثم قالت: والله لا أفضح قومي.

فشهدت الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرّق بينهما رسول الله ﷺ، وقضى أن الولد لها، ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها)[٢]. أي لا يقال لابنها: يا ابن الزنا أو الحرام.

وكان اسم الرجل المتهم بالمرأة «شريك بن سمحاء».

---

(١) ترددت وأحجمت.

(٢) سنده قوي رواه الطبري في تفسيره ٩-٢٧٠ حدثنا خلاد بن أسلم أخبرنا النضر بن شميل، أخبرنا عباد، وسمعت عكرمة عن ابن عباس: عباد بن منصور الناجي صدوق صرح بالسماع من عكرمة التقريب ٢٩١ وخلاد والنضر: ثقتان التقريب ١٩٦ و٥٦٢.

يقول أحد الصحابة وهو يروي القصة: (قامت فشــهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة، فتلكأت ونكصت حتى ظننّا أنها ترجع ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت.

فقــال النبي ﷺ: أبصروها، فإن جــاءت به أكحل العينين[1]، ســابغ الإليتين[2]، خدلج الســاقين[3]، فهو لشريك بن ســمحاء. فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شــأن)[4] فقد صدق هلال وكذبت، ولكن أحكام الإســلام لا تبنى إلا على البينات والأدلة، لا الرجم بالغيب والحدس والظنون.. لا يطبق الحدّ بعد نزول هذه الآية إلاّ بالاعتراف أو البيِّنة، حيث قال ﷺ: (لو كنت راجماً أحداً بغير بيّنة رجمت هذه)[5].

كان حــادث الإفك افتراءً.. ظلماً وتجنّياً على عائشــة، لكــن رحمة الله وانتصاره للمظلوم وعدالته.. أحالته إلى دروس وأحكام وبراءة.

ها هي عائشــة بريئة كيوم ولدتهــا أمّها.. ها هي وقد غمرهــا ﷺ بأمواج حبّه وفــؤاده.. هــا هي وقد رفعها الله بآيات كريمات، وتكلّم في شــأنها، ودافع عنها جبار السموات والأرض، فما أسعدها بهذا النعيم الخالد.

كان الفرح بحجم الدنيا في صدر عائشــة، لكنها غاضبة غضباً شــديداً، وعاتبة عتاباً أشــد على من يسكنون قلبها.. زوجها ﷺ، ووالديها رضي الله عنهما، فلم تقدم لهم أي نوع من أنواع الامتنان والشــكر، ومع ذلك لم يلمها أحد منهم، فالذي مرّ على هذه الفتاة المســكينة ثقيل جداً، ومرير جداً، فســمعة المرأة وشرفها عند العرب تعادل حياتها، وهم لم يدفنوا بناتهم وهنّ صغار إلاّ خشــية أن يتّهمن بما اتّهمت به عائشــة، ومن يستطيع أن ينفي تهمة في ذلك المجتمع.

الهدم أســهل من البناء في كل المجتمعات خاصة المحافظة، فهل تُلام عائشــة إذا غضبت على من أحبّتهم..؟

---

(١) وورد في الصحيح أدعج وأسحم.

(٢) أي عظيم كما جاء في بعض الألفاظ.

(٣) ممتلئ.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٤٧).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٥٣١٠).

لم يلمها ﷺ، بل استرضاها وأرضاها بلطفه ورقته وحبّه، كان ﷺ يقول لها: (إني لأعلم إذا كنـت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبى. فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال ﷺ: أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين، لا، وربّ محمد. وإذا كنت غضبى، قلت: لا، وربّ إبراهيم.

قلت: أجل يا رسول الله، ما أهجر إلاّ اسمك)[1].

نهضت عائشة من الموت، وتهادت كالنهر.. كالبدر نحو:

بساتين الحب

بسـاتين الحب التي زرعها ﷺ ونسق شـجيراتها وأزهارها.. تدلّلت فيها عائشة، ورفرفت كالفراشـة فيها.. كالعبير.. حتى (كان الناس يتحرّون بهداياهم يوم عائشـة «يبتغون مرضاة رسول الله ﷺ». قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة[2]، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما كان، أو حيثما دار.

فذكرت ذلك أم سـلمة للنبي ﷺ، قالت: فأعـرض عني، فلما عاد إليَّ، ذكرت له ذلـك، فأعـرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: يا أم سـلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنّ غيرها)[3].

وانقسم نساء النبي ﷺ إلى:

حزبين في بيت النبوّة

تقول عائشـة رضي الله عنها: (إن نسـاء رسـول الله ﷺ كنّ حزبين: فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية[4] وسودة.

والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله ﷺ.

(١) حديث صحيح رواه مسلم – فضائل عائشة.

(٢) أي يهدون للنبي ﷺ في اليوم الذي يكون فيه عند عائشة رضي الله عنها.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٧٥).

(٤) زوجة قادمة للنبي ﷺ سوف تأتي قصتها فيما بعد.

وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ، أخّرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة بعث صاحب الهدية إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فكلّم حزب أم سلمة فقلن لها: كلّمي رسول الله ﷺ يكلّم الناس)[1]

فذهبت أم سلمة وكلّمته وحدث ما حدث كما في القصة السابقة، لكن حزب أم سلمة لم يستسلم.. واصل المطالبة، وهذه المرة قرّر الحزب أن يضغط على النبي ﷺ، مستخدماً جانب العاطفة الأبوية.. مدركاً مدى رقّته ﷺ ورحمته ببناته وأولاده، خاصة فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

قرّر حزب أم سلمة ذلك عن طريق حبيبته فاطمة، مع أن النبي ﷺ كان يقضي عند كل واحدة يوماً.

تقول عائشة رضي الله عنها: (أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مرطي، فأذن لها، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، وأنا ساكتة، فقال لها رسول الله ﷺ: أي بنية، ألست تحبين ما أحب؟

فقالت: بلى.

قال: فأحبّي هذه.

فقالت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ: فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ، فأخبرتهن بالذي قالت، وبالذي قال لها رسول الله ﷺ. فقلن لها: ما نراك أغنيت عنّا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة. فقالت فاطمة: والله لا أكلّمه فيها أبداً.

قالت عائشة: فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ، وهي التي تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٨١).

في العمل الذي تصدق به، وتقربا إلى الله تعالى، ما عدا سورة من حدة[١] كانت فيها، تسرع منها الفيئة.

فاستأذنت على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها على الحالة التي دخلت فاطمة عليها وهو بها. فأذن لها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك، يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، ثم وقعت بي، فاستطالت عليّ «فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة، فسبّتها».

وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طرفه، وهل يأذن لي فيها.

فلم تبرح زينب «حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة: هل تكلم؟». حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر.

«فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها»، قالت: فلما وقعت بها لم أنشبها حين أنحيت عليها [أن أثخنتها غلبة] «فنظر النبي ﷺ إلى عائشة». فقال رسول الله ﷺ وتبسّم: إنها ابنة أبي بكر)[٢]

وقد انتصرت وانتصر حزبها، لأنها لم تفعل ما يجرح شعورهن رضي الله عنهن، لكنهن يطالبن النبي ﷺ بالعدل، وهو عادل إلاّ في شيء واحد لا يستطيع التحكّم فيه، وهو قلبه، فهو بشر كبقية البشر.. لديه ما لديهم من الأحاسيس والمشاعر والميول، ولم يكن ﷺ يتدخّل في كل ما يحدث بين زوجاته من أمور طبيعية تحدث عادة بين النساء عند زوج واحد، إلاّ إذا تجاوزت إحداهن الحد.. عندها يحكم ﷺ بالعدل ويقوم بفضّ الاشتباك.

رضي حزب أم سلمة بمكانة عائشة، بل قدم تنازلات أكثر ليحظى بحب الله ورسوله، فبدلاً من أن يطالب حزب أم سلمة مرة أخرى بأن تكون هدايا الناس في أوقات وأبيات مختلفة، قام هذا الحزب الطيّب بتقديم الهدايا للنبي ﷺ، لكن متى وأين..؟

---

(١) سرعة غضب لكنها سرعان ما تنطفئ.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم وما بين المعقوفين له.. والزوائد للبخاري (٢٥٨١).

أم سلمة تهدي للنبي ﷺ وهو عند عائشة

هكذا انقلب الحال، ومن كان له حيلة فليحتال، وما دام الهدف هو الوصول إلى قلب الحبيب محمد ﷺ والمنافسة عليه، فلا بأس بالتضحية، ولا بأس بكتم الغيرة مؤقتاً..

فعلت ذلك أم سلمة رضي الله عنها وحزبها المعارض، لكن عائشة أدركت أهداف أم سلمة وأدركتها الغيرة، وخافت أن تزحزحها أم سلمة عن عرش الحب الذي تنعم به، فقامت للتصدي لأم سلمة ولمحاولاتها، ولكن بطريقة أكثر انفعالاً مما فعله حزب أم سلمة، وأشدّ قسوة مما قالته زينب، فما الذي جرى بين أم سلمة وعائشة رضي الله عنها..؟

تحدثنا أم سلمة نفسها عن محاولتها وهديتها فتقول: (إنها أتت بطعام في صحفة[1] لها، إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فجاءت عائشة متزرة بكساء، ومعها فهر[2]، ففلقت[3] به الصحفة.

فجمع النبي ﷺ بين فلقتي الصحفة.. ويقول: كلوا، غارت أمكم.... كلوا، غارت أمكم.

ثم أخذ رسول الله ﷺ صحفة عائشة، فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى صحفة أم سلمة لعائشة)[4] فانتصرت أم سلمة رضي الله عنها هذه المرة، وانتصر حزبها.

ليست الغيرة فقط تحدث بين حزب وحزب، بل أحياناً داخل الحزب الواحد تغلي الغيرة، وليست هذه المرة الوحيدة التي تندفع فيها عائشة نحو تصرّف تندم عليه.. مأخوذة بالغيرة وحبّها الشديد للنبي ﷺ.

ففي أحد الأيام تصرّفت تصرفاً ندمت عليه فتمنّت أن تلاقي حتفها، رغم أن الأمر لا يستدعي الموت، لكنها الغيرة.

---

(١) إناء.

(٢) حجر.

(٣) كسرت.

(٤) سنده صحيح رواه النسائي (٧/٧٠): أخبرنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت عن أبي المتوكل عن أم سلمة.. وأبو المتوكل تابعي ثقة اسمه علي بن داود الناجي (التقريب - ٣٦/٢) وتلميذه تابعي ثقة عابد وهو البناني - التقريب (١١٥/١) وحماد ثقة من رجال مسلم وهو أثبت الناس في ثابت البناني (السابق - ١٩٧/١) وأسد صدوق (التقريب - ٦٣/١) ويلقب بـ (أسد السنة) وشيخ النسائي ثقة انظر (التقريب - ٤٢٥/١) فالسند بذلك صحيح وصححه الإمام الألباني في الإرواء (٣٦٠/٥).

عائشة تدعو على نفسها بالموت

تقول رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارت القرعة على عائشة وحفصة، فخرجتا معه جميعاً، وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة، يتحدث معها، فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك، فتنظرين وأنظر؟ قالت: بلى.

فركبت عائشة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشة، فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة، فسلّم، ثم سار معها حتى نزلوا. فافتقدته عائشة، فغارت، فلما نزلوا جعلت تجعل رجلها بين الإذخر[1]، وتقول: يا رب سلط عليَّ عقرباً، أو حية تلدغني، رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئاً)[2] ولا تستطيع أن تقول لحفصة شيئاً، فهي التي جنت على نفسها.

أي غيرة تسكن عائشة، وأي حب ذلك الذي يأكل معها ويشرب، ويحلّ ويرتحل.. كان حب عائشة للنبي ﷺ سماءها وأرضها وبحارها التي لا شاطئ لها.

لكن ماذا عن حب النبي ﷺ لعائشة.. ماذا عن حب محمد لهذه البراءة.. إلى أي مدى هو، وما المسافات التي قطعتها عائشة في قلبه وبين حناياه..؟

النبي ﷺ نفسه.. في ساعة حب وصفاء لعائشة.. في ساعة لم يكن فيها سوى محمد وعائشة والحب.. تحدّث ﷺ بحديث يتقاطر شهداً وحباً.. حديث لم تسمع مثله حبيبة قط.. حديث جعل عائشة تشعر أن الشمس والقمر والدنيا كلّها بين يديها.

حب النبي ﷺ لعائشة إلى أي درجة؟

تقول رضي الله عنها: (جلست إحدى عشرة امرأة، فتعاهدن، وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.

قالت الأولى: زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينقل[3].

---

(١) نبات طيبت الرائحة توجد به الهوام غالباً في البرية.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - الفضائل.

(٣) تصفه بأنه كلحم الجمل الهزيل ويصعب الوصول إليه أيضاً، فالوصول إليه شاق، ليس فيه مصلحة حتى تنقله الناس إلى بيوتها وتستفيد منه.

قالت الثانية: زوجي لا أبثّ خبره، إني أخاف أن لا أذره، إن أذكره، أذكر عُجره وبجره[١].

قالت الثالثة: زوجي العشنق: إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق[٢].

قالت الرابعة: زوجي كليل تهامة: لا حر ولا قر، ولا مخافة ولا سآمة[٣].

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما عهد[٤].

قالت السادسة: زوجي إن أكل لفّ، وإن شرب اشتفّ، وإن اضطجع التف، ولا يولج الكف ليعلم البثّ[٥].

قالت السابعة: زوجي غيأياء، أو عيأياء، طباقاء، كل داء له داء، ثجك، أو فلك، أو جمع كُلاً لك[٦].

قالت الثامنة: زوجي الريح ريح زرنب، والمس مس أرنب[٧].

قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد[٨].

قالت العاشرة: زوجي مالك، وما مالك؟ مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهنّ هوالك[٩].

---

(١) تقول إنها لا تشيع خبر زوجها ولا تذكره.. لأنها لن تنتهي من إكماله لكثرة عيوبه.. والعجر تعقد العروق والعصب ونتؤها.. والبجر هو نتؤ في البطن.

(٢) العشنق هو الطويل أي ليس فيه إلا طول دون نفع.. فإن ذكرت عيوبه طلقها.. وإن سكتت عن عيوبه علقها لا مطلقة ومتزوجة أي أهملها مع بقائها في ذمته.

(٣) تمدحه كليل تهامة ليس فيه أذى، بل لذيذ كريم الأخلاق لا تخشاه، لا يسأم منها ويملها.

(٤) شبهته بالفهد لكثرة نومه كما يقال، أنوم من فهد، غافل عن تعاهد منزله وما ذهب منه وما بقي، وهو بين الناس شجُاع كالأسد.

(٥) أي أنه يلف الطعام لفاً ويكثر منه، ويشرب كل ما في الإناء، وعند نومه يلتف بغطائه عنها دون اهتمام بها، ولا يلمسها بكفه ولا يتحسسها ليعلم إن كانت تشتكي من شيء.

(٦) أي أنه خائب لا يقترب منها.. وأموره مطبقة عليه لحمقه، وكل داء ومرض يجتمع فيه.. وهي معه غير آمنة فإما أن يشج رأسها أو يكسر بعضها أو يجمع لها الأمرين.

(٧) أي ريحه طيبة كرائحة الزرنب وهو نوع من أنواع الطيب.. وأما مسه فلين لكرمه ورقته ولطفه.

(٨) رفيع العماد هو الشريف المذكور في قومه، طويل حمائل السيف لطول قامته.. كريم كثير الرماد لكثرة ما يوقد نار لأضيافه.. وبيته قريب من النادي وهو مجتمع القوم ومنتداهم.

(٩) إبله كثيرات.. لا يرسلهن للسرح إلا قليلاً.. إذا سمعن العزف على العود لوجود الضيفان أدركن أنهن منحورات لهم.

قالت الحادية عشـر: زوجي أبو زرع، فما أبو زرع: أنـاس من حلي أذني[١]، وملأ من شحم عضدي[٢]، وبجحني فبجحت إلى نفسي[٣]، وجدني في أهل غُنيمة بشق[٤]، فجعلني في أهل صهيل وأطيط[٥]، ودائس ومنق[٦]، فعنه أقول فلا أقبح[٧]، وأرقد فأتصبح[٨]، وأشرب فأتقنح[٩].

أم أبي زرع، فما أم أبي زرع؟ عكومها رداح، وبيتها فساح[١٠].

ابن أبي زرع، فما ابن أبي زرع؟ مضجعه كمسل شطبة[١١]، ويشبعه ذراع الجفرة[١٢].

بنت أبي زرع، فما بنت أبي زرع؟ طوع أبيها وطوع أمها، وملء كسائها[١٣]، وغيظ جارتها[١٤].

جارية أبي زرع، فما جارية أبي زرع؟ لا تبث حديثنا تبثيثاً[١٥]، ولا تنقث ميرتنا تنقيثاً[١٦]، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً[١٧].

قالت: خرج أبو زرع، والأوطاب تمخض[١٨]، فلقى امرأة معها والدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين[١٩]، فطلّقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً سرياً، ركب

---

(١) أي حلاني أقراطاً فهن تنوس أي تتحرك لكثرتها.
(٢) أي أسمنني وملأ بدني شحماً.
(٣) أي فرحني ففرحت.. وعظمني فعظمت عند نفسي.. والتبجح هو التعاظم والتفاخر.
(٤) أي أنه وجدها عند أهل غنم قليلة وحياتهم فيها مشقة وفقر.
(٥) نقلها إلى أرضه حيث صهيل الخيل وأطيط الإبل.
(٦) أي أنه صاحب زرع يدوسه وينقيه.
(٧) لا أحد يرد قولها ويقبحه.
(٨) أي أنها تأخذ كفايتها من النوم لأن هناك من يخدمها.
(٩) لا تترك الشراب حتى تقضي حاجتها.
(١٠) واسع. والعكوم هي الأوعية التي توضع فيها الأغراض ورداح كبيرة.
(١١) أي خفيف اللحم كالسيف سل من غمده.
(١٢) الجفرة الأنثى من ولد الماعز أو الضأن إذا تجاوزت أربعة أشهر.
(١٣) ممتلئة الجسم.
(١٤) لديها من العفاف والجمال والأدب ما يغيظ ضرتها.
(١٥) لا تفشي أسرارنا.
(١٦) لا تفسد الطعام ولا تفرقه لأمانتها.
(١٧) لا تترك القمامة متفرقة تشوه المنزل كعش الطير.
(١٨) أي أنه خرج في وقت الربيع.
(١٩) كفلها عظيم لو استلقت رفعها عن الأرض حتى تصير تحتها فجوة يجري تحته الرمان.

شــرياً[1]، وأخذ خطياً[2]، وأراح عليَّ نعماً ثرياً[3]، وأعطاني من كل رائحة زوجاً[4]، قال: كلي أم زرع وميري أهلك[5].

فلو جمعت كل شيء أعطاني ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.

قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: كنت لك كأبي زرع لأم زرع)[6].

هذه هي منزلة عائشة في قلبه ﷺ.. هي منزلة أم زرع عند أبي زرع، غير أن النبي ﷺ أحبّها أكثر من حب أبي زرع لزوجته، لأن ذاك طلق، والنبي ﷺ لم يطلق.

هذا الحب لا شــكّ أغــاظ المنافقين في المدينة.. أغاظ ابن ســلول ومن معه من الخفافيــش، كمــا أغاظهم من قبل انتصــار النبي ﷺ في غزوة بنــي المصطلق، التي تشعبت آثارها حتى زلزلت قريش..

آثار غزوة بني المصطلق

انتهت غزوة بني المصطلق بانتصار النبي ﷺ على المشركين، وانتصار عائشة رضي الله عنها على المنافقين، لكن تلك المعركة تركت لدى قريش وحلفائها شــعوراً أســوداً، ورعباً ترتعد منه أوصالها.. كأن الجبال تتزلزل من حولها.. كأن الكواكب تتهاوى على رؤوســها، فقد امتدّت يد محمد ﷺ حتى طالت جيرانهم بني المصطلق، الذين عادوا بعد المعركة أحراراً بعد مصاهرتهم للنبي ﷺ، وقريش الآن تخشــى أن تمتد إليهم يد محمد ﷺ فتأخذهم إلى غير رجعة.

ويبدو أن تلك الضربات التي تلقاها المسلمون من قريش وغيرهم من الوثنين في أحد والرجيع وبئر معونة وغيرها.. لم تزدهم إلاّ صلابة وعزماً واتّقاداً.. كأنها النار التي تذيب صــدأ الحديد.. كانت لقاحاً عاد بعده الجســم صحيحاً منيعاً، فها هو النبي ﷺ يرســل جيشاً لرصد قوافل قريش، التي تمر بمحاذاة الساحل.. في غزوة يحلو للبعض تسميتها:

---

(١) السري هو الشريف والشري هو الفرس الذي لا يفتر في سيره.

(٢) الرمح.

(٣) كثيرة والمقصود الثروة.

(٤) أي من كل ما يروح من الإبل والبقر والغنم.

(٥) أعطيهم.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٥١٨٩) ومسلم (٢٤٤٨).

غزوة سيف البحر

كان قائد هذا الجيش هو أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، وكان ضمن ذلك الجيش كبار الصحابة.. منهم سـعد بن عبادة، وجابر بـن عبد الله الذي يقص علينا بعض أحداث تلك الغزوة فيقول: (بعث رسـول الله ﷺ بعثا قبل الساحل، وأمر عليهم أبـا عبيدة بن الجراح، وهـم ثلاثمائة فخرجنا وكنا ببعض الطريـق فني الزاد، فأمر أبـو عبيدة بأزواد الجيش، فجمع فكان مزودي تمـر، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً، حتى فني فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة، فقلت: ما تغني عنكم تمرة)[1] تمرة في اليوم الواحد مما اضطر ذلك الجيـش إلى أكل نبات الخبط، وهو علف للحيوانات، ولذلك سمي ذلك الجيش فيما بعد: (جيش الخبط).

يقول جابر رضي الله عنه لمن سـأله عن تلك السرية: (بعثنا رسول الله ﷺ وأمَّر علينـا أبا عبيدة نتلقى عيراً لقريش، وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة.. تمرة، فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟

قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله[2].

كان سـعد بن عبادة وابنه قيس رضي الله عنهما يأكلان من أشجار الخبط وهي علف للإبل.. كانا يعانيان ماتعانيه تلك السـرية، ويشـعران بما تشعر به، فكان لسيد الأنصار وابنه موقف عظيم.

الكرم الأنصاري يتدفق كأمواج هذا البحر.. قام سـعد بن عبادة بشراء مجموعة مـن النياق من أصحابها، ثم سـلمها لابنـه قيس وأمره بنحرها للسـرية، التي أحرق أجوافها شجر الخبط.

يقول قيس رضي الله عنه: (كنت في الجيش فجاعوا قال: انحر. قلت: نحرت. ثم جاعوا، قال: انحر. قلت: نحرت. ثم جاعوا، قال: انحر. قال: نحرت. ثم جاعوا. قال: انحر. قال: نهيت)[3]

---

(١) صحيح البخاري ٤ - ١٥٨٥.

(٢) صحيح مسلم ٣ - ١٥٣٥.

(٣) صحيح البخاري ٤ - ١٥٨٥.

ترى كم نحر من ناقة جزور..؟

يقــول جابر أن ســعد بن عبادة رضي الله عنه (نحــر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه)[1] لأن هذا الكرم الأنصاري يتخطى الحدود، وإن لم يتم إيقافه فسـيقضي على مطايا السـرية، وقد تعودُ إلى المدينة على الأقدام إن لم يتم إيقاف تدفقه.

كانت أياماً عصيبة ومريرة.. كان فارســها ســعد بن عبادة الكريم، وكانت رحمة اللــه فوق ما يتصورون، فقد رأى بعضهم صخرة كبيرة جداً.. كانت ســوداء وملســاء تتمدد على الساحل.. اقترب الجميع منها فإذا هي ليست بصخرة.. إنها حوت عملاق يســمونه العنبر. كان ميتا لكنه ينبض بالحياة لهذه الســرية، وقــد فرح الجميع بهذه المفاجأة السارة، وشكروا الله عليها، لكن أبا عبيدة تذكر أن الميتة لا تجوز، ثم تذكر كم يفتح الإسلام من أبواب الفرج في سويعات الضيق.. تذكر أن هناك ضرورة الإبقاء على هذه الأرواح والأجساد المنهكة الهزيلة، فسموا الله وأكلوا واستخرجوا من زيت الحوت، وشربوا ودهنوا أجسادهم المتعبة، وشعورهم الشعثة لمدة تتجاوز نصف الشهر.

هالهــم حجم الحوت فقاموا بقياس ارتفاع أحد أضلاعه، فغرزوا الضلع، ثم نادوا أطول رجل في تلك الســرية وأمروه بأن يركب أرفــع جمل أيضا، ثم أمر بالمرور، فمر تحت ذلك الضلع العملاق.

يقول جابر وهو يتحدث عن تلك المشاهدات العجيبة: (انطلقنا على ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر.

قال أبو عبيدة: ميتة. ثم قال: بل نحن رســل رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم، فكلوا)[2] (فأكلنا نصف شهر وادهنا بودكه حتى صلحت أجسامنا)[3] (حتى ســمنا ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر كالثور، أو كقدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها)[4]

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٨٥.
(٢) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.
(٣) صحيح البخاري ٥-٢٠٩٣.
(٤) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.

وبعد مرور نصف شــهر من عثورهم على هذا الحوت الهائل أمر أبو عبيدة جنده بالعودة للمدينة، فقد أدوا المهمة التي أرســلوا من أجلها، وعادوا أحسن أجساداً وأكثر قــوة، ثم اقتطعوا ما قــدروا على حمله من لحم الحوت، ولما وصلوا إلى المدينة أخبروا نبيهــم ﷺ بذلــك، ففرح بفضل الله عز وجل على جنــده، وطلب منهم أن يطعموه من ذلك اللحم الطيب.

يقــول جابر رضي الله عنه: (وتزودنا من لحمه وشــائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رســول الله ﷺ فذكرنا ذلك له؟ فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا..؟

فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ فأكله)[1].

أما قريش فقد شعرت بخطورة الوضع بعد تلك السرايا، وبعد غزوة بني المصطلق، فقررت التحرك، لأنه لابدّ من حســم الأمر قبل أن يستشري خطر المسلمين.. قبل أن تفاجأ قريش بمحمد ﷺ وجيشه يطوفون حول الكعبة، ويحطّمون الأصنام.

هذا هو الكابوس الذي يقضّ مضجع أبي ســفيان ومن معه من الوثنين.. هذا هو الخوف الذي تعيشه مكة، لكن ماذا عن المدينة..؟

هناك شــعور لا يختلف عن هذا الشــعور، فداخل دول الإسلام لم يكن الأمر كما يحبّ رســول الله ﷺ وصحابتــه تماماً.. كان هناك المنافقون الذيــن خرجوا للتوّ من هزيمــة الإفك، وهنــاك أيضاً اليهود الذيــن أغاظهم نصر النبــي ﷺ في غزوة بني المصطلق، وزاد غيظهم نصر الله لعائشــة، فتحوّلــت حصون اليهود إلى قدور ضخمة لطبخ الخيانة والمؤامرات.

اليهود يجمعون الأحزاب

لتنفيــذ مؤامرة كالانتحار، فالذي يقومون به الآن ضرب من الانتحار. لأن فشــل مؤامرتهــم هذه يعني نهايتهم.. اليهود اليوم خناجر تســافر في الظلام، ولا تدري من

(١) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.

تصيب.. إن بينهم وبين قائد الدولة المسلمة عهداً بألاّ يخونوا، ولا يعتدوا، ولا يتآمروا، وإلاّ فإن مصيرهم سيكون مصير بني النضير. لقد سامحهم ﷺ بعد خيانتهم الأولى، وهم الآن طامعون في تسـامح آخر إن فشلوا في مؤامرتهم، يقول أحد الصحابة: (إن يهود النضير وقريظة حاربوا رسـول الله ﷺ، فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير وأقرّ قريظة)[1]

كان ذلك بعد غزوة بدر عندما (كتبت كفار قريش بعد واقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهـل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلـن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسـائكم شـيء -وهي الخلاخيل- فلما بلغ كتابهـم النبي ﷺ، أجمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخـرج منـا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان المنصف، فيسـمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك، آمنّا بك.

فقـصّ خبرهم، فلما كان الغد، غدا عليهم رسـول الله ﷺ بالكتائب، فحصرهم، فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندي إلاّ بعهد تعاهدوني عليه. فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهـم يومهم ذلك، ثم غدا على بني قريظـة بالكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم.

وغـدا على بني النضير بالكتائـب، فقاتلهم حتى نزلوا علـى الجلاء، فجلت بنو النضير، واحتملوا ما أقلّت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم وخشبها)[2]

منظر حزين يتكرّر على اليهود، ويتباكى عليه اليهود، ويطالبون العالم أن يبكي من أجلهم.. وهم يجيدون التمثيل والتباكي، لكن أكثر ما يجيدونه هو سبب التباكي..

أكثر مـا يجيده اليهود هو المؤامـرات والخيانات، والطعن مـن الخلف، والطعن في الظلام، وعندما يتلقون العقاب الرادع.. تسـيل أنهار الدموع والبكاء والشعر على مصيرهم البائس، وكأنهم لم يفعلوا شـيئاً! وبنو قريظة يستحقون مصير بني النضير،

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨) وأبو داود (٣٠٠٥) واللفظ له.
(٢) حديث صحيح مر معنا رواه أبو داود (٣٠٠٤) وقد صححه الإمام الألباني وانظر تعليقي على قوله رحمه الله هناك غزوة بني النضير.

لكـن النبي ﷺ منحهم فرصة، فإن فشـلت مؤامرتهم الجديدة فإن عقابهم سـيكون مضاعفاً.

دعونا نراقب هذا الوفد اليهودي الذي سـافر سراً إلى مكة، ليجتمع بأبي سفيان وقيادات المشركين هناك، وليعرضوا عليهم مشروعاً عسكرياً يسحقون به دولة الإسلام والتوحيد، بعد أن فشل مشروع كعب بن الأشرف اليهودي مع قريش، فتم الإجهاز على كعب على يد محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وها هو:

المشروع اليهودي من جديد

يحملـه يهود من بني النضير فشـلت خيانتهم، فتورموا مـن الحقد، ومعهم يهود آخرون تثيرهم هذه التجربة وهذا المشروع.

لم تنطلق الرصاصة من مكّة، بل من حصون اليهود ف(إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم: سـلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري «وكنانـة بن أبي الحقيق النضري» وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسـول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكّة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ[1]، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله؟

فقالت لهم قريش: يا معشـر يهود، إنكم أهل الكتـاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحقّ منه.

فهـم الذين أنزل اللـه فيهـم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا

(١) سبق أن خرج كعب بن الأشرف لكنه قتل قبل إكمال مشروعه.

﴿لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[1].

لم يكتفِ اليهود بالتآمر عليه ﷺ، بل أضافوا إلى خيانتهم ونقض عهدهم والوثيقة المكتوبة بينهم وبين النبي ﷺ.. أضافوا إلى قائمة جرائمهم جريمة هي الأشنع والأحقر. جريمة تنزّ بالخسّة والوقاحة. زوّر اليهود وأباحوا لنفسهم القفز على كل مبدأ وعقل وحقيقة، فمنحوا للوثنيين المشركين صكّاً بالبراءة من كل إثم في كل ما يرتكبونه من جاهلية، وسلبوا النبي ﷺ كل حق وحقيقة يملكها.. جعلوا التوحيد هو الباطل، وطلبوا من عَبَدة الأخشاب والأحجار الاستمرار في طقوسهم المنحطة.. فعلوا ذلك كلّه وهم أهل كتاب، وقد قرأوا الكثير.. الكثير عن محمد ﷺ ونبوّته وصفاته، فما العقاب الذي يستحقه هؤلاء..؟

مسلسل الوحل اليهودي لم ينتهِ بعد، فبعد أن وضعوا قريشاً في إحدى جيوبهم.. توجّهوا نحو قبيلة غطفان القوية، فأغروها بالنبي ﷺ والمدينة، وأغروها بتمر المدينة ونخيلها ونسائها، فاستجابت، ورفعت المؤامرة رأسها، وتدلّت ثمارها أمام اليهود والوثنيين، لكن الخبر وصل إلى النبي ﷺ عن طريق رجل متهور من غطفان، يدعى «الحارث الغطفاني».

غطفان تطلب ثمن انسحابها من الأحزاب

وقد أرسلت من أجل هذه المهمة أحد وجهائها، رجل اسمه: الحارث الغطفاني.. ركب راحلته، وعندما استقرت به على أرض المدينة.. بحث عن النبي ﷺ، ولما وقف أمامه.. أملى على النبي ﷺ شرطه للانسحاب من التحالف اليهودي الوثني، وكان

---

(١) حديث حسن رواه ابن إسحاق بأسانيد عدة منها: حدثني يزيد بن رومان عن عروة ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك.. ومحمد بن كعب القرظي والزهري وعاصم بن عمر بن قتادة.. وهذه الأسانيد كلها مرسلة وإن كان عبد الله بن كعب له رؤية.. وهي لا تقوي بعضها البعض لأنه ربما كان مصدرها واحداً وهو مجهول.. لكن لها شاهد يرفعها إلى درجة الحسن وهو عند ابن إسحاق أيضاً (تفسير ابن كثير - الأحزاب): حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس.. وهو سند حسن بالشواهد من أجل محمد بن أبي محمد.. وابن إسحاق لا يتهمه.. انظر التقريب (٥٠٥) حيث قال عنه مجهول.

شرطاً يفوح صفاقة وتغطرساً، لكن إجابة الأنصار كانت كالسيف على رأسه، فقد رفض الأسدان سعد بن عبادة وسعد بن معاذ كل أنواع الابتزاز.. مهما كان مصدرها وقوّتها:

(جـاء الحارث الغطفاني إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، ناصفنا تمر المدينة «وإلا ملأناها عليك خيلاً ورجالاً»؟

فقال ﷺ: حتى أستأمر السعود: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ يشاورهما «فقال: إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وأن الحارث يسألكم أن تشاطروه تمر المدينة، فإن أردتم أن تدفعوا إليه عامكم هذا حتى تنظروا في أمركم بعد..؟

قالوا: يا رسول الله أوحي من السماء؟ فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع لهواك ورأيك؟

فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منّا تمرة إلا بِشِرى أو قرى»[1] فقالا[2]: ما أعطينا الدنية[3] من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسلام..!! فرجع إليه الحارث، فأخبره. فقال: غدرت يا محمد.

فقال حسان بن ثابت:

يا حارِ من يغدر بذمة جاره ... منكم فإن محمداً لا يغدر
إن تغدروا فالغدر من عاداتكم ... واللؤم ينبت في أصول السخبر
وأمانة النهدي حيث لقيتها ... مثل الزجاجة صدعها لا يجبر

فقال الحارث: كفّ عنا يا محمد لسان حسان، فلو مزج به ماء البحر لمزجه)[4] ولم يكن لسان حسان أشدّ من لساني السعدين.. لم يعرض ﷺ ذلك الأمر على أبي بكر،

(١) أي كانوا لا يستطيعون الحصول على تمرنا إلا بالشراء أو الضيافة.

(٢) قال السعدان: ابن عبادة وابن معاذ.

(٣) أي لم نعط الصفة والخصلة المذمومة في الجاهلية فكيف وقد أسلمنا.

(٤) سنده حسن رواه البزار زوائد ٢-٣٣١ واللفظ له، والزوائد للطبراني ٦-٣٤ : حدثنا عقبة بن سنان، حدثنا عثمان بن عثمان الغطفاني، حدثنا محمد ابن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة. أبو سلمة بن عبد الرحمن تابعي ثقة مكثر. التقريب ٦٤٥ ومحمد بن عمرو بن علقمة حديثه حسن من رجال الشيخين، التقريب ٤٤٩ وعثمان صدوق من رجال مسلم السابق ٣٨٥ وعقبة بن سنان، البصري صدوق من شيوخ أبي حاتم، الجرح والتعديل ٦-٣١١.

ولا على عمر، بل على أهل دار الهجرة والكرم، وأصحاب الشـأن الأوّل فهو لا يتخلى عن عهوده ومواثيقه. فذهب ذلك الوثني إلى قومه خائباً حيث كان الأنصار له كالموت.. بالسيوف بالشعر. عندها أدرك ﷺ خطورة الموقف والأحزاب.

تأمّـل ﷺ وضع المدينة، فوجـد المعركة هذه المرة مختلفة، فقريش اليوم ليسـت وحدهـا.. معها غطفان، ومعها بقايا بني النضير الذين اسـتطاعوا زحزحة يهود بني قريظـة عن عهدهم وميثاقهم مع النبي ﷺ، وقـد يلحق بقريش غيرهم من حلفائهم، والوقت قصير لا يحتمل التأخير، والجيش المسـلم لا يسـتطيع التصدّي لهذه الجموع خارج المدينة؟ فالأفضل البقاء في المدينة.. حيث يشـارك الجميع في تلك المعركة دون اسـتثناء، وحتى لا يتكـرر ما حدث في أحد، لكن خيانة اليهـود تثير المخاوف، وليس هناك وقت لبناء أسوار كأسوارهم، فليكن الحفر بدلاً من البناء.

حفر الخندق

قرّر ﷺ أن يحفر خندقاً يحصن به الجهة الشـمالية للمدينة من هجمات قريش ومـن معها، لأن بقية الجهات صعبة الاقتحام لكثـرة النخيل والصخور والجبال، وفنّ القتال لا يعني المهارة في استخدام السلاح فقط، بل المهارة في استخدام وتسخير كل شـيء يحيط بالمحارب. وقد تفنّن ﷺ في تسخير تضاريس المدينة وطبيعتها في هذه الحرب القادمة.. غير المتكافئة عدداً واستعداداً.

وجد عليه السلام أن جهة الشمال مفتوحة لاحتمالات مخيفة، فقرّر ﷺ إغلاقها، فبـدأ حفر الخندق.. بدأ بحفره بيديـه، فهو الذي ضرب أوّل معول في ذلك الخندق، الذي سيشكّل مفاجأة للوثنيين واليهود ومن معهم.

(ضرب رسول الله ﷺ في الخندق بيديه، ثم قال:

بسـم اللـه وبـه بدينـا ... ولـو بدنـا غيـره شـقينا

حبذا ربنا وحبذا دينا)[1]

---

(١) سنده صحيح رواه الحارث. المطالب ٤-٤٠٤ حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، عن سليمان التيمـي، عـن أبي عثمان. معاوية الأزدي ثقة، التهذيب ١٠-٢١٥ وشـيخه ثقة حافـظ التقريب ١١٠. وأبو عثمان النهدي أدرك الجاهلية وأسلم في عهد النبي عليه السلام وقد ذكره الذهبي في التجريد ١٨٦ ضمن الصحابة وليس ضمن شيوخه تابعي.. وقد روي موصولاً عن سلمان عند البيهقي لكن سنده ضعيف.

فتهاوت المعاول بعده تعزف خندقاً، والحناجر تتغنى شعراً وحماساً. وسط هذا الحماس والتفاني.. كنت لا تدري هل كان النبي ﷺ معهم، أم هم الذين كانوا معه..؟ وسط ذلك الجو الشتوي البارد.. خلال ذلك الغبار المنبعث من الخندق.. لا تستطيع تمييز القائد من الأتباع..؟

أحد الصحابة اسمه سهل بن سعد يقول: (كنّا مع رسول الله ﷺ في الخندق، وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا)[1] أما البراء بن عازب فيقول: (كان النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب، ولقد رأيته وارى التراب «شعر» بطنه «وكان رجلاً كثير الشعر»)[2] (كان ﷺ ينقل التراب حتى وارى شعر صدره، وكان رجلاً كثير الشعر، وهو يرتجز برجز عبد الله «بن رواحة»:

اللّهمّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبّت الأقدام إن لاقينا
إن الأعداء قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

يرفع بها صوته «أبينا.. أبينا» «يمد صوته بآخرها»)[3].

كان ﷺ يحمس من حوله بأبيات الصحابي الشاعر عبد الله بن رواحة رافعاً ومادّاً بها صوته، وكان لا بد من فعل ذلك، فالجو مشحون بالجوع والبرد والحذر فلا بد من إشعال جذوة الحماس.

لم يكتف ﷺ بذلك.. كان يذرع المنطقة.. يتفقّد كل شيء.. يحتاط لكل شيء، ثم يعود لمحاربيه.. يشجّعهم.. يحفر معهم.. يدعو لهم.. يحتضن فداءهم وإخلاصهم، وهم في حالة جوع شديد، وبرد قارس.

(خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال:

اللّهمّ إن العيش عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٨).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٧٢٣٦) والزوائد له (٣٠٣٤).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٤) والزوائد له (٤١٠٤ - ٤١٠٦).

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً[1]

البيعة تتجدّد.. والحماس يتجدّد، لكن الجوع والتعب يتجدّد أيضاً. فما هو طعام كل مجموعة من هؤلاء المحاربين الأشدّاء، الذين يحتاجون إلى كل ثانية وطاقة.

طعام رجال الخندق

يقول الفتى الأنصاري أنس بن مالك: (جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم، وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الإسلام ما بقينا أبدا

ويقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللّهمّ إنه لا خير إلاّ خير الآخرة ... فبارك في الأنصار والمهاجرة

قال: ويؤتون بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن)[2]

هؤلاء العظماء ليس لهم طعام سوى شعير مطبوخ بسمن عتيق بشع الطعم والرائحة، بينما يتمتع الوثنيون بأطايب الطعام، أمّا اليهود، فلديهم مخزون أكثر من كاف لمثل هذه المؤامرة، ولهم منافذ مفتوحة على حلفائهم، بينما يعيش محمد ﷺ وجنوده طقساً من الحصار والبرد والجوع والطعام الخشن والقليل، وتمضي أيام على هؤلاء الأخيار من المهاجرين والأنصار.

ثلاثة أيام من الجوع والحفر

نقلوا فيها الحجارة من عمق الخندق إلى عمق جوعهم وبطونهم.. قدّو الحجارة من الخندق، وألصقوها ببطونهم من شدّة الجوع، ثم ربطوها، في الوقت الذي تسلّل فيه المنافقون كالحيات إلى بيوتهم.. إلى شوائهم ونسائهم وشرابهم.. كأن الأمر لا يعنيهم.. كأن المدينة ليست وطناً لهم..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٩).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٠٠).

كان ذلك الجوع امتحاناً لإيمان هؤلاء المؤمنين الذين صبروا واحتسبوا.

يقول جابر: (لما حفر النبي ﷺ وأصحابه الخندق، أصاب النبي ﷺ والمسلمين جهد شديد، فمكثوا ثلاثاً لا يجدون طعاماً، حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجراً من الجوع)(١).

لكن ماذا بعد ثلاثة أيام من الجوع والطعام القليل..؟

إن رحمة الله قريب من المؤمنين.. جاءت المعجزة في بيت جابر، فزال عن المؤمنين شيئاً ممّا بهم.

طعام جابر والمعجزة

جابر بن عبد الله.. الصحابي العظيم.. ابن الصحابي العظيم،الذي يعول تسع أخوات وزوجته.. يستأذن النبي ﷺ لكنه ليس كاستئذان المنافقين. لم يذهب لبيته كما يذهب ذلك المنافق طلباً للراحة بين أهله والطعام والشراب، لكنه رأى منظراً أحزنه وآلمه أشدّ الألم، فلم يطق البقاء في مكانه.. انطلق علّه يجد في بيته ما يخفف تلك الآلام.. إنها على أقلّ الأحوال محاولة.

يقول رضي الله عنه: (كنّا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق نحفر فيه، فلبثنا ثلاثة أيام لا نطعم شيئاً، ولا نقدر عليه، فعرضت في الخندق كدية(٢)، فجئت إلى رسول الله ﷺ فقلت: هذه كدية قد عرضت في الخندق. «فقال رسول الله ﷺ: أنا نازل»

فرشنا عليها الماء، فقام رسول الله ﷺ وبطنه معصوبة بحجر، فأخذ المعول، أو المسحاة، ثم سمى ثلاثاً، ثم ضرب، فعادت كثيباً أهيل(٣).

فلما رأيت ذلك من رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، ائذن لي. فأذن لي. فجئت امرأتي فقلت: ثكلتك أمك، إني قد رأيت من رسول الله ﷺ شيئاً لا صبر عليه «رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً»(٤) فما عندك؟

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٣٠١ والبيهقي ٣-٤٢٢ حدثنا وكيع، حدثنا عبد الواحد بن أيمن، عن أبيه عن جابر. وأيمن وابنه ثقتان التقريب ٣٦٦ ووكيع إمام معروف.

(٢) أرض صلبة.. صخرية.

(٣) رملاً متناثراً.

(٤) جوعاً شديداً.

قالت: عندي صاع من شعير، وعناق[1].

فطحنّا الشعير، وذبحنا العناق، وأصلحناها، وجعلناها في البرمة[2]، وعجنت الشعير، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فلبثت ساعة، ثم استأذنته الثانية، فأذن لي، فجئت، فإذا العجين قد أمكن، فأمرتها بالخبز، وجعلت القدر على الأثافي[3]، «ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه»

ثم جئت رسول الله ﷺ، فساررته، فقلت: إن عندنا طعيماً[4] لنا، فإن رأيت أن تقوم معي أنت ورجل أو رجلان معك فعلت.

فقال ﷺ: ما هو، وكم هو؟ قلت: صاع من شعير وعناق.

قال: ارجع إلى أهلك فقل لها: لا تنزع البرمة من الأثافي، ولا تخرج الخبز من التنور حتى آتي. ثم قال للناس: قوموا إلى بيت جابر، «فقام المهاجرون والأنصار».

قال جابر: فاستحييت حياءً حتى لا يعلمه إلاّ الله. فقلت لامرأتي: «قد افتضحت ثكلتك أمك، وقد جاءك رسول الله ﷺ وأصحابه أجمعون».

«فقالت: بك وبك. فقلت: قد فعلتُ الذي قُلت».

فقالت: أكان رسول الله ﷺ سألك عن الطعام؟ قلت: نعم.

قالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرته بما كان عندك.

فذهب عني بعض ما كنت أجد. قلت: لقد صدقتِ.

فجاء رسول الله ﷺ، فدخل، ثم قال لأصحابه: لا تضاغطوا، ثم برَّك على التنور وعلى البرمة[5]. فجعلنا نأخذ من التنور الخبز، ونأخذ اللحم من البرمة، فنثرد[6]، ونغرف، ونقرّب إليهم.

---

(١) أنثى الماعز لم تبلغ الحول.
(٢) القدر.
(٣) الأحجار التي يوضع عليها القدر عند الطبخ.
(٤) طعام قليل.
(٥) أي دعا بالبركة على التنور والبرمة أي القدر.
(٦) فته ثم بله بمرق.

وقال رسول الله ﷺ: ليجلس على الصحفة[1] سبعة أو ثمانية.

فلمّا أكلوا كشفنا التنور والبرمة، فإذا هما قد عادا إلى أملأ ما كانا، فنثرد، ونغرف، ونقرّب إليهم، فلم نزل نفعل ذلك كلّما فتحنا التنور، وكشفنا عن البرمة، وجدناها أملأ ما كانا، حتى شبع المسلمون منها «وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو» وبقيت طائفة من الطعام، فقال لنا رسول الله ﷺ: إن الناس قد أصابتهم مخمصة، فكلوا، وأطعموا، فلم نزل يومنا نأكل ونطعم)[2].

معجزة أخرى

تتحدّث عنها طفلة أنصارية.. نادتها أمها، ولما لبّت نداءها وضعت في طرف ثوبها تمرات، ثم أمرتها بالتوجه نحو أبيها وخالها وهما يحفران مع رفاقهما الخندق.

طوت تلك الطفلة البريئة تمراتها بطرف ثوبها، ثم طوت الأرض، لكن رجلاً صادفها في طريقها فأخذ منها التمر، فأخذنا منها هذه القصة المعجزة..

إنها(ابنة بشير بن سعد، قالت: بعثتني أمي بتمر في طرف ثوبي إلى أبي وخالي وهم يحفرون الخندق، فمررت على رسول الله ﷺ، فناداني، فأتيته، فأخذ التمر مني في كفّيه، وبسط ثوباً فنثره عليه، فتساقط في جوانبه، ثم أمر بأهل الخندق فاجتمعوا، وأكلوا منه، حتى صدروا عنه)[3] وقد شبعوا من التمر وهم أكثر من ألف رجل.. شبعوا من ملء الكفّين من التمر.

معجزة تزيد الطاقة والإيمان.. قدّمها ﷺ لمن يحفرون الخندق. تلك المعجزات تفتح أبواباً جديدة من الفرح والفرج للمؤمنين، وكأن ذلك الخندق ممر إلى الدنيا

---

(١) الإناء أو الطبق الذي يوضع فيه الطعام.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٠٢).

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق والبيهقي ٣-٤٢٧ من طرق عنه: حدثنا سعيد بن ميناء، عن ابنة بشير بن سعد: وسعيد بن ميناء الحجازي مولى البختري. أبو الوليد تابعي ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٣٤١ وابنة بشير صحابية صغيرة.

بأسرها، وكأن المعاناة في حفره معاناة ولادة النور وانتشاره، أما بالنسبة للمنافقين، فكان لبعضهم هداية، وللعنيد المكابر طوقاً يخنقهم.. هم كالكلاب ينتظرون من يمسك بطرف السلسلة ليتبعوه وهم يهزون أذيالهم.. منقادين أذلاّء.. كانت المعجزات تغيظهم، وتدفعهم إلى مزيد من العناد والمكابرة، لكن أشدّ ما أغاظهم عند حفر الخندق.. هو تلك المعجزة التي لهج بها ﷺ، ليس لمن يحفرون الخندق فقط، بل لأبنائهم ولمن بعد أبنائهم. ففي الوقت الذي يرتجف فيه المنافقون من الهلع.. كان ﷺ يستبشر ويبشّر بـ:

فتح فارس والروم واليمن

يعد أصحابه بذلك وهو يضع الحجر على بطنه من الجوع.. يقول ذلك لأصحابه وهو يحفر خندقاً يدافع به عن دولته الصغيرة، التي لا تتجاوز حدودها حدود هذا الخندق.. يبشّرهم وهم جياع بكنوز فارس والروم، وقصور اليمن، لأنه نبي، ولأنها حقيقة قادمة كشمس الغد.

يقول أحد المشاركين في الخندق: (لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرض لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة، لا تأخذ فيها المعاول. فشكونا ذلك إلى النبي ﷺ..؟

فلما رآها أخذ المعول وقال: بسم الله. وضرب ضربة، فكسر ثلثها، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله.

ثم ضرب الثانية، فقطع ثلثاً آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض.

ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة)[1].

---

(١) حديث حسن وسنده ضعيف رواه أحمد ٤-٣٠٣ والبيهقي ٣-٤٢١ وسبب ضعفه هو ميمون الزاهري لكن الحديث حسن بما بعده وبأحاديث أخرى.

وصحابي آخر لم يحضر الحادثة، لكنه سمع من صحابي آخر فيقول: (إذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها، فقال نبيّ الله ﷺ: دعوني فأكون أول من ضربها، فقال: بسم الله، فضربها، فوقعت فلقة ثلثها، فقال: الله أكبر قصور الروم وربّ الكعبة. ثم ضرب أخرى بأخرى، فوقعت فلقة، فقال: الله أكبر قصور فارس، وربّ الكعبة. فقال عندها المنافقون: نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور فارس والروم!!)[1].

هؤلاء المنافقون هم الذين قال الله عنهم: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2]

أمر هؤلاء المنافقين محير ومزعج..!! لا تدري ما الذي يريدونه، ولا ما مبدؤهم ولا هدفهم، ولا تستطيع تمييزهم بسهولة..؟

الكفر مرض والنفاق أشد منه، وجسد الدولة الإسلامية يستطيع الاحتياط والوقاية من مرض الكفر، لكن عندما يتسلّل فيروس النفاق إليه.. تبدأ رحلة طويلة ومريرة من العلاج، وتناول الأدوية والعقاقير للقضاء عليه.

وفي غزوة الخندق.. كانت الدولة الإسلامية تحتاط بالخندق من الوثنيين، لكن من الصعب حفر خندق يحول دون المنافقين المتظاهرين بالإيمان، لا سيما في هذا الوقت الذي انتهى ﷺ وأصحابه من حفر الخندق، ووصل فيه أحزاب الأصنام إلى مشارف المدينة، فعسكروا أمام الخندق، وبدأ حصار قاسٍ وشديد على المدينة.. عندها بدأ المنافقون يظهرون كالبثور الكريهة المتقيّحة على جسد المدينة.. في هذه الظروف الحرجة ظهر نفاقهم وكفرهم وحقدهم على النبي ﷺ والصحابة، ومع ذلك كلّه تمتّع ﷺ وأصحابه بأكبر قدر من ضبط النفس وعدم التهوّر بإيقاع أي عقوبة على أولئك المنافقين، الذين فاحت خيانتهم من خلال كلماتهم ونظراتهم، وحركاتهم التي كانت تفتقد إلى أقلّ معاني الرجولة والنخوة. ازداد الوضع حرجاً، فقرّر ﷺ

---

(١) حسن بما قبله رواه الطبراني رجاله ثقات لكنني لم أعثر على ترجمة لنعيم بن سعيد فيما لدي من مراجع. ثم وجدت أن هناك خطأ في اسمه حيث قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦ - ١٩٠: رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبري وهما ثقتان. وهو كما قال، لكني لم أتأكد من توثيق نعيم.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ١٢.

وضع النساء والأطفال داخل أحد الحصون

وهو حصن لبني حارثة.. دخلته عائشة أثناء غزوة الخندق وتحدّثت عنه، فقالت: (إنها كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز[١] حصون المدينة، وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن)[٢]، وعندما بدأت المناوشات بين جيش المؤمنين وجيوش الوثنيين كان هناك طفلان يقومان بحركات كلّها فضول وبراءة.

أسماء بنت أبي بكر وأمّ سلمة رضي الله عنهما كانتا داخل الحصن، وكان معهما طفلان كالورد: عبد الله بن الزبير ابن أسماء، وعمر ابن أبي سلمة ابن هند «أم سلمة».

وفي غفلة من أميهما صعدا إلى أحد الأسطح لمشاهدة ما يحدث خارج الحصن.. كانا قصيرين، لكن قصر قامتيهما لم يمنعهما من الإصرار على المشاهدة، فقرّرا أن يتناوبا المشاهدة.. ينحني أحدهما فيصعد الآخر على ظهره، ثم تكون نوبة الآخر في الانحناء، وهكذا..

حركات مفعمة بالبراءة والإثارة والفضول الجميل.. ها هو عبد الله بن الزبير.. سنسأله عمّا جرى..؟

إنه يقول: (جعلت يوم الخندق مع النساء والصبيان في الأطم[٣]، يعني حصناً، ومعي عمر بن أبي سلمة، فجعل يطأطئ[٤] لي، فأصعد على ظهره، فأنظر إليهم كيف يقتتلون وأطأطئ له، فيصعد فوق ظهري، فينظر)[٥].

لأنه لا يستطيع سوى النظر فقط، ولا يسمح له بالمشاركة رغم حماس الأطفال وحبّهم لتقليد الكبار. بقي الأطفال كلّهم مع النساء، إلاّ من بلغ الخامسة عشر مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي كان يتحرّق للقتال يوم أُحُد، لكن النبي ﷺ ردّه، وها هو اليوم خارج حصن بني حارثة.

---

(١) أمنع.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٢٤٠) حدثنا عبد الله بن سهل عن عائشة أنها كانت.. وعبد الله بن سهل تابعي ثقة من رجال الشيخين -التقريب (٦٦٩) واسمه عبد الله بن عبد الرحمن بن سهل الأنصاري. قال البخاري: عبد الله بن سهل سمع من عائشة انظر: التهذيب (٢١٥/١٢) ويكنى بـ أبي ليلى.

(٣) الحصن.

(٤) ينحني.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) والبيهقي (٣/٤٣٩) واللفظ له.

ماذا قال لك النبي ﷺ يا ابن عمر..؟

يقول رضي الله عنه: (إن النبي ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه)[1]، وسمح له بالقتال والمشاركة بالمعركة، أمّا من كان دون هذه السن فقد اكتفى بالمشاهدة، حيث كانت الساحة تموج بالترقّب والتوتّر.. كان المؤمنون فيها خلف سواترهم يرقبون أي اقتحام لهذا الخندق ليضربوا ضربتهم، أمّا جيوش الأصنام فقد جنّ جنونها مما ترى أمامها من ذكاء عسكري نادر.. وقيادة لا مثيل لها.

حيّرها هذا الخندق.. هذا الإبداع العسكري الذي لم تعرفه العرب من قبل، ولم تستخدمه!!

إن اقتحامه ضرب من الجنون أو الانتحار، أما الغزو عن طريق الجهات الأخرى، فيعني التمزق والهزيمة، فهل ستكتفي قريش ومن معها من الوثنيين بالحصار والقتال عن بعد.. عن طريق التراشق بالنبل والرماية بالأسهم..؟ ربما، فلن يقدر على اقتحام هذا الخندق إلاّ شجاع أو منتحر.

ها هو الشجاع الذي سيقتحم الخندق.. ها هو وقد استطاع عبوره باحثاً عن مبارز.. إنه عمرو بن عبد ودّ:

فارس يبحث عن مبارز

وقف أمام جيش المؤمنين متحدّياً.. يفيض شجاعة وحماساً، فانبرى له حتف مخيف كحمزة.. خرج له عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فبارزه فجعله تاريخاً، وسقط عمرو بن عبد ود وسقط تحدّيه.

يقول أحد الصحابة: (قتل من بني عامر بن لؤي: عمرو بن عبد ود، قتله عليّ بن أبي طالب مبارزة)[2].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٧).

(٢) هذا الجزء من الحديث حسن وهو ما صح من قصة علي مع عمرو بن عبد ود.. رواه الحاكم ٣-٣٢ وسنده ضعيف لأن الحكم لم يسمع هذا الحديث من مقسم لكن هذا الجزء من الحديث له شاهدان مرسلان.. عند البيهقي (٤٣٥/٣) عن عروة، وعن محمد ابن كعب القرظي فقتل علي لعمرو ثابت بهذه الأسانيد، أما تفاصيل المبارزة وما جرى من حديث فلم أجد سوى مراسيل وهي لا تتقوى ببعضها لاحتمال توحد المصدر.

انتظر الوثنيون خروجه من الخندق وسيفه يقطر بأرواح المؤمنين، لكنه لم يخرج.. لم يغادر مكانه، فليس هناك مشرك يصمد أمام سيف عليّ.

أحسّ المشـــركون بأنه لا طريق تؤدي إلى رقـــاب المؤمنين، ولا دروب إلى المدينة إلاّ طريقين لا ثالث لهما: إمّا المبارزة، وهذا الأمر بعيد جداً، وإمّا الرماية بالســـهام، وهذا هو الأمـــر الوحيد الذي يقدرون عليه، لكنه لن يجدي نفعاً إلاّ إذا تحركت قوات اليهود الخونة وخرجت من حصن بني قريظة، وبقدر ما كان الخندق يبث الطمأنينة في قلوب المؤمنين.. كان حصن بني قريظة يثير الخوف والقلق في أوساط المؤمنين، لذلك قام ﷺ بتغطية كافة الاحتمالات لأن المعركة والخيانة قد تشتعلان ليلاً، فماذا فعل ﷺ؟

كلمة السر

كلمة يعرف بها المؤمنون بعضهم بعضاً متى ما دهموا ليلاً من قبل الوثنيين أو اليهود.

قال ﷺ لأصحابه: (إن بيَّتكم العدو، فقولوا: «حم، لا ينصرون»)[1]

كان ﷺ يقرأ ما حوله تماماً.. يقرأ تفكير الخيانة جيداً، ولذلك طلب فارساً من أصحابه.. يتطوّع للذهاب حيث حصن بني قريظة، كي يقدم تقريراً عن آخر تحرّكاتهم، وهل بدأوا تنفيذ مؤامرتهم مع قريش وغطفان..؟ هل بدأوا التحرك العسكري للضرب من الخلف..؟

هبّ الزبير ملبياً نداء النبي ﷺ.. حمل روحه وســـيفه وانطلق كالســـهم نحو بني قريظة، وفي طريقه مرّ من تحت ســـور حصن بني حارثة، فشـــاهده ابنه الصغير عبد الله الذي كان يطل من الحصن، بالتناوب مع صديقه الصغير عمر بن أبي سلمة.

يقول عبد الله بن الزبير: (كنت أنا وعمر بن أبي سلمة في الأطم الذي فيه نساء رسول الله ﷺ، أطم حسان، فكان يرفعني وأرفعه، فإذا رفعني عرفت أبي حين يمر إلى بني قريظة «على فرسه»، وكان يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم الخندق)[2].

---

(١) ســنده صحيح رواه أحمد ٤-٦٥ و٢٨٩ الترمذي (١٦٨٢) وغيرهما من طرق عديدة عن أبي إســحاق عن المهلب بن أبي صفرة عن أحد الصحابة. والمهلب من ثقات الأمراء وقد ســمع منه أبو إســحاق وقال عنه: ما رأيت أميراً أفضل منه -التقريب ٥٤٩.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) وأحمد (١٦٤/١) واللفظ له والزوائد للبخاري.

أما والده الزبير فيقول: (كان رســول اللــه ﷺ قال: من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟ فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رســول الله ﷺ بين أبويه، فقال: فداك أبي وأمــي)[1] فقــد أدّى عملاً بطولياً، وأخبر النبي ﷺ بــأن بني قريظة قد نقضوا العهد ومــا زالوا على خيانتهم.. تأزّم الوضع، وبدأ المنافقون بالتململ، فقد ضاقوا بمجريات الحرب، وبدأت الأزمات تكشف عن حقيقتهم، وتحرق تلك القشرة التي يختبئ كفرهم تحتها. فضحتهم الحرب، وفضحهم الله بآيات كالســيوف على رقابهم.. بدأوا يقدمون التماساتهم وأعذارهم بعدم القدرة على الصمود، نظراً للخطر الذي قد يحدث لأهلهم وبيوتهم، بعد أن رأوا السهام تمطر على جيش المؤمنين.

انســحب المنافقون الواحد تلــو الآخر.. هرباً من المعركــة.. كان منظرهم يجلب الإحبــاط والغضب لــدى المؤمنين، لولا ثقتهــم بنصر الله ووعده، واشــتدّ الأمر على المؤمنين، وضاقت بهم السُّبل في أيام تعصف بالجوع والبرد والموت.. أعداء في الخارج أعلى المدينة، ويهود أســفلها، ومنافقون ينســحبون كالجرذان بــين بيوتها، ويطالبون المؤمنين بالاستسلام والتسليم للوثنيين.

يقول ســبحانه عن تلك الأيام العصيبة: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟[2] وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا[3] ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا[4] ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠).

(٢) مازالوا يسمون المدينة يثرب، ويطالبون المؤمنين بالرجوع لمنازلهم لأنهم مهزومون لا محالة.

(٣) عذرهم في الانسحاب من المعركة أنهم يخافون على بيوتهم من السرقة والأعداء.

(٤) أي لو دخل الأعداء المدينة ثم طلبوا من المنافقين إعلان الكفر لأعلنوه حالاً.

يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا
نَصِيرٗا ﴿١٧﴾ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ(١) وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ
عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ(٢) ﴾(٣).

أولئك هم المنافقون، وتلك هي سفالتهم وانحطاطهم.. مات فيهم كل شيء.. حتى بقايا صفات الخير التي كان العرب في الجاهلية يتفاخرون بها.. حتى تلك.. ماتت داخل نفوسهم.. خنقها عفن النفاق وأجهز عليها، وها هو العفن يتطاير في أجواء المدينة.. يحاول التسلّل إلى عزائم المؤمنين ليخنقها، ليبعثر في جنباتها الإحباط. إنهم الآن بين نسائهم يأكلون ويشربون، ويبخلون بطعامهم على أولئك الصامدين أمام الخندق، وليتهم اكتفوا بذلك. إنهم يطالبون أولئك الفرسان بالانسحاب والاستسلام، لأن المعركة في نظرهم محسومة، وأبو سفيان سيحتل المدينة غداً إن لم يقم بذلك اليوم..

أولئك المنافقون نسوا كل شيء.. نسوا أن المدينة مدينتهم.. نسوا عهدهم مع الله ورسوله.. نسوا بيعتهم لله ورسوله.. نسوا وعدهم بالصمود معه ﷺ، وأن لا يفرّوا من المعركة مهما كانت النتائج.

هذا ما بدا للجميع من هؤلاء الأنذال، أمّا ما خفي فإن الله كشفه بهذه الآيات التي غرفت ما بداخلهم، وأخرجته وكشفته للجميع.. لقد شرَّحتهم الآيات، وبيَّنت للناس أيّ سرطان يتمدّد في المدينة.. فضحهم الله وبيَّن أنهم جاهزون لإعلان الكفر حالما يرون جيوشه تقتحم الخندق والمدينة، لكنهم لا يستطيعون ذلك الآن، فالنبي ﷺ لا يزال هو القائد، وخوفهم منه، وخوفهم من الموت واضح في أعينهم التي تدور كما تدور أعين الذي يعاني سكرات الموت وشدّة النزع، ويشتد دوران أعينهم أكثر ما يشتد الآن، فالخوف في كل مكان، والجوع في كل مكان، والبرد في كل مكان.. و:

---

(١) الذين يعيقون غيرهم من الجهاد والدفاع عن المدينة.. ويطالبونهم بالبقاء معهم.
(٢) يشحون على المؤمنين بالمساعدة والجهاد وحتى بالدعم المعنوي بألسنة لا خير فيهم.
(٣) سورة الأحزاب: الآيات ١٠-١٩.

القتال يشتد

و(اشتدّ الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتيني بخبر بني قريظة، فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم)[1] وغدرهم الذي لم يتزحزح حتى الآن.

كان ﷺ يخشى على المدينة منهم، فلديهم من العتاد والعدّة والحقد الشيء المخيف، ولذلك بعث الزبير مرّة ثانية حتى لا يفاجأ بجيشهم فتكون القاضية، واستأنف الوثنيون رشقهم بالنبال.. كانت نبالاً طائشة وغير طائشة، وهذا ما أثار خوف عائشة..

عائشة تخاف على سعد بن معاذ

وتقول: (كان رسول الله ﷺ وأصحابه حين خرجوا إلى الخندق، رفعوا الذراري والنساء في الحصون مخافة العدو عليهم. قالت عائشة: فمرّ سعد بن معاذ وعليه درع مقلصة[2]، وقد خرجت منها ذراعه، في يده حربته توقد، وهو يقول:

لا بأس بالموت إذا حان الأجل ... لبث قليلاً فيشهد الهيجا حمل

فقالت أم سعد: الحق يا بني، فقد والله أخّرت.

فقالت عائشة: يا أم سعد، لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي، فخافت عليه)[3].

كان خوف عائشة في محله، وكان جميل سعد وتفانيه في الدفاع عن براءة عائشة مثمناً عندها، ولن تنساه له. ف:

هل أصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه

أجل.. لقد أصابه سهم في ذراعه.. رماه مشرك يدعى (حبان بن العرقة) أصابه وهو يرتجز بهذه الأبيات المليئة بالحماس والموت، والتي ربما قالها رجل سابق اسمه: حمل.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) وأحمد (٣/٣١٤) واللفظ له.

(٢) ربما يعني أنها كانت تضم صدره.

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي (٣/٢٤٠) حدثنا عبد الله بن سهل، عن عائشة: أنها كانت.. وعبد الله بن سهل هو أبو ليلى المدني، تابعي ثقة من رجال البخاري ومسلم، وقد قال الإمام البخاري: عبد الله بن سهل سمع من عائشة - التهذيب (١٢/٢١٥) والتقريب (٦٦٩).

سعد بن معاذ.. هذا الفارس العظيم، والمؤمن النقي، الذي لا يخشى في الله أحداً، والذي دافع عن عرض النبي ﷺ أثناء إشاعة الإفك.. هذا الصحابي الجليل أصيب بسهم في ذراعه، وقد نزف دماً كثيراً وحالته خطيرة، والوضع أخطر.

اعتنى النبي ﷺ بهذا الرجل الكريم، فأمر بحمله وعلاجه، وصنع قبّة له داخل المسجد النبوي كي يزوره أهله وأصحابه، وليكون تحت سمع النبي ﷺ وبصره. لكن سعداً كان جمالاً.. كان فداءً حتى وهو ينزف.. كان محملاً بالأحلام والانتصارات والأماني.

أمنية سعد بن معاذ قبل أن يموت

تقول عائشة: (أصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له: حبان بن العرقة - وهو حبان بن قيس من بني معيص ابن عامر بن لؤي، رماه في الأكحل[1]، فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب)[2].

وتقول رضي الله عنها: (خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائي -يعني حس الأرض- فالتفتّ فإذا سعد بن معاذ ومع ابن أخيه الحارث بن أوس، يحمل مجنة، فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه درع من حديد، قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتخوّف على أطراف سعد، وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم وهو يرتجز ويقول:

ليت قليلاً يدرك الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

«قالت: فقمت، فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيهم عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه سبغة له، يعني مغفراً، فقال عمر: ما جاء بك.. لعمري والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء، أو يكون تحوز..؟

قالت: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقتّ لي ساعتئذٍ فدخلت فيها، فرفع الرجل السبغة عن وجهه، فإذا طلحة بن عبيد الله، فقال: يا عمر.. ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوّز أو الفرار إلاّ إلى الله عزّ وجلّ».

---

(١) عرق في الذراع.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٢).

قالت: ويرمي سعداً رجلٌ من المشركين من قريش يقال له: ابن العرقة بسهم له، فقال: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله، فقطعه فدعا الله عزّ وجلّ سعد، فقال: اللّهمّ لا تمتني حتى تقرّ عيني من قريظة، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، فرقى كلمه)[1]

كان سعد يعاني من جرحه، ومازال يعاني حتى بعد توقف النزيف، لكن جرحه الآخر الذي لا يندمل ولا يبرأ هو ذلك الجرح الذي فتحه يهود بني قريظة بخيانتهم لله ورسوله، ونقضهم العهد وهم الذين يعيشون في ظل دولة الإسلام آمنين مطمئنين.

هذه هي الحرب الثانية، والخيانة الثانية التي يطعنون بها رسول الله ﷺ وأصحابه، لكنها الأشدّ، لدرجة أنهم جعلوا النبي ﷺ في حالة من القلق جعلته يبحث عن رجل يتوجّه نحو حصن بني قريظة ليرصد آخر تحرّكاتهم. وهذه هي المرة الثالثة التي يفعلها ﷺ، ومرة ثالثة يُشرق الزبير، فيكسوه النبي ﷺ لقباً بعد عودته.. لقباً يتميّز به بين أصحابه ﷺ.

لقب الزبير

يذكره جابر، فيقول: (اشتدّ الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتينا بخبر بني قريظة؟ فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم، ثم اشتدّ الأمر أيضاً «ثم ندب الناس، فانتدب الزبير.

ثم ندب الناس، فانتدب الزبير»، فذكر ثلاث مرات، قال رسول الله ﷺ: إن لكل نبي حوارياً، وإن الزبير حواريي)[2]

أي صاحبي النقي أو وزيري، والزبير يستحق ذلك بعد جهده وجهاده.. بعد أن فدى النبي ﷺ وأصحابه بروحه، ففداه ﷺ بأمّه وأبيه، وتجدّد التماهي بين القائد وجنده في أشدّ لحظات كتابة التاريخ والبطولات، وقدم الزبير للمرّة الثالثة تقريراً

---

(١) حديث حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة فسندها ضعيف لأنها من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده عند أحمد ٦-١٤٢ وعمرو يحتاج إلى متابعة لقول الحافظ: مقبول أي عند المتابعة، ويشهد لبقية الحديث ما عند البخاري وابن إسحاق وغيرهما.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٤٧) وأحمد (٣/٣١٤) واللفظ له.

يؤكـد تـورط يهود بني قريظة فـي المعركة والحصار، لكنهم أجبن مـن أن ينزلوا إلى سـاحة العراك، لذلك فضّلوا الانتظار، فقد تنجح عملية اقتحام المدينة. عندها يسهل الانقضاض على محمـد ﷺ وعلى من مع محمد. لكن الحصار طال، والانتظار طال، واليهود تعلم أن هذا المحاصر نبي، وهناك داخل السـور رجال يؤكّدون لمن حولهم من اليهود أن هذا هو النبي المنتظر.

كان هناك أكثر من ثلاثة رجال يحاولون إقناع من حولهم أن محمداً ﷺ نبيّ، لكن يهود تعاند، واليهود لها تاريخ دموي مع أنبياء سـابقين من اليهود أنفسهم، حيث قاموا باغتيال عددٍ منهم، فما المانع أن يكون محمد ﷺ ضمن قائمة من حكم عليهم بالإعدام لدى أحبارهم..؟ ولم يقتصر خبثهم على هذا التفكير، فاحتمال انتصار المسلمين وارد، والمعجزات قد تأتي في أي وقت، وفي أي مكان، لذلك قامت اليهود بمبادرة تسـتدرج فيها النبي ﷺ.

قامت بدور العميل المزدوج، حتى تأمن جانب المسـلمين في حالة انتصارهم، وإن كان انتصارهم بعيداً.. بعيداً في ظل هذا الحصار والجوع القاتلين، لكن اليهود تخطّط لأسوأ الاحتمالات، فماذا فعلت؟

خيانة ثالثة لليهود

والخيانة تشـكل نسـبة لا بأس بهـا من دمائهـم وعروقهم. فاجتمـع أحبارهم وزعماؤهم، وقرّروا بعث رسول إلى النبي ﷺ.. يظهرون فيه أنهم معه في هذه المعركة، وأنهم جاهزون لأي إجراء يتّخذ ضدّ قريش وغطفان، وقدّموا الدليل على ما يدّعون.

تقول عائشـة رضي الله عنها إن رسـول الله ﷺ قال: (إن اليهود قد بعثت إلي: إن كان يرضيك عنا أن تأخذ رجلاً رهناً من قريش وغطفان من أشـرافهم، فندفعهم إليك، فتقتلهم)(١)

قالوا ذلك وكأن النبي ﷺ متعطّش للدماء.. أيّ دماء.. وكأنه يستبيح أي شيء من أجل الوصول إلى هدفه.. كانوا يريدون إشراك النبي ﷺ والمؤمنين في خستهم تلك.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٣-٤٤٧: حدثنا يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة. يزيد مولى آل الزبير تابعي ثقة، التقريب ٦٠١، وشيخه، إمام ثقة.

هل هذا الفعــل الحقير، وهذه النفوس المنحطة يمكن أن تكون لقوم يدينون بدين ســماوي، ويزعمون أن لديهم كتاباً منزلاً من عند اللــه بذلك..؟ إن الخيانة هي أهون شيء في قائمة ألقاب اليهود وصفاتهم.

أدرك ﷺ أن هؤلاء القوم لن يتورعوا عن فعل أي شيء، وهدم أي مبدأ، وتجاوز أي مقدس، وانتهاك أي محرم من أجل أحقادهم، لذلك قرر أن يسقيهم من الكأس الذي ســقوه منه.. قرر ﷺ إطلاع قريش وغطفان على غــدر قريظة بهم، وذلك عن طريق رجل يشدك ويثيرك عندما يتكلم، ويؤثر في سامعيه.

تقول عائشة رضي الله عنها: (كان نعيم رجلاً نموماً، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: إن اليهود قد بعثت إلي: إن كان يرضيك عنا أن تأخذ رجالاً رهناً من قريش وغطفان، من أشرافهم، فندفعهم إليك، فتقتلهم؟ فخرج من عند رسول الله ﷺ فأتاهم، فأخبرهم بذلك. فلما ولى نعيم، قال رسول الله ﷺ: إنما الحرب خدعة)(١)

وقريش تعلم أن النبي ﷺ لا يكذب، وتحقق للنبي ﷺ ما أراد فتم عزل بني قريظة عــن قريش وغطفان، وانكســر أحد أضلاع مثلث الأحــزاب، فتزعزعت ثقة الأحزاب بأحلامهم وجيشهم، وأصبحت الهزيمة عندهم قابلة للاحتمال، وبدأت بوادر استجابة الله لدعاء سعد بن معاذ الذي حاول ﷺ علاجه.

يقــول جابر بن عبــد الله: (رمي يوم الأحزاب ســعد بن معــاذ، فقطعوا أكحله. فحســمه رســول الله ﷺ بالنار، فانتفخت يده، فحسمه أخرى، فانتفخت يده، فنزفه. فلما رأى ذلك، قال: اللهم لا تخرج نفســي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة)(٢).

استجاب الله لسعد بن معاذ، فأي مصير ينتظر بني قريظة..؟ استجاب الله دعاء سيد الأنصار، فهل يستجيب الله لـ:

---

(١) سند صحيح وهو الحديث السابق.

(٢) ســنده صحيح رواه أحمــد ٣-٣٥٠ حدثنا حجين ويونس قالا: حدثنا الليث بن ســعد عن أبي الزبير عن جابر. ظاهر هذا الســند الضعف لأن أبا الزبير مدلس وقد عنعن، لكن ذلك لا يضر في هذه الحالة لأن الراوي عن أبي الزبير هو الليث بن ســعد وقد أعلم له أبو الزبير ما ســمعه من جابر فرواه عنه. التهذيب ٩-٤٤٢ وحجين ثقة. التقريب - ١٥٤.

الذي حاصره الكفر من كل مكان، وطال عليه الحصار، وسيطر الخوف على كل شبر في المدينة، وصار الطفل والمرأة والرجل يخشون على أنفسهم إذا خرجوا لقضاء حاجة.. اشتد البرد والشتاء والجوع، وبلغت الحال كما وصف الله في القرآن: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾(١)

هذا هو الوضع الآن، وهذه هي المدينة كالطفل الخائف.. طيبة خائفة، والرعب يطل عليها من رؤوس الجبال، وشقوق الأبواب، ومن بين النخيل.. طيبة قد احتل معظمها والمشركون يستعدون الآن لشن هجوم شرس على باقيها، للقضاء على هذا الملل والانتظار.. للقضاء على محمد ﷺ وأصحابه. وبدأ الهجوم في ظهيرة أحد الأيام الباردة، فتصدى له المسلمون، وكان ﷺ يمثل جيشاً على إحدى مداخل الخندق.. يحميه ويذود عنه، ويفتك بمن يقتحمه، حتى صدهم عن ذلك الثغر، وقد بقي ﷺ على ذلك المدخل من بعد صلاة الظهر إلى أن توارت الشمس وغابت.

يقول علي رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ كان يوم الأحزاب قاعداً على فرضة من فرض الخندق، فقال: شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غربت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً)(٢).

وها هو أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة مشغولون عن الصلاة بقريش ومن معها. لقد ذهب وقت صلاة العصر، ودخل المغرب وهم يحاربون..

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات ١٠ - ١٤.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (الدليل لمن قال.. كتاب المساجد) والبيهقي (٣/٤٤٣) واللفظ له.

ها هو عمر قد استشـــاط غضباً على أولئك الوثنيين (عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشـــمس، فجعل يســـب كفار قريش، قال: يا رسول الله، ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب.

قال النبي ﷺ: والله ما صليتها.

فقمنـــا إلـــى بطحان، فتوضأ للصـــلاة وتوضأنا لها، فصلى العصـــر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب)[1] في ذلك الوادي المسمى (بطحان) وحول الخندق كان الليل إذا أقبل.. أقبل مع الليل برد شديد، وعندما تشرق الشمس تشرق معها المنايا.

في أحد الأيام أشـــرقت الشـــمس والمعركة، وحميت المعركة وتأجـــج لهيبها، ولم يستطع النبي ﷺ والصحابة الصلاة من شدة القتال، فخرج وقت صلاة الظهر والعصر والمغرب، ولم تهدأ المعركة إلا بعد دخول صلاة العشاء.

يقول أبو ســـعيد الخدري: (حبســـنا يوم الخندق عن الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء. حتى كفينا ذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ فقام رســـول اللـــه ﷺ، فأمر بلالاً فأقام، ثم صلى الظهر، كمـــا كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام فصلـــى العصر كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام المغرب، فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام العشاء، فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك)[2]

هكـــذا بلغ الحصار بالنبـــي ﷺ وأصحابه.. لـــم يجدوا حتى دقائـــق قليلة لأداء الصلوات في أوقاتها.

ماذا يفعل ﷺ وسط هذا الخوف والجوع..؟ وسط هذا الزلزال..؟ لم يجد وسيلة مباحة إلا استخدمها، ولم يبق أمامه وأمام أصحابه سوى الدعاء.. (دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، أهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[3]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٩٦) ومسلم -كتاب المساجد.

(٢) ســـنده صحيح رواه أحمد ٣ - ٢٥ وغيرهم من طرق عن ابن أبي ذئب ثنا ســـعيد بن أبي ســـعيد عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه. فسعيد المقبري تابعي ثقة من رجال الشيخين ٢٣٦ وشيخه ثقة ٣٤١ وابن أبي ذئب واسمه محمد بن عبد الرحمن ثقة ثبت فاضل.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٣- ١٣٦٢.

دعا دعاء المكروب.. المحتاج، وما كان الله ليذر نبيه وعباده الصالحين في همومهم، وقد بذلوا كل جهدهم وطاقتهم له، ومن أجل رضاه سبحانه.

استجاب الله دعاء نبيه

ها هي طلائع الهزيمة تقترب نحو الأحزاب دون أن يشــعروا.. بعث الله جيشاً لا يقهر نحو أعدائه.. بعث الله الريح والبرد وجنوداً لا يرونها.. وكان بالنســبة للمؤمنين امتحاناً وتمحيصاً وتكفيراً، وقد أخرج البرد بقايا المنافقين من صمتهم، فعادوا يعتذرون من النبي ﷺ للعودة إلى منازلهم.

فأذن لهم، وبقي هو وأصحابه متجمدين من شدة البرد لا يقوون على الحركة ولا القتال، وهاجت الريح في معسكر الوثنيين فأطفأت نارهم وأنوارهم، واقتلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وملأت أنوفهم وعيونهــم وأفواههم بالتراب والهزيمة. أما البرد فقد أعجزهم عن الحركة، وتحول معســكرهم إلى ســاحة كبيرة مــن النفايات والفوضى والرعب.. البــرد والجوع والخوف ينتقل من المدينة.. يعبــر الخندق كوحش لا يطاق، ليتحول الأحزاب إلى أكوام.. إلى ركام من الفشــل، فيتفرق شــملهم، وتنهار أحلامهم أمام أعينهم.. تتطاير مع الريح والغبار.. فماذا سيفعلون..؟ وماذا فعل ﷺ مع أصحابه الذين مستهم الريح ومسهم البرد والجوع..؟

قــرر النبي ﷺ الســماح لأصحابه بالعودة إلى بيوتهم، فقد جــاء نصر الله بريح وجنــود لا يراها البشــر، فعاد من أحــب العودة منهم، وبقي من بقــي، فقد كفى الله المؤمنين القتال.

وفي أشــد ساعات الريح والبرد.. كان ﷺ يستدفئ بمناجاة حبيبه سبحانه.. كان يتمتع بصلاته، ويريح نفسه بها.

قيل لذلك الشاب الذي يشــارك لأول مرة.. قيل لعبد الله بن عمر بن الخطاب: (أين كان رســول الله ﷺ يصلي يوم الأحزاب؟ قال: كان يصلي في بطن الشــعب، عند خربة هناك، ولقد أذن رســول الله ﷺ في الانصــراف للناس، ثم أمرني أن أدعوهم،

فدعوتهم)[1] لكنهم لم يعودوا، ولم يستطيعوا العودة من شدة البرد، وكان لعدم عودتهم قصة يحكيها ذلك الشاب أيضاً، فقد أرسله خاله الصوام القوام عثمان بن مظعون، ليحضر بعض الطعام ولحاف، عله يذهب ما به وبأصحابه من ريح وجوع وبرد.

يقول: (أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة فقال: ائتنا بطعام ولحاف. فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي وقال: من لقيت من أصحابي فمرهم يرجعوا. فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ، فما يلوي أحد منهم عنقه. وكان معي ترس لي فكانت الريح تضربه علي، وكان فيه حديد، فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي فأنفذها إلى الأرض)[2]

وسط هذه العاصفة الباردة كانت الريح معركة أخرى.. أشغلت كل إنسان بنفسه، فصار لا يدري ما حوله ولا من حوله، وخلال هذا الأجواء المرعبة المخيفة كان ﷺ يناجي ربه، الذي أنزل نصره وأرسل ريحه.. كان الجميع مشغولين بأنفسهم، ونبي الله ﷺ مشغول بأمته.. يناجي الجبار ويدعوه لنصرتها، لكن ماذا عن الجهة الأخرى من الخندق..؟ ماذا عن الوثنيين وماذا فعلت بهم الريح..؟

الريح في معسكر الوثنيين

النبي ﷺ يتساءل أيضاً عن أحوالهم، فقد هتف ﷺ بالقلة المحيطين به، ونادى بالتطوع لاكتشاف ما حل بالمشركين، لكنه لم يجد مجيباً. ثم هتف فلم يجبه أحد،

(١) رجاله ثقات رواه الطبراني ١٢-٣٦٩: حدثنا محمد بن الحسين الأنماطي حدثنا مصعب ابن عبد الله الزبيري حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عبيد الله بن عمر عن نافع قال قيل لعبد الله.: عبيد الله ثقة ثبت والدراوردي: صدوق، ومصعب صدوق، وهم من رجال التقريب، وشيخ الطبراني سكت عنه الشيخ حماد الأنصاري في البلغة ٢٨٠ ووجدت توثيقه في تاريخ بغداد ٢-٢٢٧ لكن يعكر على صفو هذه السلسلة قول الإمام أحمد: أن الدراوردي ربما قلب حديث عبد الله بن عمر يرويها عن عبيد الله، لكن الراجح أنه لم يقلب، لأنه روى نحو هذا الحديث وهو التالي وقد تابعه إمام ثقة هو ابن وهب.

(٢) سنده قوي رواه ابن جرير ١٠-٢٦٢ حدثنا يونس ابن وهب، حدثني عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر. نافع تابعي ثقة معروف، وعبيد الله ثقة ثبت مر معنا في الحديث السابق، والراوي عنه ثقة ثبت حافظ، وتلميذه ثقة واسمه يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة التقريب ٦١٣ والحديث عند الطبراني في الكبير ١٢-٣٦٨ والأوسط (مجمع البحرين - ٥-١٠٨) من طريق الدراوردي عن عبيد الله والحديث شاهد لبعض ما قبله.

وكرر ثالثة، فكانت الريح والبرد هي الإجابة، ولما رأى ﷺ أن التطوع في هذه الساعة صعب.. أصدر أمره لأحد الصحابة، فامتثل على الفور لما أمره به.

هذا الصحابي هو الشاب حذيفة بن اليمان الذي يحدث من حوله عن مهمته تلك الليلة عندما قال له أحد أصحابه: (لو أدركت رسول الله ﷺ، قاتلت معه وأبليت.

فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريحٌ شديدة وقرٌّ[1]، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا. فلم يُجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا. فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا. فلم يجبه منا أحد. فقال: قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم. فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: اذهب، فأتني بخبر القوم، ولا تذعرهم علي[2].

فلما وليت من عنده، جعلت كأنما أمشي في حمام[3]، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي[4] ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: ولا تذعرهم علي[5]، ولو رميته لأصبته، «فذهبت، فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً [فحس أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم] فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش: لينظر امرؤ من جليسه.

قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان ابن فلان.

---

(١) أي البرد.

(٢) لا تثيرهم ولا تحركهم، ولا تثر انتباههم.

(٣) أي كأنه يسير في حمام دافئ معجزة من عند الله رغم شدة البرد.

(٤) أي يدفئ.

(٥) لا تثيرهم ولا تحركهم.

ثم قال أبو سـفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع، والخف[1]، وأخلفتنا بنو قريظة[2]، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح مـا ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسـك لنا بناء، فارتحلوا، فإني مرتحل. فرجعت إلى رسـول الله ﷺ» فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته، فأخبرته بخبر القوم، وفرغت، قررت[3]، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليـه يصلي فيها، فلـم أزل نائماً حتى أصبحت. فلما أصبحت قال: قم يا نومان[4])[5] فقـد أصبحت المدينة وأصبح الملك لله، وأصبح النصر لله ورسـوله وللمؤمنين، وخلت الساحة من الأوثان والوثنيين الذين ولوا مدبرين.. تكنس الريح آثارهم ونفاياتهم.

نظر ﷺ إلى سـاحة القتال، فحمد الله هو وأصحابه، وذكرهم بنعمة الله عليهم، ومعجزتـه التي لوت أعناق المشـركين وأذلتهم، كما أذلت أعناق مشـركين آخرين في زمـن غابر جداً.. إنهم قوم النبي الكريم: هود وهم قوم (عاد) فقد نصر الله نبيه هود بريح عاتية آتية من الغرب، ونصر الله محمداً ﷺ بريح عاتية آتية من الشرق، ولذلك يقـول ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عـاد بالدبور»[6] وقال ﷺ: «لا إله إلا الله وحده، أعـز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شـيء بعده»[7] وقد حول سـاحة المؤمنين إلى نصر وربيع، فالحمد والشـكر لمن هزم الأحزاب وحده، فقد كانت معركة غير متكافئة عدداً واستعداداً، لكن المؤمن عندما يفعل الأسباب، ثم يتوجه بها نحو الله تتحول النتائج إلى أعياد...

ها هو ﷺ يبشر أصحابه بعد انتهاء المعركة بنهاية عصر وبداية آخر.. يبشرهم ﷺ بانهيار هيبة قريش، وانكسار حربتها.. يبشرهم بأن:

---

(١) الكراع يعني الخيل والخف الإبل.

(٢) أي أن بني قريظة خانت قريشاً وورطتهم بعد أن دعتهم للحرب ووعدتهم بالمشاركة.

(٣) أي بردت.

(٤) يا كثير النوم.. يمازحه ﷺ.

(٥) صحيح رواه مسلم (الجهاد - غزوة الخندق) واما بين الأقواس الصغيرة ليست لمسلم إنما هي حسنة رواها ابن إسحاق بسند يحتمل الانقطاع بين حذيفة ومحمد بن كعب القرظي وهو تابعي كبير أدرك علياً وروى عنه ابن هشـام - ٣-١٣٩ ويقويه ما عند البيهقي ٣-٤٥٠ وفي سـنده موسـى بن أبي المختار وهو يحتاج إلى توثيق الجرح والتعديل ٨-١٦٤.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (١٠٣٥) ومسلم (الاستسقاء).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٤) ومسلم (الذكر - الدعاء).

الخندق مقبرة لمشركي قريش

فليس هناك بعد اليوم هجوم أو حصار من قريش.. سمع ذلك أحد الصحابة الذين شاركوا في الخندق، واسمه سليمان بن صرد رضي الله عنه فقال: (سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم)(١).

كان ﷺ في الفترة السابقة حريصاً على وحدة المدينة، وتماسكها، وتجذير الإيمان والتوحيد والحب فيها، والتأسيس أهم متطلبات الدولة، فالتهور لاطائل من ورائه، والمغامرات الطائشة ليست من أعمال من يريدون بناء أمة عظيمة. أما قريش فكانت حريصة على تقويض ذلك كله.. حاولت في معركة بدر بقيادة الطاغوت أبي جهل وفشلت، وقادها للثأر أبو سفيان في معركة أحد، فلم تنل ما حملت به، وارتعدت فرائصها عن المواجهة في بدر الثانية، لذا تآمرت مع يهود وبقية الوثنيين، لكنها فشلت فشلا ذريعاً، وها هي تعود محطمة بعد معركة الخندق.. هي ومن ساندها من الأحزاب.. تعود إلى مكة وقد تفتتت هيبتها، وانكسرت شوكتها، ويعود ﷺ وأصحابه إلى بيوتهم بعد أن انتصروا.. رجعوا ليغتسلوا من عناء أيام قاسية، ومن غبار ريح عاتية.

النبي ﷺ يضع سلاحه

يضع سلاحه ويغتسل، ولكن شيئاً حدث جعله يلبس أداة الحرب مرة أخرى، ففي بيت عائشة رضي الله عنها كان ﷺ يغتسل من المعركة ويتطيب، ولكن أمراً من السماء نزل، وأمره بحمل السلاح..

أمرٌ تقول عنه عائشة: (لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل «وهو ينفض رأسه من الغبار» فقال: قد وضعت السلاح! والله ما وضعناه، فأخرج إليهم. قال: إلى أين؟)(٢).

إلى أين سيحمل ﷺ سلاحه

سأل النبي ﷺ جبريل فـ (قال: إلى أين؟ قال: ها هنا. وأشار إلى بني قريظة. فخرج النبي ﷺ إليهم)(٣) وقبل أن يتحرك جيش النبي ﷺ.. تحرك موكب جبريل في

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٠).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٧) والزيادة لمسلم.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٧).

طرقـات المدينة، ومر بطريق يقال له «زقاق بني غنم» لم يرهم أحد، لكن أنسـاً رضي الله عنه رأى غباراً في ذلك الزقاق.. غباراً أثاره موكب جبريل.

يقول أنس: (كأني أنظر إلى الغبار سـاطعاً في زقاق بني غنم، موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة)[1].

النبي ﷺ ينطلق إلى بني قريظة

ولكن قبل ذلك أرسل مجموعة من أصحابه نحوهم، وكان أحد هؤلاء ذلك الشاب عبـد الله بن عمر بن الخطـاب رضي الله عنه الذي يقول: (قال النبي ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة.

فأدرك بعضهم العصر في الطريق، وقال بعضهم: «لا نصلي إلا حيث أمرنا رسـول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت» لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك. فذكـر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف أحداً منهم)[2] ثم لحق بهم ﷺ حتى وصل إلى حصنهم، ولـم يكـن ذلك الحصار مهماً إلى هذه الدرجة عنده وعنـد أصحابه.. لم يكن ﷺ على عجلـة من أمره في حصارهم، فقد ذهب إلى بيته يريد الاغتسـال والتطيب، ولكن الله سـبحانه أخرجه من بيته إليهم، فالأمر خطير جـداً، ويبدو أن عقاب الله لخيانات بني إسرائيل لم ينته، وخياناتهم لم تنته. فما فعله بنو قريظة أخبث مما فعله الأحزاب.

لـم يكن بين النبي ﷺ وبين قريش وغطفان معاهـدة عدم اعتداء، بل كان هناك عداوة، أما قريظة فبينهم وبين النبي ﷺ عهد مكتوب، ووثيقة موقع عليها، وجوار يجب حفظه، ودولة مشـتركة، ومواطنة لها حقوق وعليها واجبات، وقد تمتعت يهود بحمايته عليه السـلام. لكن قريظة نسفت ذلك كله، وخانت للمرة الثانية وتآمرت، وطعنت من الخلـف، وإذا كان الأمر كذلك فلا غرابة أن يخرج الله نبيه إليهم بهذه السـرعة، وأن يأمر ﷺ بعدم الصلاة إلا عند حصونهم.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٨).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٩٤٦) والزيادة لمسلم.

إن ما فعله اليهود سيتكرر لأن محمداً ﷺ ليس من بني إسرائيل، وما داموا قد قتلوا أنبياء من بني إسرائيل، فلا مانع من تكرار التجربة مع نبي ليس منهم.. ستتلمظ الخيانة أفعى داخل كل حصن تسكنه يهود، ولن يعرف النبي ﷺ والمسلمون طعم الراحة والأمن ما داموا فيها.

وصل جيش الإسلام إلى هناك، فتزلزلت الحصون، وارتعدت الأوصال، وبدأ الخوف والضجيج والتلاوم بين اليهود، وشرب بنو قريظة من الكأس الذي سقوه للمؤمنين.. شاركوا في حصار المدينة، وها هم يعيشون المأساة نفسها.

النبي ﷺ يحاصرهم بالسيوف والشعر

طوق جيش الإسلام حصن بني قريظة، ووصل في معية النبي ﷺ شاعره الكبير حسان بن ثابت، فهتف به ﷺ، وهتف بشعره فقد (قال النبي ﷺ لحسان يوم قريظة: أهجم أو هاجهم وجبريل معك)[1] فهجاهم حسان، ورماهم بأبيات كالرماح.. لابد أنه وصفهم بالخيانة والتآمر والغدر، وكفى بتلك الصفات أن تهزم صاحبها. لمع شعر حسان ولمعت السيوف، فصاحت قريظة تسأل النبي ﷺ عن مخرج لهذه الورطة وهذا الحصار..؟

قريظة تبحث عن مخرج

عرض ﷺ عليهم أمرين بدلا من اقتحام حصونهم:

الأمر الأول: أن يسلموا، فإن أبوا ذلك فعليهم بـ:

الأمر الثاني: وهو النزول تحت حكمه ﷺ، وأن يرضوا بعقوبة الخيانة التي سينزلها بهم، وهو لم يحددها ﷺ حتى الآن، وهي عقوبة يتوقع اليهود أن تكون شديدة تناسب حجم نذالتهم وغدرهم، فليست هذه هي الأولى في سجل خياناتهم، فقد (حاربت قريظة والنضير فأجلى ﷺ بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم)[2] وأعطاهم الأمان، وعفا عنهم وسامحهم، ولكنه أخذ عليهم عهداً مكتوباً.. وثيقةً بعدم الخيانة والتآمر

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٣).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨).

والغـــدر. كتب بينه وبينهم وثيقة وقعوا عليها بإرادتهـــم ودون إكراه لكنهم يهود، لكنهم عـــادوا فنقضـــوا كل ما كتبوا، وها هم أمام حصار خانق.. أمـــام خيارين لا ثالث لهما إلا المـــوت، وفجأة دوت صرخة زعيم مـــن زعماء يهود.. صرخة تصيح بأحد الصحابة واسمه «أبو لبابة» رضي الله عنه:

أبو لبابة يثير الرعب في نفوس يهود

بعدما (قذف الله في قلوبهم الرعب، واشتد عليهم الحصار، فصرخوا بأبي لبابة بـــن عبـــد المنذر، وكانوا حلفاء الأنصار «فقال أبو لبابة: لا آتيهم حتى يأذن لي رســـول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: قد أذنت لك» فأتاهم أبو لبابة فبكوا إليه، وقالوا: يا أبا لبابة، ماذا ترى، وماذا تأمرنا فإنه لا طاقة لنا بالقتال..؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه. وأمرَّ عليه أصابعه، يريهم أنما يراد بهم القتل)(١)

فـــازدادوا رعباً إلى رعبهـــم، وزلزلهم الهلع والخوف، وأدركـــوا فداحة جرائمهم، فالمجرم الموغل في الإجرام لا يدرك شناعة جرائمه إلا إذا نزل به العقاب.

مصير شنيع يفتح أذرعه القاسية لليهود، ويستشير اليهود بعضهم بعضاً، فيلمحون في الأفق ســـراباً عله يكون ماءً، فينطلق الصراخ والمناشـــدة الخائنة من الحصن مرة أخرى.. فما الذي تريده يهود هذه المرة؟

قريظة تطلب خياراً ثالثاً

اقترح اليهود الخائفون حلاً أخيراً لورطتهم التي رســـموها بأنفســـهم.. اقترحوا على النبي ﷺ حلاً ثالثاً، فهم لا يطيقون الحرب، ولا النزول على حكم النبي ﷺ بعدما مرر أبو لبابة أصابعه على حلقه، وهم أيضاً مازالوا يعاندون ويرفضون الإســـلام رغم اقتناعهم بأن محمداً ﷺ نبي مرسل.

---

(١) حديث حســـن عدا ما بين الأقواس الصغيرة، رواه ابن إســـحاق وهو في مغازي موسى عن الزهري وعن عروة مرسلاً، سيرة ابن كثير ٢-٢٢٩ وله شاهد عند أحمد من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده قال ابن كثير: إســـناده جيد. والأصوب أن فيه عمرو بن علقمة الوقاصي وهو يحتاج إلى توثيق لذلك قال الحافظ في التقريب: مقبول، أي عند المتابعة والشواهد. انظر سيرة ابن كثير ٣-٢٣٧.

لقد طلبوا منه أن يجعل حكمهم بيد حليفهم السابق.. الصحابي الجريح وسيد وأسد الأنصار (سعد بن معاذ) مهما كان هذا الحكم.

قبل ﷺ هذا الاقتراح، فأرسل في طلب سعد بن معاذ وإحضاره من خيمته داخل المسجد النبوي حيث يتم تمريضه هناك. وصل رسول رسول الله ﷺ إلى سعد، وأخبره الخبر، فأدرك سعد أن دعوته قد استجيبت، عندما ناشد ربه والدماء تشخب من عروقه فقال: (اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة)(١)

وبقي سعد صابراً في خيمته.. محتسباً ألم جرحه عند الله، حتى أتاه الخبر، وأتاه مبعوث رسول الله ﷺ يطلبه للحكم في قضية خيانة بني قريظة.

حُمل سعد على حمار وتوجه به المبعوث إلى بني قريظة، وقبل أن يصل سعد.. كان هناك اضطراب وضجيج وحركة داخل الحصن، كان هناك لغط بين اليهود، هل تشاجروا..؟

ربما.. لا أحد يعلم، وفجأة فتح باب الحصن.. فخرج منه رجال ونساء.. إنهم يتوجهون الآن نحو النبي ﷺ.

من الذين خرجوا من حصن بني قريظة

إنهم رجال ونساء يريدون الإسلام والنجاة في الدنيا والآخرة.. هؤلاء (بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ، فآمنهم وأسلموا)(٢)

وكان من بين هؤلاء ثلاثة شباب ليسوا من بني قريظة، لكنهم دخلوا حصونهم ودينهم منذ زمن هرباً من الشرك، لعل الله أن يهديهم على يد ذلك النبي المنتظر الذي تنتظره اليهود.

يروي لنا قصة هؤلاء الثلاثة رجل شاهدهم وسمعهم وعاش معهم، ثم خرج معهم من الحصن وهو يحدث من حوله.. (شيخ من بني قريظة قال: هل تدري عما كان

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٣٥٠ وقد مر معنا تخريجه تحت عنوان خيانة ثالثة.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨).

إسـلام (أسـيد، وثعلبة ابني سعية، وأسـد بن عبيد) نفر من هذل، لم يكونوا من بني قريظة ولا النضير، كانوا فوق ذاك؟

فقلت: لا. قال: فإنه قدم علينا رجل من الشام، من اليهود، يقال له: «ابن الهيبان» فأقام عندنا، والله ما رأينا رجلاً قط يصلي الخمس خيراً منه، فقدم علينا قبل مبعث رسـول الله ﷺ بسنتين، فكنا إذا قحطنا، وقل علينا المطر نقول: يا ابن الهيبان، اخرج فاستسق لنا. فيقول: لا والله، حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة. فنقول: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر أو مدين من شعير.

فنخرجه، ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا، ونحن معه، فيستسـقي، فوالله ما يقوم من مجلسـه حتى تمر الشـعاب. قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتـين، ولا ثلاثة. فحضرته الوفـاة، واجتمعنا إليه. فقال: يا معشـر اليهود، ما ترونـه أخرجني من أرض الخمر والخمير[1]، إلى أرض البؤس والجوع[2]؟ قالوا: أنت أعلم.

قال: إنما أخرجني أتوقع[3] خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلاد مهاجره، فأتبعه، فلا تسـبقن إليه إذا خرج يا معشـر يهود، فإنه يبعث بسـفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن يخالفه، فلا يمنعكم ذلك منه.

ثم مات. فلما كانت الليلة التي فتحت فيها قريظة، قال أولئك الفتية، وكانوا شباباً أحداثاً: يا معشـر يهود، والله إنه للذي ذكر لكم ابن الهيبان. فقالوا: ما هو به. قالوا: بلى واللـه، إنه لصفته. ثم نزلوا فأسـلموا، وأحرزوا أموالهم وأولادهـم وأهاليهم)[4] وانتهى كل شـيء بالنسبة لهم.. لم يعودوا أعداءً، ولم يجدوا من يعاتبهم أو يلومهم، أو حتى يذكرهم بمواقفهم اللئيمة.. انتهى كل شيء فالإسلام يمحو ما قبله.

---

(١) أي أرض الشام حيث الأنهار والأشجار والخمر.

(٢) أي المدينة قبل أن يدعو لها النبي عليه السلام بالبركة.

(٣) أي أنتظر وأتربص وآمل.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٢-٨٠: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة. عاصم تابعي ثقة عالم بالمغازي مر معنا كثيرا، وشـيخه صحابي أدرك ذلك الحدث وأسـلم وقد يكون عطية القرظي رضي الله عنه.

أدرك هــؤلاء أن دين الله أرحب من أن يحبس في حصن من حصون يهود، وأعظم من أن تســتقل به وتحتكره قبيلة بني إســرائيل.. خرج هؤلاء، فوجدوا أذرعاً مفتوحة وقلوباً بيضاء فسيحة، ووجدوا رسول الله والإسلام، وأما من أغلقوا على أنفسهم أبواب الحصن والعناد والتعصب، فقد وصل إليهم سعد بن معاذ كما طلبوا.. وصل سعد على حماره.. قطع تلك المسافة ليرضي الله ورسوله، ولتقر عينه من بني قريظة الخونة.

وصول سعد إلى حصن بني قريظة

كان وصــول ابن معاذ إلــى ذلك المكان يحبس الأنفاس.. شــاهده النبي ﷺ وهو قادم، وكان ﷺ في مسجده المؤقت قرب الحصن، فسر لمرآه، وهتف بأصحابه: (قوموا لسيدكم)[1]

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرســل رســول الله ﷺ إلى ســعد، فأتى على حمار، فلما دنا قريباً من المسجد، قال رسول الله ﷺ: قوموا لسيدكم، أو لخيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك)[2]

كل هذا يحدث ومازال أمام اليهود فرصة للحياة بالإســلام، لكنه الحســد. كيف يخضع بنو إســرائيل لعربي..؟! وكأن الإســلام والتوحيد جاءا من أجل العرب، لا من أجل الدنيا كلها، لذا اكتفت يهود بمناشــدة ســعد والتوسل إليه، لا مناشدة الله، فماذا قال سعد يا عائشة..؟

تقول رضي الله عنها إن اليهود: (قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فأتي به على حمار عليه إكاف من ليف قد حمل عليه، وحف به قومه «فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك، ومواليك، وأهل النكاية، ومن قد علمت -ولا يرجع إليهم شيئاً ولا يلتفت إليهم- حتى دنا من دورهم، التفت إلى قومه فقال: قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم».

قال أبو ســعيد: فلما طلع قال رســول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم «فأنزلوه. قال عمر: سيدنا الله. قال: أنزلوه» قال رسول الله ﷺ: احكم فيهم.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢١).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢١).

فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم.

فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله [من فوق سبع سماوات])[1]

لقد حكم سيدنا سعد بـ (حكم الله فيهم وكانوا أربعمائة)[2] مقاتل.. خانوا وتربصوا بالمؤمنين الدوائر، وتعاونوا مع الأعداء لاجتثاث دولة الإسلام ونبي الإسلام.

أخذ هؤلاء على حدة، وأخذ الأطفال والنساء على حدة، أما من أسلم فقد عاد إلى الحصن.. إلى أهله وأولاده، وإلى ماله الذي لم يمس، ثم توجه بهم المسلمون نحو سوق المدينة، وأدخل النساء والأطفال بيوت النبي ﷺ وبيوت أصحابه، وكانت إحدى نساء اليهود قد ارتكبت جريمة لم يعرف حتى الآن من الذي فعلها، والمرأة الآن موجودة عند عائشة.. تتظاهر بالمرح والسرور، وتضحك ضحكاً أثار استغراب عائشة رضي الله عنها ودهشتها في مثل هذا الظرف الذي تكون فيه المرأة مثقلة بالحزن والنواح.. غارقة بدموعها على قومها.

جمع الرجال بعيداً عن أطفالهم ونسائهم، وتم تنفيذ حكم سعد فيهم، وقرت عينه من بني قريظة، وشفى غليله من غدرهم وخيانتهم، وفجأة، وأثناء تنفيذ الحكم.. صاح صائح ينادي باسم تلك المرأة الضحوك. لقد اكتشف سرها، فماذا ستفعل، وهي:

المرأة الوحيدة التي ستقتل من بني قريظة

تقول عائشة عن تلك المرأة الغريبة: (لم يقتل من نسائهم «تعني بني قريظة» إلا امرأة واحدة، والله إنها لعندي تحدث معي، وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله.

قلت لها: ويلك، مالك؟ قالت: أُقْتَلُ.

---

(١) حديث حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة وله شواهد صحيحة، وهو حديث عائشة الذي حسنه ابن كثير من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده عنها. وأبوه يحتاج إلى توثيق، والحديث حسن بما عند البخاري وأحمد وغيرهما والزيادة بين المعقوفين حسنة عند ابن سعد ٣-٤٢٦ من طريق التمار وهو حسن الحديث ولها شاهد مرسل عند ابن إسحاق من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده.

(٢) سنده صحيح مر معنا تحت عنوان (خيانة ثالثة) من رواية الليث عند أحمد (٣/٣٥٠).

قلت: ولِمَ؟ قالت: لحدث أحدثته.

فانطُلِقَ بها، فضرب عنقها، فكانت عائشة تقول: والله ما أنسى عجباً منها، طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل)[1]

هذا هو حكم الله في هؤلاء اليهود الذين كادوا ينشرون الموت والرعب في كل شبر في المدينة لو انتصر الأحزاب.. حكم عاجل وحازم وحاسـم.. من أجله أخرج الله نبيه من بيته.. من استراحته، وأمره على الفور بالخروج لتنفيذ هذا الحكم العادل.

قـد يتعاطف أحد مع يهود بني قريظة ويقول: لمـاذا هذا الحزم مع اليهود.. لماذا كل هذه الشدة..؟

ولا أجـد جواباً أعظم من أنه حكم الله وحده لا شـريك لـه، لكن هناك إضافة يسيرة وجدتها في توراة القوم.. تخول اليهود أن يفعلوا ما يشاءون بأعدائهم متى بدرت منهم إساءة لليهود، فكيف إذا كانوا في نظرهم كفاراً كالمسلمين.. هذه الإضافة تحكم بها توراتهم في:

قصة دينة بنت يعقوب

تقول القصة إن يعقوب عليه السلام وأبناءه سكنوا مدينة «شكيم» واشتروا أراضي لهم، فخرجت دينة ذات يوم تتمشى، فرآها ابن الملك «حمور» واسمه «شكيم» فاغتصبها، ثم طلب من أبيه أن يخطبها، فتكدر يعقوب عليه السـلام لما حدث لابنته وسكت حتى جـاء أبناؤه، وقال لهم: إن الملـك عرض عليه الإقامة الدائمة والمصاهرة بين العائلتين، فتظاهـر الأبناء، وهم أعظم أنبياء اليهود، بالموافقة، لكن اشـترطوا أن يختتن كل من أراد الزواج منهم، ولما اختتن الملك وابنه ورجال شعبه، وأثناء فترة آلام الختان هجم بنو يعقوب وغدروا بالملك رغم العهود والمواثيق، وقتلوا كل ذكر، ثم نهبوا حميرهم وبقرهم وغنمهم وجميع ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في بيوتهم[2]

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ابن هشام ٣-١٤٧ وأبو داود (٢٦٧١) وغيره من طريق ابن إسحاق.. واللفظ لابن هشام والزيادة عند أبي داود: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة.. ومحمد ثقة، وشيخه تابعي ثقة معروف.

(٢) انظر تفاصيل القصة في (التوراة - التكوين - ٣٤).

إذا كانت الخيانة شريعتهم، وإذا كان هذا ما ينسبونه لأعظم أنبياء بني إسرائيل، والذين إليهم ينسب كل اليهود.. إذا كان الغدر هو مبدؤهم، كما يقول كاتب التوراة، فكيف بالرعاع والحاقدين من بني قريظة..؟! ما حجم الكارثة التي سيرتكبها اليهود في المدينة..؟

لا أحد يعلم إلا الله شناعة ما سيحدث، لكن الواقع يحدثنا، ومجازر اليهود اليومية كفيلة بالإجابة، ولا شيء يردع تهور اليهود ودسائسهم سوى السيف والقوة، وها هو السيف يبطش بهم في سوق المدينة، وها هي المرأة الخائنة تقتل في سوق المدينة، ويقتل رجال بني قريظة ومحاربوها، وقد كان هناك حدٌّ للقادر على الحرب.. يعرف به ويميز.. يذكره لنا أحد الذين نجوا من ذلك الحكم، لأنه لم يبلغ ذلك الحد.. إنه فتى صغير يدعى عطية القرظي، وقد أسلم فيما بعد وأصبح من صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم.

يقول عطية: (كنت في سبي بني قريظة، فأمر رسول الله ﷺ بمن أنبت أن يقتل، فكنت فيمن لم ينبت فتركت)[(١)]

وهكذا أهال الإسلام التراب على جسد الخيانة القرظية المتعفن، وأراح العالم منه، وبقي من بني قريظة من اختار الحياة والإسلام والهواء النقي من كل خبث ودسيسة، فعاشوا أحراراً بالإسلام، إلا من أبى.

رأى المنافقون السيوف تجتث رقاب أصدقائهم اليهود.. الذين طالما اتخذوهم كهفاً لأصنامهم ونفاقهم، فلم يطق أحد شعرائهم مشهد انهيار رفاق التآمر والخيانة فقال أبياتاً تعبر عن:

موقف المنافقين مما حدث لقريظة

أبيات من الشعر تلقي باللوم على سعد بن معاذ، الذي كان شديداً في حكمه عليهم، وما علم هؤلاء أن الله سبحانه هو الذي أمر نبيه ببني قريظة، في الوقت

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق والبيهقي ٤-٢٥ من طريق: شعبة بن الحجاج، عن عبد الملك بن عمير عن عطية. شعبة لا يسأل عنه وشيخه تابعي ثقة فقيه التقريب ٣٦٤.

الذي كان فيه ﷺ يضع سلاحه ويغتسل، ويتهيأ لأخذ بعض الراحة من عناء حرب شاقة وقاسية، وتجاهل أولئك المنافقون أن مصيرهم سيكون أسود من ليلهم لو انتصر الأحزاب واحتلوا المدينة، لكن العملاء دائما ضحاياً للغباء.

ولم ينس ذلك الشاعر المنافق مدح زعيمه عبد الله بن أبي بن سلول، الذي كان مستعدا للتحالف مع كل من على وجه الأرض إلا محمداً ﷺ وأصحابه، وفي مدحه لابن سلول سب لسعد بن معاذ، لأن ابن معاذ لم تأخذه في الله لومة لائم أو بيت شاعر.

أما عبد الله بن أبي بن سلول فقد دافع عن يهود بني قينقاع عندما غدروا بالمسلمين، ووقف معهم، وكلم النبي ﷺ فيهم ورجاه العفو عنهم، فأبقاهم ﷺ وعفا عنهم من أجله، وأمهلهم، وعن هذين الموقفين المتناقضين يقول ذلك الشاعر:

(ألا يا سعد سعد بني معاذ ... فما فعلت قريظة والنضير
لعمرك إن سعد بني معاذ ... غداة تحملوا لهو الصبور
تركتم قدركم لا شيء فيها ... وقدر القوم حامية تفور
وقد قال الكريم أبو حباب ... أقيموا قينقاع ولا تسيروا
وقد كانوا ببلدتهم ثقالا ... كما ثقلت بميطان الصخور[1]

وسواءً كانوا ثقالاً كالجبال على أرض ميطان، أو كانوا أثقل من ذلك، فقد اجتثوا من جذورهم المتعفنة، وطهر الموحدون تلك الأرض منهم ومن لؤمهم وغدرهم، وإذا كان لهم من لوم، فليلوموا أنفسهم.. هم من اختار حكم سعد، فكان لهم ما أرادوا.

أما سعد بن معاذ فقد توجه إلى المسجد.. إلى خيمته المنصوبة فيه، ولما استقر فيها توجه بدعاء كله شوق إلى الله.. دعاء يفيض بسر المؤمن إذا تألق بالإيمان، فسعد حكم على مقاتلي قريظة بالموت لا ليعيش ويتمتع بنسائهم وأموالهم، بل ليخلص مدينته منهم، أما هو فقد عشق الجنة، وتمنى على الله الجنة بجرحه ذلك.

ما هذا..؟ إنه لم يسأل الله ولا رسوله شيئاً من أرض قريظة، ولا أموالهم ولا نخيلهم ولا نسائهم، إنه يسأل الله أن يقبض روحه بجرحه حتى يكون شهيداً من شهداء الخندق، أما ما عدا ذاك فحطام، وسعد أكبر من الحطام.

---

(١) جزء من حديث صحيح رواه مسلم -المبادرة بالغزو.

أراد الشهادة لأنه ما أسلم وترك الأوثان إلا من أجل تلك العوالم الساحرة المرفرفة في الجنة.. فما هو

دعاء سعد بعد قريظة

تقول عائشة، وقد احتفظت رضي الله عنها في ذاكرتها لسعد بالكثير الجميل، فهو الذي شهر سيفه دفاعاً عنها وعن عرضها في قصة الإفك الآثمة.

تقول رضي الله عنها: (إن سعداً كان قد تحجر كلمه[1] للبرء، فدعا سعد فقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهد فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان من حرب قريش شيء، فأبقني لهم حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت قد وضعت الحرب فيما بيننا وبينهم، فافجرها واجعل موتتي فيها.

ففجر من ليلته فلم يرعهم[2] ومعهم في المسجد أهل خيمة من بني غفار إلا الدم يسيل إليهم.

فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الدم الذي يأتينا من قبلكم؟

فإذا سعد جرحه يغذو[3] دماً)[4]

ولما (ثقل حولوه عند امرأة يقال لها «رفيدة»، وكانت تداوي الجرحى، فكان النبي ﷺ إذا مر به يقول: كيف أمسيت؟

وإذا أصبح قال: كيف أصبحت؟ فيخبره.

حتى كانت الليلة التي نقله قومه فيها، فثقل، فاحتملوه، إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله ﷺ كما كان يسأل عنه، وقالوا: قد انطلقوا به.

---

(١) جرحه.

(٢) يفزعهم.

(٣) يسيل بشكل متواصل.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٢) وتابع شيخه ابن سعد (٨٤٩/٣) واللفظ له.

فخرج رسول الله ﷺ، وخرجنا معه، فأسرع المشي حتى تقطعت شسوع[1] نعالنا، وسقطت أرديتنا عن أعناقنا، فشكا ذلك إليه أصحابه: يا رسول الله، أتعبتنا في المشي؟

فقال ﷺ: إني أخاف أن تسبقنا الملائكة إليه فتغسله كما غسلت حنظلة. فانتهى رسول الله ﷺ إلى البيت وهو يغسل، وأمه تبكيه وهي تقول:

ويل أم سعد سعداً حزامة وجدّا

فقال رسول الله ﷺ: كل نائحة تكذب إلا أم سعد.

ثم خرج به. يقول له القوم أو من شاء منهم: يا رسول الله، ما حملنا ميتاً أخف علينا من سعد. فقال ﷺ: ما يمنعكم من أن يخف عليكم، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا، وقد سمى عدة كثيرة لم أحفظها، ولم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم)[2]

توجه ﷺ بصاحبه نحو البقع، فسبقه أبو سعيد الخدري وبعض الصحابة نحو البقيع لحفر القبر، وإعداد اللبنات والماء طمعاً في ذلك الأجر العظيم الذي قال عنه ﷺ: «من حفر له[3] فأجنه، أجري عليه كأجر مسكن أسكنه إياه إلى يوم القيامة»[4].

وصل النبي ﷺ وأصحابه إلى البقيع، كما قال أبو سعيد: (طلع علينا رسول الله ﷺ وقد فرغنا من حفرته، ووضعنا اللبن والماء عند القبر، وحفرنا له عند دار عقيل اليوم، وطلع رسول الله ﷺ فوضعه عند قبره، ثم صلى عليه، فلقد رأيت من الناس ما ملأ البقيع)[5].

---

(١) سيور النعال التي تمسك النعال بالأصابع.

(٢) سنده حسن رواه ابن سعد ٣-٤٢٧ أخبرنا الفضل بن دكين، أخبرنا عبد الرحمن بن سليمان بن الغسيل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد. محمود صحابي وتلميذه ثقة عالم بالمغازي، التقريب ٢٨٦ وعبد الرحمن ثقة من رجال الشيخين، وجرحه غير مفسر، اضطرب فيه النسائي فقال: ليس بالقوي، ومرة: لا بأس به، ومرة: ثقة.. أما توثيقه فمعتبر، قال ابن معين وأبو زرعة والدارقطني ثقة، التهذيب ٦-١٩٠.

(٣) أي حفر لأخيه المسلم قبراً.

(٤) سنده قوي رواه البيهقي في الشعب والسنن ٣ - ٣٩٥ من ثلاث طرق أحدها قوي عن عبد الله بن يزيد المقرئ ثنا سعيد بن أبي أيوب حدثني شرحبيل بن شريك عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت أبا رافع وهؤلاء كلهم ثقات، عدا شرحبيل فهو صدوق من رجال مسلم ٢٦٥ وصححه الإمام الألباني في الجنائز (٥١).

(٥) سنده صحيح رواه ابن سعد ٣-٤٢٤ أخبرنا عفان ويحيى وأبو الوليد الطيالسي، أخبرنا شعبة أنبأني سعد بن إبراهيم: سمعت أبا أمامة بن سهل بن حنيف يحدث عن أبي سعيد.. شعبة إمام وسعد تابعي ثقة من رجال الشيخين (التقريب - ٢٣٠) وأبو أمامة صحابي.

ولئن امتــلأ البقيع بالناس، فلقد زاحمهم فيه آخرون ليســوا من الناس.. جاؤوا كرامة لهذا المسافر الحبيب.. يشهدون توديعه والصلاة عليه ودفنه.. هبط من السماء سبعون ألف ملك فكانت الدنيا عرشاً يهتز، وسماء مفتوحة، وملائكة كالمطر.

كل ذلك حدث من أجل الفارس الجســور، والحازم الــذي لا تأخذه في الله لومة لائم، والمؤمن الطهور المسافر بالقلوب

(سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري)

ها هو جابر الأنصاري يرى ويشــاهد ويروي فيقول: (قال رسول الله ﷺ وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم: اهتز لها عرش الرحمن)[١] (اهتز عرش الرحمن لموت سعد ابن معاذ)[٢].

أمــا بعد دفنه رضي اللــه عنه، فقد وقف ﷺ يحدث أصحابــه عن هذا الراقد، الذي نحت الحب في قلوب المؤمنين، ونحت العدل على جدران قريظة، وقبل ذلك نحت الخوف في ضلوع أبي جهل وأمية.. وقف النبي عليه الســلام على قبره يحدث الدنيا وصحابته ويقول:

(هذا العبد «الصالح» الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السموات، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لم ينزلوا الأرض قبل ذلك، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه)[٣] وهي ليست ضمة عذاب و(لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا منها سعد)[٤]

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - فضائل سعد بن معاذ.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - فضائل سعد بن معاذ.

(٣) سنده صحيح كالذهب رواه ابن سعد ٣-٣٤٠ والنسائي ٤-١٠٠ من طريق عبد الله بن أدريس، حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر. نافع ثقة ثبت فقيه وعبيد الله ثقة ثبت قدمه أحمد على مالك في نافع، وابن إدريس ثقة فقيه عابد من رجالهما ٢٩٥.

(٤) سنده صحيح رواه عقبة بن مكرم (سير أعلام النبلاء ١-٢٩١) حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن سعد ابن إبراهيم عن نافع عن صفية بنت أبي عبيد عن عائشة. صفية تابعية ثقة (التقريب - ٧٤٩) ونافع مر معنــا وســعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ثقة فاضــل، التقريب ٢٣٠ وابن أبي عدي: محمد بن إبراهيم ثقة، التقريب ٤٦٥ .

وهي من الآلام التي تمر بالمؤمن وغيره مثل ألم خروج الروح، وألم القيام من القبر، وألـم الموقف والورود على النار، لكنها تخفف على المؤمن النقي، وتشـــدد أحياناً حتى يتطهر من بقية ذنوبه، فينجو برحمة الله من النار أعاذنا الله منها.

ودع ﷺ ســعداً وبشر أحبابه بأنه من أهل الجنة، ثم انصرف وهو مثقل بالحزن، وانصرف الصحابة بقلوب حزينة وعيون تذرف الدموع على سعد، وذكريات سعد.

بكى المهاجرون والأنصار، وغمر الأوس حزن أســود على ســيدهم، ومرت الأيام طويلة وثقيلة على أم سعد، وعلى أهل بيت سعد.. كان رضي الله عنه سيفاً لا يفل على الباطل.. في كل وقت، وفي كل مكان، ومن مثل سعد..؟

هو الذي ســافر إلــى مكة معتمراً، وهنــاك وحول الكعبة كاد يفتــك بأبي جهل، ولمــا حاول منعه أمية هدده بالموت.. يهــدد قادة مكة في عقر دارهم!! ويهددهم بقطع تجارتهم إن لم يتعقلوا ويدعوه وشأنه.

أما في بلده.. في المدينة فكان يهدد زعيم المنافقين بالموت دفاعاً عن عرض النبي ﷺ.. كان مســتعداً للاجهاز على رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول.. رضي من رضي وسخط من سخط.

هذا هو ســعد في مواجهته لجبهتي الشــرك والنفاق، أما فــي مواجهته لليهود، فقــد قال في قريظة كلمته.. كان رضي الله عنه يفعل ذلك لله وحده، ودفاعاً عن دينه ورسوله ﷺ، ودعوته التي يحاول المشركون والمنافقون واليهود القضاء عليها.

ســتة أعوام فقط من إنجازات سعد وولائه وبرائه لله.. ستة أعوام فقط اهتز لها العرش، فرحم الله سعداً ما أعظمه، ورضي عنه وأرضاه وحشرنا وإياه مع نبينا ﷺ.

ســافر ســعد إلى الجنة، لكنه ترك لليهود وغيرهم درســاً، ولحق بسعد بن معاذ فــارس آخر، وعظيــم آخر.. لحق به المجاهــد العابد، الذي كاد ينســى زوجته وماله والدنيا بأســرها ليتفرغ للعبادة.. العبادة فقط.. مات الذي أعاده النبي ﷺ إلى سنته وزوجته، والذي كان في حياته دروس، وفي مماته دروس.

مات عثمان بن مظعون

فبكته حبيبته، وبكته نساء، وبكاه الرجال، وسال دمع النبي ﷺ على خدي عثمان وهـو يقبّله بحزن يملأ صـدره.. مات ذلك العابد فكان مشـهد جنازته والأحباب من حولها مشهداً يذيب الصخر والقلوب، ويذيب النواح.

ها هو ﷺ وقد (دخل على عثمان بن مظعون يوم مات فأحنى عليه[1] كأنه يوصيه، ثم رفع رأسـه، فرأوا فـي عينيه أثر البكاء، ثم أحنى عليه ثانية، ثم رفع رأسـه فرأوه يبكي، ثم أحنى عليه الثالثة، ثم رفع رأسه وله شهيق، فعرفوا أنه قد مات، فبكى القوم. فقال النبي ﷺ: مه، إنما هذا من الشيطان، فاستغفروا الله[2].

ثم قال: اذهب عنها أبا السائب، فلقد خرجت ولم تلتبس منها بشيء)[3]

كانت عائشـة هنـاك.. حزينة مثل بقية الحاضرين.. شـاهدت دموعه ﷺ وهي تسيل على خدي عثمان بن مظعون رضي الله عنه، فقالت: (رأيت رسول الله ﷺ يقبّل عثمـان بن مظعون وهو ميـت «وهو يبكي، وعيناه تهرقان» فرأيت دموعه تسـيل على خدّيـه)[4] أي على خدي عثمان.. حزناً على ذلك الصاحـب الزاهد.. القائم الصائم، الذي سافر عن الدنيا نقياً دون أن تلوثه.

شهد النبي ﷺ لعثمان بالنقاء والصفاء من الدنيا، فهل يعني ذلك أن نقول عن كل من كان مثله: إنك من أهل الجنّة.

---

(١) أي انحنى عليه وأكب.

(٢) طالبهم عليه السـلام بالاسـتغفار لا من أجل البكاء، لأنه بكى قبلهم وهو لم يحرم البكاء على الميت لكنه نهـى عـن رفع الصوت نواحاً على الميت ويطلق عليه بكاء أيضاً، لكنـه بكاء محرم كما مر في البكاء على حمزة رضي الله عنه.

(٣) سـنده قوي وقد ضعفه الشـيخ شعيب حفظه الله في السير (١/١٥٦) بل جعله واهياً ومتنه منكراً، ولعله اعتمد على قول الإمام الهيثمي: ولم أعرفهما، يقصد شـيخ الطبراني راوي الحديث ووالد شـيخه، لكن نظرة سريعة على التقريب والتهذيب تغني عن ذلك، فشيخه عبد العزيز بن عمر بن مقلاص ثقة فاضل، مـلازم لحلقـة أبيه الثقة، ووالده كان يدارس العلماء ومن تلاميذه: أبو حاتم وأبو زرعة والعقيلي. قال أبو حاتم: صدوق ٥-٣٩١.

(٤) صححه الترمذي ٢-١٣٠ والبيهقي وله شاهد بإسناد حسن في «مجمع الزوائد» ٣-٢٠.

النبي ﷺ يبكي.. يشــهد لعثمان بالزهد، وزوجته تشــهد له بالصيام والقيام. ألا يكفي ذلك للجزم بدخوله الجنة؟.. لا

لا يحكم لأحد - حتى عثمان - بالجنّة

كيــف..؟ أمر مفزع، ومخيــف..!! إذا لم يحكم لعثمان فلمــن يحكم..؟ العواطف مرة أخرى تثور وتســتنكر وتحتج؟ لكن الإسلام والتوحيد لا ينطلقان من العواطف ولا الأهواء، وإلاّ لأصبح لكل فرد دين، لأن كل فرد عالم من العواطف والأهواء..

الإسلام يعتني بالعاطفة.. يهذّبها.. ينقّيها من الشوائب، ثم يطلقها أطيافاً جميلةً في الأجواء، وحبنا لشخص لا يعني أن الحق معه أينما اتّجه.

الكل يشــهد لعثمان بن مظعون بالصلاح فــي دنياه، لكن النبي ﷺ غضب عندما حكم لـه بالجنة، لأن في ذلك تجاوزاً لمسؤوليات الإنسان.. فيه تزييف وادّعاء

عندمــا قدم عثمــان بن مظعون إلى المدينة مع المهاجريــن.. أقبل عليهم الأنصار بالأيــدي والقلــوب والبيوت.. تنازع الأنصار.. كلٌّ يريد أن يفــوز بأخ لـه من المهاجرين يســكن معه فــي بيته، ولم ينته ذلك النــزاع الحبيب إلاّ بالقرعــة، وعندما وصل دور القرعة إلى عثمان بن مظعون.. جعلته القرعة من نصيب بيت زوج أم العلاء، وهو رجل من الأنصار رضي الله عنهم، ولما أصابه المرض.. مرّضته أم العلاء، وشــهدت له عند رسول الله ﷺ بالصلاح، لكنها شهدت له بشيء أغضب النبي ﷺ.

يا أم العلاء ماذا قلت عن عثمان رضي الله عنه..؟

تقــول رضي الله عنها: (إن عثمان طار لهم في الســكنى حين قرعت الأنصار على سكنى المهاجرين، فاشتكى عثمان عندنا، فمرضته حتى توفي، وجعلناه في أثوابه، فدخل علينا النبي ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك قد أكرمك الله.

فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ قلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن؟

قال: أما هو فقد جاءه والله اليقين، والله إني لأرجو لـه الخير، وما أدري -والله- وأنا رسول الله ما يفعل بي.

قالــت: فوالله لا أزكي بعده أحداً. قالت: فأحزنني ذلك، فنمت، فأريت لعثمان بن مظعون عيناً تجري، فجئت رســول اللــه ﷺ، فأخبرته، فقال: ذلك عمله)[1] الصالح.. تقبّله الله منه وجزاه الجنّة بما عمل، فأوحى بهذه البشرى إلى نبيه ﷺ، لكن قبل ذلك لا أحد يدري عن مصيره، وهل هناك فوق قول النبي ﷺ: وما أدري والله وأنا رســول الله ما يفعل بي.

إذاً فلا شــأن لأحد بما بعد الموت، ولا بالنوايا، ولا يكفي ظاهر العمل للحكم على الإنسان بأنه من أهل الجنّة أو النار، حتى في مدح الإنسان لأخيه وهو حي.. يأمر ﷺ بعدم الاندفاع، ففي أحد الأيام (أثنى رجل على رجلٍ عند النبي ﷺ فقال: ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك.. مراراً،

ثم قال ﷺ: من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه)[2]

هاهــو عثمان بن مظعون رضــي الله عنه.. ها هم يحملونه نحــو البقيع، ومعهم رســول الله ﷺ بعد أن صلّوا عليه، وقد بيّن ﷺ لأصحابه الطريقة الأفضل للمشــي مع الجنازة، فقال: (الراكب يســير خلف الجنازة، والماشي يمشي خلفها وأمامها، وعن يمينها، وعن يسارها، قريباً منها)[3]

وكان ﷺ يقــول: (إذا رأى أحدكم الجنازة، فإن لم يكن ماشــياً معهم فليقم «حين يراهــا»)[4]، وقال جابر رضي الله عنه: (قام النبــي ﷺ وأصحابه لجنازة يهودي حتى توارت)[5]، (فقلنا: يا رســول الله، إنها يهودية، فقال: إن الموت فزع، فإذا رأيتم الجنازة فقوموا)[6] (فقيل: إنه يهودي، فقال: أليست نفساً)[7]. ثم إن الأمر بالقيام لم يدم، فقد أمر الله نبيّه بالقعود.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٨٧).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٦٢).
(٣) سنده صحيح رواه أهل السنن عن زياد بن جبير حدثني أبي عن المغيرة.جبير ووالده ثقتان.
(٤) حديث صحيح رواه مسلم (٩٥٨) والزيادة له.
(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٠).
(٦) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٠).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (١٣١٢).

قال عليّ رضي الله عنه: (رأينا رسول الله ﷺ قام فقمنا وقعد، فقعدنا)[1]

وفي جنازة عثمان رضي الله عنه لم يكن رسول الله ﷺ قائماً ولا جالساً.. كان ﷺ يشارك في دفن صاحبه بيديه، ويفعل شيئاً يدلّ على مكانة عثمان في نفسه ﷺ، فبعد أن قال: (بسم الله وعلى سنّة رسول الله)[2] يقول أحد الصحابة: (لما مات عثمان بن مظعون أخرج بجنازته فدفن، أمر النبي ﷺ رجلاً أن يأتيه بحجر، فلم يستطع حمله، فقام إليه رسول الله ﷺ وحسر عن ذراعيه[3]، كأني أنظر إلى بياض ذراعي رسول الله ﷺ حين حسر عنها، ثم حملها، فوضعها عند رأسه وقال: أتعلم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي)[4].

كل هذا الحب لعثمان بن مظعون.. كل ذلك البكاء وتلك الدموع، ومع ذلك فلم يزد ﷺ على وضع حجر كبير ليعرف به قبر أخيه عثمان عندما يزور مقبرة البقيع، فقط ليعرف قبره.

أما من تغريه عواطفه ونفسه بتزيين قبر حبيبه أو حبيبته بالرخام أو الجص أو البناء أو القباب، فقد قال ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: (لا تدع تمثالاً إلاّ طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلاّ سويته)[5]، ولأن (رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها)[6] فقد (نهى رسول الله ﷺ أن يجصّص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه)[7] لأن فتح باب البدعة لا يعني أبداً مرونة في العقيدة.. هو تمييع للعقيدة.. تمزيق لها.. يعني التواءً نحو بدايات الشرك، والإسلام هروب.. كله هروب من الشرك وانحرافاته.

نهى ﷺ (أن يكتب على القبر شيء)[8]، والكتابة قد تكون الكتابة في نظر البعض شيئا يسيراً، لكنه ستفضي لا محالة إلى كتابة المدائح، والأشعار، والآيات، والمبالغات، وأشياء تجعل من القبور تحفاً أو متاحف أو معارض، أو مزارات لذاتها.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - (نسخ القيام للجنازة).

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود (٣٢١٣) حدثنا محمد بن كثير ومسلم بن إبراهيم، حدثنا همام، عن قتادة عن أبي الصديق عن ابن عمر. أبو الصديق تابعي ثقة اسمه: بكر بن عمرو التقريب ١٢٦ وهمام بن يحيى ثقة التقريب ٥٧٤ وقد توبع قتادة عند الترمذي وابن ماجه.

(٣) في الحديث بعد هذه الكلمة: قال المطلب: قال الذي يخبرني ذلك عن رسول الله ﷺ.

(٤) سنده حسن رواه أبو داود من طريق: كثير بن زيد المدني، عن المطلب عن أحد الصحابة (٣٢٠٦) المطلب صحابي وكثير ثقة وجرحه لا ينهض أمام توثيقه، التهذيب ٨-٤١٤.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم (الأمر بتسوية القبور).

(٦) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٨).

(٧) حديث صحيح رواه مسلم (٩٧٠).

(٨) صححه الإمام الألباني في أحكام الجنائز (٢٠٤) لكنه لم يجب عن عنعنة أبي الزبير.

ولما ذكرت أم سـلمة رضي الله عنها للنبي ﷺ ما رأته في الحبشة من نقوش جميلة وصور عجيبة، داخل كنيسـة هناك يسـمونها «مارية»؟ قـال ﷺ: (أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح، بنوا على قبره مسـجداً، ثم صوّروا فيه تلك الصور، أولئك شـرار الخلق عند الله)[1]، وقال ﷺ: (لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[2] لعنهم الله رغم أن بعضهم كان يريد تكريم نبيّه بإقامة ذلك المسجد، أو المعبد أو الكنيسة..

لعنهـم الله لأنهم اسـتمدّوا العقيدة من العواطف.. مـن التخاريف.. من غلوّهم وتطرّفهم في أنبيائهم، والعقيدة وحي متى ما خالطها غير الوحي فسدت، وحب النبي وتكريمـه لا يكون بالغلـوّ والتطرّف، بل بتنفيذ ما جاء به ذلـك النبي.. بحفظه ونقله بأمانة دون زيادة أو نقصان، لأن الزيادة دين بشري، والنقصان تشويه للوحي، والزيادة والنقصان أورام خبيثة محتقنة بالكفر والشـرك والبدع، وما جاء ﷺ إلاّ لاسـتئصال تلك الأورام واجتثاث الشـرك وجذوره، والإسلام جاء ليبتدع الإنسان ويبدع في شؤون الدنيا زراعةً وصناعة وتجارةً.. مستمداً ذلك الإبداع وموجهاً بالوحي النقي، فإذا ابتدع الإنسـان في الدين والدنيا تمزق بين اتجاهين، فإمـا أن يكون متطرفاً دينياً، أو يكون رقمـاً فـي آله لا ضمير لها ولا قيم، واليهود ممزقون، فمـا هي حالهم الآن بعد موت سعد بن معاذ.

اليهود بعد موت سعد بن معاذ

أشـد رعباً وخوفاً من قبل، إلا من آمن منهم وامتلأ قلبه برحابة الإيمان وراحته، فالسـيف الذي تركه سـعد لا يزال محمولاً بكف فارس آخر، وهو على أتم الاستعداد لأي خيانة جديدة مهما كان حجمها.

لكن ماذا عن رؤوس الفتنة، ومحرضي الأحزاب (سلام بن أبي الحقيق) و(حيي بن أخطب) الذي أخذ على نفسه عهداً بمعاداة النبي ﷺ ومحاربته وعناده ما تردد الهواء في صدره.. رغم معرفته وتأكده من نبوته..؟

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٤١).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٣٠).

يبـدو أن حيـي بن أخطب قد قتل مع من قتل من بني قريظة، أما سـلام بن أبي الحقيـق فقد ورط الأحزاب، ثم خانهم جميعاً وهرب، بل خان يهود قريظة ثم انسـل كالحية إلى (حصن له بأرض الحجاز)[1] في خيبر بالتحديد، فهل سـيفلت من العقاب الذي حل ببني قريظة..؟

إنه يسـتحق أكثر من عقـاب، فهو الذي خطـط وتآمر وحـرض ونقض العهد، ولما اشـتبك أعداؤه وحلفـاؤه ترك الجميع وهرب، وهو في حصنه الآن.. بين نسـائه وأصدقائه.. يشـرب ويتنعم ويحلم بدمـاء محمد ﷺ وأصحابه.. يحلم بانهيار دولتهم في أقرب فرصة.

لكـن النبي ﷺ لن يترك هـذا المجرم وأحلامه.. إنه فيروس خطير يسـري في العقول، وينتشـر في الهواء، ويلوث الحياة، لذلك فقد أصدر النبي ﷺ أمراً بالقضاء على تلك الآفة.. أصدر أمراً بـ:

قتل سلام بن أبي الحقيق

وكان أكثر المتحمسين لذلك فرسان الخزرج، الذين أرادوا منافسة إخوانهم الأوس في نصرة الله ورسوله، وفي مقدمتهم الشاب عبد الله بن عتيك.

يقـول البـراء بن عازب: (بعث رسـول الله ﷺ إلى أبي رافـع اليهودي رجالاً من الأنصـار، فأمـر عليهم عبد الله بن عتيك، «عبد الله بـن عتبة في ناس معهم»، وكان أبو رافع يؤذي رسـول الله ﷺ، ويعين عليه، وكان فـي حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشـمس وراح الناس بسرحهم، فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكـم، فإنـي منطلق ومتلطف للبواب لعلـي أن أدخل. فأقبل حتـى دنا من الباب، «فانطلق رجل منهم فدخل حصنهم.

قـال: فدخلت في مربط دواب لهم، وأغلقـوا باب الحصن، ثم إنهم فقدوا حماراً لهـم فخرجوا «بقبس» يطلبونه، فخرجت فيمن خرج، أريهم أنني أطلبه معهم، فوجدوا الحمار، فدخلوا» «فخشـيت أن أعرف، فغطيت رأسـي ورجلي كأني أقضي حاجةً، ثم نادى صاحب الباب: من أراد أن يدخل فليدخل، قبل أن أغلقه».

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٣٩).

ثـم تقنع بثوب كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس فهتف به البواب: يا عبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب. فدخلت، فكمنت «في مربط حمـار عند باب الحصن» فلما دخل الناس أغلـق الباب، ثم علق الأغاليق[1] على وتد، «ورأيـت صاحب الباب حيث وضع مفاتيح الحصن في كـوة، فأخذته ففتحت به باب الحصـن» فقمت إلى الأقاليد[2] فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسـمر عنده، وكان في علالي[3] له، «فتعشـوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهبت سـاعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم» فلما ذهب عنه أهل سـمره «هدأت الأصوات، ولا أسـمع حركة، خرجت» صعدت إليه «في سـلم» فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل، قلت: إن القوم نذروا بي[4] لم يخلصوا إلي حتى أقتله. فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم «قد طفئ سـراجه» وسـط عياله لا أدري أين هو من البيت، فقلت: يا أبا رافع. فقال: من هذا؟

فأهويت نحو الصوت[5] فأضربه ضربة بالسـيف وأنا دهش، فما أغنيت شـيئاً، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، «كأني أغيثه».

فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ «مالك يا أبا رافع.. وغيرت صوتي. فقال: ألا أعجبك لأمك الويل».

«قلت: ما شأنك». فقال: لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني قبلُ بالسيف.

«فعمدت له» فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، «فصاح، وقام أهله، ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مستلق على ظهره» ثم وضعت ضبيب[6] السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره «ثم تحاملت عليه حتى قرع العظم» «ثم أنكفئ عليه حتى سـمعت صـوت العظـم» فعرفت أني قتلته، فجعلـت أفتح الأبواب باباً بابـاً، حتى انتهيت إلى

---

(١) أي المفاتيح وهي ما يغلق بها الباب.
(٢) أي المفاتيح أيضاً.
(٣) غرفة.
(٤) أي إن علموا بي وأنذر بعضهم بعضاً.
(٥) توجهت نحو مصدر الصوت.
(٦) ربما يعني حرف حد السيف.

درجةٍ له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي «فانخلعت رجلي» فعصبتها بعمامة، «ثم أتيت أصحابي أحجل[1]، فقلت لهم: انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ، فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية»

ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك، قام الناعي على السور. فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز.

«فقمت أمشي ما بي قلبة[2]، فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﷺ» فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء[3] فقد قتل الله أبا رافع.

فانتهيت إلى النبي ﷺ، فحدثته، «فبشرته». فقال لي: ابسط رجلك. فبسطت رجلي، فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط)[4].

أكرم الله عبدالله بن عتيك بتلك المسحة، بعد أن مسح عن وجه الأرض ذلك العفن المسمى «سلام بن أبي الحقيق».. كان عبد الله بن عتيك قلباً من حديد، وأعصاباً من فولاذ.. نشر الرعب في ذلك الحصن، وفي قلب كل يهودي.

لقد اهتز كل شيء حول المدينة وتزلزل، أما المدينة فهي الحضن الدافئ، والأمن الحاني الذي يقصده من استبد بهم الخوف، ويأوي إليها من تطارده وحوش الهموم والقلق من سوء المصير.

أحد الهائمين على وجوههم.. الموغلين في الشرك والدماء.. أحد الذين قدسوا صنم اللات وعبدوها وسدنوها، وحاربوا الإسلام ونبيه ﷺ والمسلمين من أجلها.. داهية تتضاءل أمامه الصعاب، وتتفرج لحيلته المضايق.. وقع في ورطة أدهى منه، فلم يجد سوى الإسلام ومحمد ﷺ مخرجاً منها.. هذا الداهية الثقفي المنحدر من جبال الطائف التي تضيق باللات.. يدعى (المغيرة بن شعبة) جمع الشجاعة والدهاء، عمه زعيم الطائف واسمه (عروة بن مسعود الثقفي) وقد كلفه دهاء المغيرة وحيلته الشيء الكثير، وأوقعه في ورطة كان المخرج منها:

(١) يرفع رجلاً ويقف على الأخرى من العرج.
(٢) أي أنه لم يشعر بالألم لشدة ما هو فيه من الأمر.
(٣) أي أسرعوا.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٣٩) والزوائد له في (٤٠٤٠) و(٣٠٢٢).

إسلام المغيرة بن شعبة

فقد سافر المغيرة وهو مشرك مع قوم مشركين، ويبدو أنه قد صدر من هذه المجموعة ما أهان المغيرة وأغضبه، فغلا الانتقام والغضب والدهاء في رأسه، فأخذ أموالهم وتركهم نهباً لذئاب الصحـــراء وطيورها الجارحة، وترك ديتهم لعمه عروة، وعندما أحس بضيق الدنيا في وجهه.. أبصر طريق الفرج مفتوحا على بساتين محمد ﷺ وأنهاره العذبة.

يقول أحد الصحابة: (كان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء)[1] فالله طيب لا يقبل إلا طيباً، والغدر والخيانة ليست من صفات المؤمنين.

لم يقره النبي ﷺ على قتله وسلبه لأولئك القوم رغم أنهم كانوا مشركين، والفرق بين ما فعله المغيرة وما فعله عبد الله بن عتيك بسلام بن أبي الحقيق هو أن سلاماً كان رأس فتنة يحرض على حرب المدينة ويخطط للغدر بأهلها، ثم خان المسلمين والمشركين معاً، وهرب إلى حصنه في أرض خيبر وكأنه لم يفعل شيئاً.

إن خطــر أمثال ابن أبي الحقيق أشـــد من خطر جيـــش بأكمله، وخيانته لا يمكن أن تتوقـــف مادام يعتبرها هو وأتباعه ديناً يتعبد الله بفعله، وإذا كان الطائف قد ضاق بالمغيرة، فمكة تضيق الآن بداهية آخر، وبشجاع آخر وهو الآن يهرب منها. إنه:

عمرو بن العاص يهرب من مكة

كَلَّ دهاؤه وتلاشى كالسراب.. تأمل المكان الذي أوصله إليه شركه ودهاؤه فوجده بعيداً جداً عن المنطق، وأدرك أن بســاطة هـــذا النبي وروعة دينه أعظم من أي دهاء، وأقوى من أي كيد.

توجه عمرو بن العاص وهو الرأس في قومه إلى حيث يلتجئ الضعفاء والمساكين.. توجه محمولاً بالعناد والحيرة إلى الحبشة حيث يلتجئ جعفر بن أبي طالب وأصحابه رضـــي الله عنهم بعيداً عن أيـــدي قريش.. ركب عمرو بن العاص ســفينة قذفته في

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

أرض الحبشة، وأقام هناك إقامة متواضعة مقارنة بإقامة المؤمنين الذين يحظون بحب وحماية النجاشـي ملك الحبشـة رضي الله عنه، وفي أحد تلك الليالي الحبشـية لمح عمـرو بن العاص جعفراً رضي الله عنه فلحق به، وحدثه حديثا يقصه بنفسـه علينا فيقـول: (لما انصرفنا من الأحزاب عن الخنـدق.. جمعت رجالا من قريش كانوا يرون مكاني ويسـمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله اني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوا كبيرا منكرا، وأني قد رأيت رأيا فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟

قال: رأيت ان نلحق بالنجاشـي فنكون عنده، فان ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرف، فلن ياتينا منهم إلا خير. فقالوا: إن هذا الرأي.

فقلـت لهـم: فاجمعوا له ما نهدي له، وكان أحب ما يهـدى إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدما كثيرا، فخرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، فدخل عليه ثم خرج من عنده.

فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي فسألته إيـاه، فأعطانيه فضربت عنقه فإذا فعلـت ذلك رأت قريش اني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه فسـجدت له كما كنت اصنع. فقال: مرحبا بصديقي أهديت لي من بلادك شيئا؟ قلت: نعم، أيها الملك قد أهديت لك أدما كثيرا.

ثم قدمته إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

فغضب ثم مد يده فضرب بها انفه ضربة ظننت انه قد كسـره، فلو انشـقت لي الأرض لدخلـت فيها فرقـا منه، ثم قلت: أيها الملك والله لـو ظننت انك تكره هذا ما سألتكه.

فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله..؟!قلت: أيها الملك أكذاك هو؟

فقال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: فبايعني له على الإسلام. قال: نعم.

فبسط يده وبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي ثم خرجت)[1].

كتم عمرو إسلامه، وأشار للنجاشي بعدم إفشائه، لكن هذا الدين ملأه حماساً، وعندما رأى جعفر لم يصبر عن إعلان أخوته وإسلامه.

يقول عمرو: (فلما كان ذا عشية لقيته في السكة، فنظرت خلفه، فلم أر خلفه أحداً، فأخذت بيده، فقلت: تعلم أني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فغمزني، وقال: أنت على هذا.

وتفرقنا، فما هو إلا أن أتيت أصحابي، كأنما شهدوني وإياه، فما سألوني عن شيء حتى أخذوني فصرعوني، فجعلوا على وجهي قطيفة، وجعلوا يغمونني بها، وجعلت أخرج رأسي أحياناً حتى انفلت عرياناً، ما علي قشرة، ولم يدعوا لي شيئاً إلا ذهبوا به، فأخذت قناع امرأة عن رأسها فوضعته على فرجي، فقالت لي: كذا. وقلت: كذا -كأنها تعجبت مني-، وأتيت جعفراً فدخلت عليه بيته، فلما رآني قال: ما شأنك؟

قلت: ما هو إلا أن أتيت أصحابي، فكأنما شهدوني وإياك، فما سألوني عن شيء حتى طرحوا على وجهي قطيفة، غموني بها، أو غمزوني بها، وذهبوا بكل شيء من الدنيا حولي، وما ترى علي إلا قناع حبشية، أخذته من رأسها. فقال جعفر: انطلق.

فلما انتهينا إلى باب النجاشي، نادى: ائذنوا لحزب الله. وجاء آذنه، فقال: إنه مع أهله. فقال: استأذن لي عليه. فاستأذن له عليه، فأذن له، فلما دخل قال: إن عمراً قد ترك دينه واتبع ديني. قال: كلا!!

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٤-١٩٨ والحارث، زوائد ٢-٩٣٣ حدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس عن أبي حبيب بن أبي أوس حدثني عمرو. يزيد تابعي ثقة، وراشد قال عنه ابن معين: ثقة يروى عنه المصريون، الجرح والتعديل ٣-٤٨٦، أما حبيب فقال الحافظ في الإصابة ٢-١٥: ذكره ابن يونس فيمن شهد فتح مصر فدل على أن له إدراكاً ولم يبق من ثقيف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم وشهدها فيكون هذا صحابياً وقد ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

قال: بلى. فدعا آذنه فقال: اذهب إلى عمرو، فقال: إن هذا يزعم أنك تركت دينك واتبعت دينه. فقلت: نعم.

فجاء إلى أصحابي حتى قمنا على باب البيت، وكتبت كل شيء حتى كتبت المنديل، فلم أدع شـيئاً ذهب إلا أخذته، ولو أشـاء أن آخذ من أموالهم لفعلت. ثم كنت بعد من الذين أقبلوا في السفينة مسلمين)[1].

ها هي سـفينة أخرى محملة بالإيمان.. قادمة مـن اليمن تحمل رجالاً يقصدون المدينة، لكن ربانها لم يكن بالمهارة المطلوبة، وبدلاً من أن تسلمهم المياه إلى ساحل على قارة آسيا.. قذفتهم على إحدى شواطئ أفريقيا، لكن لا بأس، فإن في الحبشة نسيماً عطراً يدعى النجاشي رضي الله عنه، وفيها أيضاً أحبة لرسول الله ﷺ لعل أشهرهم ابن عمه جعفر بن أبي طالب وزوجته الشـابة المجاهدة الصابرة (أسماء بنت عميس) رضي اللـه عنها.. ها قد نزل أهل اليمن من السـفينة.. تعالوا لنقترب منها ومنهم.. نتعرف على هذه الوجوه التي أرهقها البحر والسـفر، وأبحر بها الحب والإيمان.. كان من بين هؤلاء المسافرين الذين زادوا على الخمسين ثلاثة أخوة من اليمن الطيب:

أبو رهم وأبو بردة وأبو موسى في الحبشة

يقول أصغرهم سناً وهو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: (بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحـن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخـوان لي، أنا أصغرهم أحدهما: أبو بردة، والآخر أبو رهم إما قال: في بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، ووافقنا جعفر بن أبي طالـب وأصحابه عنده. فقال جعفر: إن رسـول الله ﷺ بعثنـا هاهنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيمـوا معنا، فأقمنا معه)[2] على أرض الحبشـة الرحبة.. فـي ضيافة ملكهم الكريم العادل (أصحمة) النجاشي، وعلى تلك الأرض الطيبة.

---

(١) سنده حسن رواه البزار. زوائد - ٢-٢٩٧: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا ابن عون، عن عمير بن إسحاق، حدثني عمرو بن العاص. وقد مر معنا الحديث في المجلد الأول. عمير حسن الحديث.. قال ابن معين ثقة، وقال مرة: ليس بشـيء أي قليل الحديث، وقال: النسائي: لا بأس به. وعبد الله بن عون ثقة ثبت فاضل، ومعاذ ثقة متقن من رجال الشيخين وشيخ البزار ثقة ثبت يعرف بـ(الزمن).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣١٣٦).

لم تصفُ الحياة للمؤمنين، لكنها كانت بعيدة عن مخالب قريش على كل حال، كان من بين المهاجرين فتاة مؤمنة.. تمرد إيمانها على زعامة أبيها وسلطته، فأخذت بيد زوجها إلى أول مركب وأبحرت إلى الحبشة.. هذه الفتاة هي بنت زعيم قريش ومكة.. بنت أبي سفيان، واسمها «رملة» وتكنى بـ (أم حبيبة).

أم حبيبة تبكي في الحبشة

حزينة على أرض الحبشة.. بعيدة عن مكة والمدينة.. لم يكن البعد وحده الذي يعصف بقلب أم حبيبة، فزوجها الآن طريح الفراش مريض، وقد اشتد به المرض، وعندما أحس بأنامل الموت تدنو منه وتدب في أوصاله.. همس بمن حوله برسالة إلى النبي ﷺ.

رسالة قبل الموت

بعث بها عبيد الله بن جحش الذي هاجر مؤمناً[1] إلى أرض الحبشة.. إلى النبي ﷺ يوصيه بأحب الناس إلى قلبه.. يوصيه بالحبيبة أم حبيبة «رملة بنت أبي سفيان».

تقول عائشة رضي الله عنها: (هاجر عبيد الله بن جحش بأم حبيبة بنت أبي سفيان، وهي امرأته إلى أرض الحبشة، فلما قدم أرض الحبشة مرض، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى رسول الله ﷺ)[2] فوصلت الوصية، فبعث ﷺ الرد مع أحد المؤمنين القادمين على هذا القارب الذي يتهادى فوق مياه البحر نحو سواحل الحبشة.. إنه يرسو الآن حاملاً لأم حبيبة البشرى والعزاء، فقد انقضت أيام حدادها وأحزانها، وجاء صاحب رسول الله ﷺ يخطبها.

---

(١) روي أن عبيد الله مات نصرانياً على أرض الحبشة مرتداً عن الإسلام، لكنني لم أجد حديثاً صحيحاً يثبت ذلك، إنما وجدت العكس وهو الحديث التالي والله أعلم.

(٢) سنده صحيح رواه ابن حبان (الزوائد - ٣١٢) أخبرنا ابن خزيمة، حدثنا محمد بن يحيى الذهلي، حدثنا سعيد بن كثير بن عفير، حدثنا الليث عن ابن مسافر عن ابن شهاب، عن عروة عن عائشة. عروة وابن شهاب الزهري مرا معنا كثيراً. أما ابن مسافر فاسمه: عبد الرحمن بن خالد بن مسافر - أمير مصر - قال ابن يونس وتلميذه الذهلي: ثبت. وقال العجلي والدارقطني: ثقة التهذيب ١٦٢/٦ والبقية أئمة ثقات.

استبشـــرت أم حبيبة بهذا الخبر، وفرح النجاشي، فقد وجدها فرصة ولا أنسب ليقدم هدية للنبي ﷺ:

النجاشي يهدي للنبي ﷺ مهر أم حبيبة

مهرها كله.. هدية من النجاشـــي للنبي ﷺ، ثم أرســـلها مع صحابي كريم اسمه (شرحبيل بن حسنة)

عـــن ذلك تقول أم حبيبة رضي الله عنهـــا: (أنها كانت تحت عبيد الله بن جحش «وكان أتى النجاشـــي» فمات بأرض الحبشـــة «وأن رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة وإنها بأرض الحبشـــة» فزوجها النجاشـــي النبي ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف «ثم جهزها من عنده» وبعث بها إلى رســـول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة «وجهازها كله من عند النجاشي»)[1]

عبـــرت أم حبيبة الحزن والغربة والبحر تحمل مهرها والفرح، فقد جعلها الله من أمهات المؤمنين.. من ســـيدات نساء العالم والجنة.. من حبيبات محمد ﷺ، وصار لها بدل الهجرة هجرتان، وأزاح ذلك العرس ما بها من شقاء وغربة وأحزان.

وصلت رملة ففرح بها النبي ﷺ.. تشاركه حياته ومعاناته وأفراحه، أما والدها أبو سفيان فيبدو أن الخبر أفرحه، لذلك لم يصدر منه ما ينبئ عن استنكاره لذلك الزواج، فهو يعتبر النبي ﷺ زعيماً لا مثيل له، وإنه لشرف أن يكون صهراً لهذا الزعيم.

ولئن كان زواج النبي ﷺ من رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها قد أبهج والدها، إلا أن النبي ﷺ قد عزم على ما يكدر صفوه، ويضيف إلى هزيمته عند الخندق هزيمة أخرى، فـ:

---

(١) ســـنده صحيـــح رواه أبو داود (٢١٠٧) واللفظ له وأحمد ٦-٤٢٧ والزوائـــد له: حدثنا ابن المبارك، حدثنا معمـــر، عن الزهري عن عروة عن أم حبيبة. عروة والزهري ثقتان مرا معنا كثيراً، ومعمر ثقة ثبت فاضل - التقريـــب (٥٤١) ولخص الحافظ القول في ابن المبارك: ثقة، ثبت، فقيه، عالم، جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير - التقريب (٣٢٠).

النبي ﷺ يريد أداء العمرة

وهذا من حقه، ومن حق أي عربي، بل من حق أي إنسان أن يزور بيت الله ويطوف به، لكن قريشاً تفكر بطريقة مختلفة، فهي لا تنظر إليه حقاً من حقوق خصمها، الذي يجب عليها أن تؤمن له الحماية ما دام على أرضها، وهذه من صفات قريش الكريمة العتيدة المحسوبة لها، لكنها تنظر إلى هذه العمرة على أنها هزيمة يلحقها محمد ﷺ وأصحابه بها كسابقاتها.

كيف يطوف هو وأصحابه وقد طردوهم بالأمس من مكة..؟ كيف يأتون مكة دون إذن قريش.. أين مكانة قريش وأصنامها..؟

سؤال ضاقت به مكة، أما رسول الله ﷺ فلم يبال برأي قريش.. لقد أراه الله في منامه رؤيا، ورؤيا الأنبياء وحي، وقد قص النبي ﷺ على أصحابه تلك الرؤيا، وبشرهم بأنهم سيطوفون ببيت الله بعد طول غياب عنه.. بعد خمس سنوات من الحرمان.

يقول عمر بن الخطاب: إن النبي ﷺ (كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به)[1] فتهللت وجوه الصحابة، وأفرحهم الخبر، وأعدوا للسفر عدته، وأطلق اسم (الحديبية) على تلك العمرة فيما بعد. ف:

متى كانت عمرة الحديبية

وماذا جرى على أرض الحديبية البعيدة عن المدينة، والتي تقترب من مكة بمسافة ٢٢ كيلاً؟

يقول ابن عمر: (إن رسول الله ﷺ خرج معتمراً)[2] و(كانت الحديبية سنة ست بعد مقدم النبي ﷺ المدينة في ذي القعدة)[3]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١ - ٢٧٣٢) وهو حديث طويل.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠١).

(٣) حديث حسن رواه البيهقي ٤-٩١ لكنه مرسل أرسله نافع ويقويه ما ذكره الحافظ في الفتح: وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند حسن عن ابن عمر قال: كانت عمرة القضية في ذي القعدة سنة سبع) وقد ثبت أن عمرة القضاء بعد عمرة الحديبية بعام.

ويؤكد أنس أن (عمرة الحديبية في ذي القعدة)[1] ولم تقتصر دعوته ﷺ على أصحابه، بل دعا الأعراب المتناثرين حول المدينة لمصاحبته، علَّ العمرة تذيب ما ببعضهم من جلافة وجفاء، لكن بعض تلك الجلافة كان صدأً لا يذيبه سوى اللهب.

موقف بعض الأعراب من الخروج للعمرة

موقف كالعار، فبعض الأعراب تصحر من رأسه حتى قدميه، فهم يتلهفون للنهب والسلب والغنيمة الباردة، وحساباتهم لا تعدو ذلك، وبعضهم وإن ادعوا الإسلام، إلا أن أرقام قريش ما زالت تخيفهم، وحشود الأحزاب مازالت في نظرهم تكمن خلف الأكمات والهضاب، أما نصر الله ووعده، والثقة برسوله ﷺ ووحي الله له، فلا رصيد لها في تلك النفوس المتكلسة.

إنه كسراب الصحراء الممتد داخلهم. لقد ظنوا أن قريشاً ستفني محمداً ﷺ وأصحابه، فلا داعي للمجازفة في معركة معروفة النتائج سلفاً، ولذا فقد ادعوا أنهم مشغولون بأموالهم وأهلهم وشؤون دنياهم، وطلبوا من النبي ﷺ أن يستغفر لهم ويسامحهم ويعفيهم من المسير معه نحو مكة. لكن الوحي نزل يفضح سوء ظنهم بالله ورسوله، ويعري حقيقتهم، ويكشف عارهم..

يقول العليم الخبير: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾[2]

آيات عظيمات.. آيات تخترق أعذار بعض الأعراب الواهية، لتنزع منها جبنهم وأسرار تخلفهم، ولابد أن المنافقين شاركوهم الرأي والتخلف.. ولذا لم يلح النبي ﷺ

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٧٧٨).

(٢) سورة الفتح: الآيات ١١-١٤.

عليهم، فلا خير فيهم ولا في صحبتهم.. إنه ليس بحاجتهم عند جلاد السيوف والعراك، فكيف يكون اليوم بحاجتهم وهو لا يريد سوى السلام وزيارة بيت الله وأداء العمرة فيه، فقد (خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد القتال، وساق معه الهدي سبعين بدنة)[1] ساقها معه من المدينة لينحرها لله في مكة، فكما أن الصلاة لا تجوز إلا لله وحده لا شريك له، فكذلك النحر.. لا يجوز لأحد كائناً من كان، إلا الله وحده لا شريك له. يقول سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾[2]

ولم يأخذ ﷺ الهدي معه فقط، بل أخذ السلاح أيضاً.. لم يأخذه ليقاتل به بل احتياطاً، فالطريق طويلة وشاقة، وقد تباغت قريش أو أعوانها من هنا أو هناك.

خرج ﷺ من المدينة، وكان عدد الذين خرجوا مع النبي ﷺ يصل إلى ألف وأربعمائة.. توجه إليهم النبي ﷺ بقلبه وحديثه، وبشرهم ببشرى تتطامن أمامها كنوز الدنيا ومساحاتها وألقابها.

جابر بن عبد الله رضي الله عنه أحدهم.. أحد الذين شملتهم تلك البشرى.. يحدث الدنيا فيقول: (قال رسول الله ﷺ يوم الحديبية: أنتم خير أهل الأرض، وكنا ألفاً وأربعمائة)[3].

ويقول أحد هؤلاء وهو البراء رضي الله عنه: (كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة)[4]

وقال كل من معقل بن يسار والمسيب بن حزن رضي الله عنهما: (ألفاً وأربعمائة)[5] وقد يكون العدد أكبر من ذلك، أي أن عدد الصحابة الذين خرجوا معه ﷺ قد يبلغ ألفاً وخمسمائة صحابي. قال أحد أبناء الصحابة الثقات واسمه: سعيد بن المسيب بن حزن عندما قال له أحد أصحابه: (بلغني أن جابر بن عبد الله يقول: كانوا أربع عشرة

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق سماعا ومن طريقه أحمد ٣-٣٢٣ حدثنا الزهري عن عروة، عن المسور ومروان.. وهذا سند البخاري في روايته لقصة الحديبية.
(٢) سورة الكوثر: الآيات ١-٣.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٤).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٧٧).
(٥) مسلم الإمارة وابن سعد (٢/٩٩) واللفظ له.

مائة؟ قال: نسي جابر كانوا ألفاً وخمسمائة)[١] (وهَمَ جابر رحمه الله وهو حدثني أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة)[٢]

توجهوا بمطاياهم وقلوبهم خلف رسـول الله ﷺ نحـو بيت الله الكريم، وبعد أن قطعوا مسافة توقف بهم النبي ﷺ في مكان يدعى «ذو الحليفة» وكان:

التوقف بذي الحليفة

ضرورياً لأداء العمرة، فالعمرة باختصار: طواف حول الكعبة، ثم مشي بين جبلي: الصفـا والمروة، وقبل ذلك إحـرام من مكان يقال له الميقـات. وقد حدد ﷺ لكل بلد ميقاتهـا، بل حدد لجهات الدنيا كلها أماكن تحرم منهـا، فميقات أهل المدينة هو «ذو الحليفـة» يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن النبـي ﷺ وَقَّتَ لأهل المدينة: ذا الحليفة، ولأهل الشـام: الجحفة، ولأهل نجد: قرن المنـازل، ولأهل اليمن: يلملم، هن لأهلهـن، ولكل آت عليهن من غيرهن «من غيـر أهلهن» فمن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ[٣] حتى أهل مكة من مكة)[٤].

والإحرام هو أن ينوي المعتمر أو الحاج بدء ممارسـة العمرة، أو الحج، أو العمرة والحـج معاً، والأفضل أن يكـون لباس المحرم عبارة عن قطعتـين من القماش فقط، تسـمى إحداهما إزاراً وتلف حول أسـفل الجسم، وأما الأخرى فتسـمى رداءاً وتلف حول أعلى الجسـم، ولكن بطريقة خاصة حتى نهاية الطواف، وتسـمى هذه الطريقة بـ (الاضطبـاع) والاضطباع هو: أن يلف الرداء حول أعلى الجسـد مع تغطية الكتف الأيسر، وكشف الكتف الأيمن، أي إدارة الرداء من تحت الإبط الأيمن.

وهناك ملابس حرم النبي ﷺ لبسها على المعتمر والحاج منها: القميص والعمامة والسراويل والبرانس وهي مثل الملابس المغربية فيها غطاء للرأس والأحذية التي تغطي الكعبـين. حيث قال: (لا يلبس المحرم القميص ولا العمامة ولا السـراويل ولا البرنس

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٣) وخليفه (٨١) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٣) والبيهقي واللفظ له (٩٧/٤).

(٣) أي من كانت بلده أقرب من جميع المواقيت إلى مكة فيحرم من مكانه.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (١٥٣٠).

ولا ثوبا مسه زعفران ولا ورس ولا الخفين إلا لمن لم يجد النعلين فإن لم يجدهما فليقطعهما أسفل من الكعبين)[1]

وصل ﷺ إلى الحديبية، فقلد ما معه من الهدي، أي علق على رقابها شيئاً لتعرف أنها هدي سيذبح في مكة لله، وأشعر الهدي وعلمه بعلامة يعرف بها أنه هدي لله، وأحرم بالعمرة.

يقول أحد الصحابة: (خرج النبي ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، حتى إذا كان بذي الحليفة، قلد الهدي، وأشعره، وأحرم بالعمرة)[2] (وصلى بها)[3].

وأحرم معه بقية الصحابة رضي الله عنهم إلا صحابياً واحداً اسمه: (الحارث بن ربعي) ويعرف بـ «أبي قتادة» رضي الله عنه، في هذه الأثناء انطلق أحد الصحابة رضي الله عنهم مسرعاً نحو مكة لأداء العمرة ولشيء آخر، فقد صدر:

أمر النبي ﷺ برصد تحركات قريش

وقد اختار ﷺ لهذه المهمة رجلاً مناسباً اسمه: بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي، فخزاعة وكعب قبيلة واحدة.

يقول أحد الصحابة: (فلما أتى ذا الحليفة، قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بالعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ)[4] وسار بشر يرصد تحركات قريش ويجمع أخبارها، أما أبو قتادة فلم يأمره ﷺ بالإحرام، لكنه أمره بمهمتين:

مهمتان لأبي قتادة

الأولى: جمع زكاة بعض المسلمين في الجوار.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٥- ٢١٨٧

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٦٩٤) (١٦٩٥).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٨) (٤١٧٩)

الثانية: التصدي لسرية معادية من المشركين في مكان بين المدينة ومكة، ويبدو أنه قريب من ساحل البحر الأحمر ويسمى: (غيقة).

انطلــق أبو قتادة ومــن معه ينفذون أوامــر نبيهم ﷺ، وفي الطريــق رأى هؤلاء الصحابة شــيئاً لا يقدر على نيله إلا أبــو قتادة، أما هم فلا يجوز لهم ذلك، بل اكتفوا بتبادل الابتسامات والضحكات. فماذا فعل أبو قتادة ولماذا يضحك أصحابه؟

أبــو قتادة رضي الله عنه يقــول: (انطلقنا مع النبي ﷺ عــام الحديبية، فأحرم أصحابه ولم أحرم)[1] وكان سبب عدم إحرام أبي قتادة هو ما يقوله أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (بعث رســول الله ﷺ أبا قتادة الأنصاري على الصدقة، وخرج رسول الله ﷺ وأصحابه محرمين حتى نزلوا بعســفان)[2] لكن خبراً وصل إلى النبي لله ﷺ جعله يوجه أبا قتادة إلى مكان يقال له: (غيقة) حيث تتواجد هناك قوة من المشــركين تستعد للانقضاض على النبي ﷺ وأصحابه، وهي قريبة من ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة.

يقــول أبو قتادة: (انطلقنا مع النبي ﷺ عام الحديبية فأحرم أصحابه ولم أحرم، فأُنبئنا بعدوٍ «بغيقة» فتوجهنا نحوهم)[3] (فقال ﷺ: خذوا ســاحل البحر حتى نلتقي. فأخذوا ســاحل البحــر، فلما انصرفوا أحرمــوا كلهم إلا أبا قتادة لــم يحرم)[4] وقد تركوا (النبي ﷺ بالقاحة)[5] وهو مكان بين مكة والمدينة، (فبينما هم يســيرون إذ رأوا حُمرُ وحش)[6] (فلما رأوه تركوه)[7] (فجعل بعضهم يضحك إلى بعض)[8] (وأنا مشغول أخصــف نعلي، فلم يؤذنوني به وأحبوا لو أني أبصرته فالتفت فأبصرته)[9] (وأنا رجل

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢). ومسلم (١١٩٦).

(٢) رواه البــزار ٢-١٨زوائــد، وابن حبان ٩-٢٨٨ من طريق عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن عبيد الله بن عمر عن عياض بن عبد الله بن سعد عن أبي سعيد. عياض تابعي ثقة - التقريب ٤٧٣ وعبيد الله مثله وتلميذه ثقة كذلك.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢). ومسلم (١١٩٦).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤). ومسلم (١١٩٦).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٣).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤). ومسلم (١١٩٦).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢). ومسلم (١١٩٦).

(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٠٧).

حلٌّ على فرسي، وكنت رقاءً على الجبال، فبينا أنا على ذلك إذ رأيت الناس متشوقين لشيء، فذهبت أنظر، فإذا هو حمار وحش، فقلت لهم: ما هذا؟ قالوا: لا ندري. قلت: هو حمارٌ وحشيٌّ؟ فقالوا: هو ما رأيت)[1] (واستعنت بهم، فأبوا أن يعينوني)[2].

نهض أبو قتادة (فركب فرساً يقال له: الجرادة)[3] ويقول: (فقمت إلى الفرس فأسرجته، ثم ركبت، ونسيت السوط والرمح، فقلت لهم: ناولوني السوط والرمح. فقالوا: لا، والله لا نعينك عليه بشيء. فغضبت، فنزلت، فأخذتهما، ثم ركبت، فشددت على الحمار، فعقرته)[4] (فأتيت إليهم فقلت: قوموا فاحتملوه. قالوا: لا نمسه. فحملته حتى جئتهم به، فأبى بعضهم، وأكل بعضهم. فقلت: أنا أستوقف لكم النبي ﷺ)[5] (فطلبت النبي ﷺ، أرفع فرسي شأواً وأسير شأواً، فلقيت رجلاً من بني غفار في جوف الليل. قلت: أين تركت النبي ﷺ؟ قال: تركته بـ: تعهن[6] وهو قائل السقيا[7]. فقلت: يا رسول الله، إن أهلك «أصحابك» يقرؤون عليك السلام، ورحمة الله، إنهم قد خشوا أن يقتطعوا دونك فانتظرهم «ففعل»[8].

قلت: يا رسول الله، أصبت حماراً وحشياً وعندي منه فاضلة، فقال للقوم: كلوا، وهم محرمون)[9] لأنهم لم يشاركوا في صيده.

شارك ﷺ أصحابه في تلك الأكلة، حيث يقول أبو قتادة رضي الله عنه: (وخبأت العضد معي، فأدركنا النبي ﷺ، فسألناه عن ذلك، فقال: معكم منه شيء؟ فقلت: نعم.

فناولته العضد فأكلها حتى نفدَها وهو محرم)[10] ثم مكث ﷺ وأصحابه بانتظار أصحاب أبي قتادة الذين كانوا يسيرون ويتساءلون (أنأكل لحم صيد ونحن محرمون)[11]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢١).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٠٧).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).
(٦) مكان بين مكة والمدينة.
(٧) أي أنه سيقيل في مكان يقال له السقيا.
(٨) ما بين الأقواس الصغيرة عند البخاري (١٨٢٢).
(٩) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٢١).
(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٧٠).
(١١) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤).

لقد (أكلوا، فندموا، فلما أدركوه)[١] ﷺ ســـألوه فقال ﷺ: (أمنكم أحد أمره أن يحمل عليهـــا أو أشـــار إليها؟ قالوا: لا. قال: فكلـــوا ما بقي من لحمهـــا)[٢]. (كلوا فهو طعم أطعمكموه الله)[٣]

فأكل الصحابة واطمأنت قلوبهم بالحلال، ثم واصلوا مع رســـول الله ﷺ المســـير نحو مكة لأداء العمرة في بيت الله الحرام، حتى وصلوا إلى مكان يقال له (عســـفان) عندها قرر النبي ﷺ:

التوقف في عسفان ووصول الجاسوس

توقف ﷺ للاستراحة فالسفر شاق وطويل، والليل يخيم بهدوء على تلك الأرض، والصحابة ينســـابون في عالم النوم بعد أن فرغوا مـــن مناجاة خالق الكون في صلاة خاشعة، وفجأة تطاير النوم عنهم من هنا وهناك، فقد تساقطت قطرات المطر عليهم فأيقظتهم، وأفرحتهم، فهم بحاجة إلى الماء كحاجتهم إلى النوم.

وفي الصباح المنعش أحب ﷺ بحاجة أصحابه إلى أن يتمتعوا بالمطر والتوحيد معاً، لذلك فقد تحدث إليهم بعد أن أدوا صلاة الفجر.. تحدث إليهم عن المطر بلغة كالمطر.

يقول زيد بن خالد الجهني وهو أحد الصحابة الذين أصابهم ذلك المطر: (خرجنا مع رســـول الله ﷺ عام الحديبية، فأصابنا مطر ذات ليلة، فصلى لنا رســـول الله ﷺ الصبـــح، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: الله ورســـوله أعلم، فقال: قال الله: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بي:

فأما من قال: مطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله فهو مؤمن بي.

وأما من قال: مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي)[٤]

إن الكواكـــب لا تضر ولا تنفع، والتعلق بها شـــرك.. إنها خلـــق من خلق الله، وقد سخر الله هذه النجوم ليستغلها الإنسان.. ليستفيد منها.. ليكتشفها ويطوعها ويتفكر

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٤٧). ومسلم (٧١).

فيها.. أما المشـركون المتخلفون، فقد أهانوا عقل الإنسـان وانحطوا به إلى مسـتوى يخضع فيه لجلاميد الصخور ورماد اللهب.

نزل القرآن ليحرر هذا العقل المكبل بالخرافة والخوف.. ليطلقه في الكون.. نزل القرآن يقدم النجوم والشـمس والقمر والبحار، وكل ما في السـموات والأرض هدايا للإنسان.. يستمتع بها.. ينعم بها.. يستغلها في رفاهية البشرية جميعاً.. القرآن يقدم الكون للإنسان في علبة هدايا.. يقدمه بصورته الحقيقية التي لا تعني سوى التوحيد.. ها هو القرآن يخاطب الإنسان ليحرره من الخوف والخرافة فيقول:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾[2].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾[3].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[4].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾[5].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[6].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[7].

القرآن يجعل من الإنسان سيداً في هذا الكون. فلماذا يتنازل عن سيادته ليصبح عبداً لحجر أو نهر أو شمس أو حطب متقد. هذا هو الفرق بين الإنسان موحداً سيداً في الكون، وبين الإنسان مغلولاً بالشرك والأوهام.

---

(١) سورة الحج: الآية ٦٥.
(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٢.
(٣) سورة النحل: الآية ١٤.
(٤) سورة النحل: الآية ١٤.
(٥) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.
(٦) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.
(٧) سورة الجاثية: الآية ١٣.

المطـــر من عند الله، والنجوم من عند الله، ومتى ما اعتقد المســـلم أن نجماً ينزل المطر أو يمنعه، فقد اعتقد شركاً.

حفر الصحابة تلك الكلمات في صدورهم، وأشـــرقت الشمس منتعشة بالتوحيد والمطر، وأقبل راكب من بعيد.. إنه معروف لدى الصحابة ولدى رســـول الله ﷺ، فهو الفارس الذي بعثـــه النبي ﷺ ليرصد تحركات مكة، ويقدم تقريراً مفصلاً عن قريش وموقفها من عمرة النبي ﷺ.

قريش تتحرك لمواجهة النبي ﷺ

ترجل الفارس عن مطيته وسلم على رسول الله ﷺ وأصحابه فردوا عليه السلام، وكان ذلك في مكان يقال له (غدير الأشـــطاط) قريب من عسفان نحو مكة، حيث كان النبي ﷺ (بعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه)[1] الذي أرســـله، وهو بشر بن ســـفيان ولما (لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجت معها العوذ المطافيل[2]، قد لبسوا جلـــود النمور، يعاهدون الله أن لا تدخلهـــا عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم)[3] (إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت ومانعوك)[4] (قال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين ســـائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلـــوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش، والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة)[5]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٩).

(٢) الأطفال والنساء.

(٣) حديث حســـن رواه ابن إســـحاق ومن طريقه أحمد ٤-٣٢٣ وغيره: حدثني الزهري عن عروة عن المســـور ومروان وسند ابن إسحاق هو سند البخاري.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٩).

(٥) حديث حسن رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٤-٣٢٣ وهو الحديث السابق.

كلمات مملوءة حسـرة وألماً.. حلف بعدها ﷺ أن لا يترك الجهاد لنشر رسالة الله التي بعثه الله بها إلى جميع الناس، حتى ينتشـر في كل الأرض أو تنقطع سـالفته، أي يفارق رأسـه جسـده، أو تفارقه روحه.. عزم حديد وبأس شديد، لكن دون تهور.. دون انفراد بالرأي والقرار. لقد التفت ﷺ بحديثه إلى أصحابه الذين تجشموا معه الصعاب والألم، وخاطبهم كعادته، فرأيهم له وزنه، وقراراهم له قيمته.. شـاورهم وهو الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا حقاً، لتكون الشورى بعده واجبة على كل قائد وإمام:

مشاورة النبي ﷺ لأصحابه في شن الحرب

استشـار ﷺ أصحابه كلهم دون اسـتثناء.. دون تعيين، ثم أصغى جيداً. بعد أن قال: («أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟ فإن يأتونا كان الله عزّ وجلّ قد قطع عيناً من المشـركين، وإلا تركناهم محروبين»..؟

قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه.

قال ﷺ: «امضوا على اسـم الله»)[1] بعد أن أخذ برأي صاحبه الحكيم رضي الله عنـه.. مضى النبي ﷺ وأصحابه، وكان هناك من يراقبهم من بعيد، ولما صار النبي ﷺ بين ضجنان وعسفان تسللت سرية خالد بن الوليد، وكان خالد من القادة الأفذاذ، الذين لا يتهورون بإلقاء جيوشهم في أتون محرق من الحماس والإيمان بقيادة النبي ﷺ، لذلك فكر بطريقة ينقض فيها على المسلمين وهم غافلون.

شـاهد خالد بن الوليد المؤمنين وهم يؤدون الصلاة.. لا يلتفتون.. لا يكلم بعضهم بعضاً.. ينسـابون في خشوع غامر مع ربهم.. لا يشتغلون بشيء أثناء قيامهم وركوعهم وسجودهم، إلا التوجه نحو الله. هذا التوجه الذي أفرح خالداً والمشركين معه.

لقد وجدوا في هذا الخشـوع ثغـرة ينقضون منها على جمـع المؤمنين ليفنوهم، ولذلـك اتخذ خالد بن الوليـد قراراً بالهجوم على جيش الإسـلام وهم يؤدون صلاة

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٨).

العصر، لكن شيئاً حدث، وغير من طريقة الصلاة في تلك الظروف، التي يحملق فيها الرعب من كل مكان على المؤمنين.

كيف صلى النبي ﷺ العصر

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (نزل ﷺ بين ضجنان وعسفان)[1] (فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم)[2].

ثـم قالوا: (إن لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأبكارهم، وهي «العصر»، فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة)[3]. (فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح: فصففنا خلفه صفين، ثم ركع فركعنا جميعاً.

ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا.. جلس الآخرون، فسجدوا في مكانهم. ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء.

ثم ركع ﷺ فركعوا جميعاً، ثم رفع ﷺ فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه.. والآخرون قيام يحرسونهم.

فلما جلس ﷺ جلس الآخرون، فسجدوا فسلم بهم، ثم انصرفنا.

فصلاها ﷺ مرتين، مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم)[4] عندها أدرك المشركون أن لا سبيل إلى المؤمنين حتى في الصلاة، فالصلاة وإن كانت خشوعاً واتجاهاً إلى الله

---

(١) حديث صحيح رواه النسائي (٣/١٧٤) والترمذي (٣٠٣٥) (والطبري في التفسير - من طريق عبد الصمد، حدثنا سعيد بن عبيد الهنائي حدثنا عبد الله بن شقيق حدثنا أبو هريرة.. عبد الله بن شقيق تابعي ثقة وتلميذه سمع منه وهو صدوق.. وعبد الصمد بن عبد الوارث صدوق انظر التقريب (١/٣٠١ - ٤٢٢ - ٥٠٧).

(٢) سنده صحيح رواه أحمد (٤/٥٩) والطبراني (٥/٢١٣) (٥/٢١٦) وغيرهم من طريق منصور بن المعتمر عن مجاهد عن أبي عياش رضي الله عنه ومنصور ثقة ثبت لا يدلس - التقريب (٢/٢٧٧).

(٣) هو حديث أبي هريرة السابق.

(٤) هذا حديث أبي عياش الزرقي السابق.

بكل المشاعر، إلا أنها لا تعني التسمر. فالنبي ﷺ كان يفعل أشياء كثيرة أثناء صلاته، فهو يحمل الحســن رضي الله عنه في صلاته، وينزله إذا أراد الركوع، ثم يحمله ثانية إذا أراد القيام(١)

وتقول عائشــة رضي الله عنها: (كان رســول الله ﷺ يصلــي والباب عليه مغلق، فجئت، فاستفتحت، فمشى ففتح لي ثم رجع إلى مصلاه)(٢)

وكان ﷺ يرد السلام وهو يصلي، ولكن بالإشارة بالكف، أو بالإصبع.

يقول صهيب الرومي رضي الله عنه: (مررت برسول الله ﷺ وهو يصلي، فسلمت عليه، فرده إشارة بإصبعه)(٣)

وهــا هو يتدخل فــي صلاته ليفك اشــتباكاً بين طفلتين. يقول أحــد الصحابة: (جــاءت جاريتان من بني عبد المطلب اقتتلتــا، فأخذهما، ففرغ بينهما فنزع إحداهما من الأخرى)(٤) ويقول أنس: (إن النبي ﷺ كان يشير في الصلاة)(٥)

وتقول عائشــة: إنها كانت تنام وأرجلها أمام النبي ﷺ وتقول: (لقد رأيت رســول الله ﷺ يصلي وأنا معترضة بين يديه، فإذا أراد أن يســجد غمز رجلي فضممتها إليّ ثم يسجد)(٦).

إذا كان ﷺ يفعل ذلك وهو في ســاعات الســلام.. في داخل بيته، فساعات حمل السلاح في ساحات الحرب والخوف أدعى وأكثر ضرورة.

---

(١) مر معنا عند الحديث عن الحسن رضي الله عنه.

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود (٩٢٢) وغيره من طريق بشر بن المفضل حدثنا برد بن سنان عن الزهري عن عروة عن عائشة. بشر ثقة ثبت وبرد صدوق انظر التقريب.

(٣) ســنده صحيح رواه أبو داود (٩٢٥) وغيره من طريق بكير عن ابن عمر عن صهيب والنســائي في الكبرى من طريق الليث عن أبي الزبير عن جابر وهذا السند صحيح.

(٤) سنده صحيح رواه أبو داود (٧١٦) وغيره من طريق منصور بن المعتمر عن الحكم عن يحيى بن الجزار عن أبــي الصهباء عن ابن عباس. وأبــو الصهباء ثقة وليس كما توحي ترجمته في التقريب فقد وثقه العجلي لفظياً وأبو زرعة وجرحه غير مفسر.

(٥) حديث صحيح -السابق (١/١٧٧).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري وأبو داود واللفظ له (٧١٢).

فهم المشـــركون أن الصلاة ليست تســـمراً وتحنيطا للأعضاء، بل خشوع لا ينافي الشعور بما يجري حول الإنسان.

أدرك المشـــركون ذلك، وكان ﷺ أذكى مما تصوروا، فقد بث عيونه ترصد الأرض المحيطة بالمؤمنين، أما خالد فقد انســـحب إلى مكان يقـــال له (كراع الغميم) وجاءت عيـــون النبي ﷺ تخبره فقال لأصحابه: (إن خالد بن الوليد بالغميم، في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين.

فوالله ما شـــعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق نذيراً لقريش وسار النبي ﷺ)[1]، وســـارت من حوله عيونه، ثم جاءته أخبار خالد مرة أخرى، فأمر بتغيير طريق الســـير.. كل ذلك لأنه لم يخرج للقتال، بل خرج لزيـــارة بيت الله وأداء العمرة، لكن قريشـــاً تبحث عن المتاعب، بينما كان ﷺ يتجنبها، حتى لقد سلك من أجل تجنب الحرب طريقاً وعراً شـــاقاً كي يتفادى مواجهة قريش، وفي ذلك الطريق الوعر لاحت ثنية صعبة التجاوز. لكن النبي ﷺ بشر الصحابة أن:

من عبر الثنية غفر الله له

يقـــول أبو ســـعيد الخدري رضي الله عنـــه: (خرجنا مع النبـــي ﷺ حتى إذا كنا بعســـفان قال لنا رســـول الله ﷺ: «إن عيون المشركين الآن على ضنجان، فأيكم يعرف طريق ذات الحنظل»؟

فقال رســـول الله ﷺ حين أمسى: هل من رجل ينزل فيسعى بين يدي الركاب[2]؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله.

فنزل، فجعلت الحجارة تنكبه[3]، والشجر يتعلق بثيابه. فقال رسول الله ﷺ: «اركب. ثم نزل آخر، فجعلت الحجارة تنكبه، والشجر يتعلق بثيابه، فقال رسول الله ﷺ: اركب. ثم وقعنا على الطريق حتى سرنا في ثنية يقال لها (الحنظل) فقال رسول الله ﷺ: «ما مثل هذه الثنية إلا كمثل الباب الذي دخل فيه بنو إسرائيل» قيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾[4].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(٢) أي يمشي أمام الناس.
(٣) تضرب رجله وتصيبه.
(٤) سورة البقرة: الآية ٥٨.

لا يجوز[1] أحد الليلة هذه الثنية إلا غفر له. فجعل الناس يجوزون، وكان آخر من جاز قتادة بن النعمان في آخر القوم. فجعل الناس يركب بعضهم بعضاً، حتى تلاحقنا، فنزل رسول الله ﷺ ونزلنا)[2].

كان ﷺ يتابع هذا التسـابق نحو المغفرة بفرح، وبعد أن عبر المؤمنون كلهم وتجاوزوا تلـك الثنية الصعبة.. رأى ﷺ أعرابياً لا يبالي بالبشـرى، ولا وزن للمغفرة عنده.. أكلت الدنيا قلبه، فخرج مع المؤمنين عله يحظى ببعض غنيمة من حطام الدنيا.. رأى ﷺ ذلك الحطام الأعرابي، فالتفت إلى أصحابه وبشرهم بالمغفرة ولم يبشر ذلك الحطام بشيء.

يقول جابر رضي الله عنه: (قال رسول الله ﷺ: من يصعد الثنية «ثنية المرار» فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل.

فـكان أول من صعدهـا خيلنا، خيل بني الخزرج، ثم تتام الناس، فقال رسـول الله ﷺ: وكلكم مغفور له، إلا صاحب الجمل الأحمر. فأتيناه، فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله، لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يسـتغفر لي صاحبكم، وكان رجل ينشـد ضالة له)[3] (وإذا هو أعرابي جاء ينشد ضالة له)[4] فضل معها، وكان أضل منها..

لا أدري مـا فعلـت به الدنيا، ولا ما فعلـت ضالته..؟ فقد تركه الصحابة وشـأنه، وتوجهوا خلف رسول الله ﷺ الذي انحدر من تلك الثنية على أرض يقال لها (الحديبية) وعندما لامست أخفاف ناقة النبي ﷺ «القصواء» أرض الحديبية توقفت فجأة وبركت.

القصواء تبرك في الحديبية

والصحابـة يصيحون بها.. يحثونها على النهـوض ويقولون: حل.. حل.. لكنها لم تنهض، ولم تتزحزح عن مكانها، فقد (سـار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط

---

(١) يتجاوز ويعبر.

(٢) سـنده صحيح رواه البزار (الزوائد - ٣٣٧٢) حدثنا إسـحاق بن بهلول، حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، عن هشـام بن سـعد، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسـار عن أبي سعيد. شيخ البزار ثقة تاريخ بغداد ٦-٣٦٦ وشيخه صدوق من رجال الشيخين وزيد وعطاء تابعيان ثقتان وهشام أثبت الناس عن زيد كما قال أبو داود التهذيب ١١-٣٩.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم -صفات المنافقين.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم - صفات المنافقين.

عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل.. حل. فألحت[1]، فقالوا: خلأت[2] القصواء. فقـــال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبســـها حابس الفيل»)[3] حبسها الله الذي حبس الفيل عن دخول مكة لهدم الكعبة. ثم قال ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها)[4] (والله لا تدعوني قريش اليوم، إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)[5] (ثم زجرها، فوثبت، فعدل عنهـــم حتى نـــزل بأقصى الحديبية على ثمـــد قليل يتبرضه الناس تبرضـــاً)[6] أي نزل في مكان اجتمع فيه ماء قليل يستسقي منه الناس تبرضاً، أي بأكفهم، وكان فيها بئر يقول عنه البـــراء: (الحديبية بئر، فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة، فجلس النبي ﷺ على شـــفير البئر فدعا بماء، فمضمض ومج في البئر)[7] بعد أن اســـتنزفه (الناس حتى نزحوه، وشـــكى إلى رســـول الله ﷺ العطش)[8] لكن النبي ﷺ قال للناس: (انزلوا، فقالوا: يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رســـول الله سهماً من كنانته)[9] (ثم أمرهم أن يجعلـــوه فيه)[10] (فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القلب، فغرزه فيه، فجاش الماء بالرواء، حتى ضرب الناس عنه بعطن)[11] أي بركت حوله رواحلهم، فارتوت عروقهم، واطمأنت نفوســـهم، وشكروا خالقهم على هذه النعمة العظيمة، والمعجزة التي أجراها ســـبحانه على يد نبيه ﷺ، الذي توقف في هذه الأرض بوحي من الله، وهو الآن يســـتدعي أحد أصحابه واســـمه (خراش بن أمية الخزاعـــي) ليكلفه بمهمة خطيرة، وقد اختاره ﷺ من قبيلة خزاعة (وكانت خزاعة في عيبة[12] رسول الله ﷺ مسلمها، ومشركها،

---

(١) بقيت في مكانها.
(٢) حرنت.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(٤) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).
(٥) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٧٧).
(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(٩) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).
(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(١١) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١). وأحمد ٣٢٣ واللفظ له.
(١٢) يثق بهم ويثقون به.

لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة)[1] (كانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة)[2] فهم موضع ثقة عند الطرفين، ولم يكتف ﷺ باختيار رسـوله بدقة، بل اختار له راحلة مميزة.. لقد أركبه ﷺ على جمله، ثم أمره بالانطلاق، فانطلق ليخبر قريشاً أن:

النبي ﷺ يعرض هدنة وقريش تريد قتل رسوله

(بعث ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: الثعلب. فلمـا دخل مكة عقـرت به[3] قريش، وأرادوا قتل خـراش، فمنعهم الأحابش حتى أتى رسول الله ﷺ)[4] ولولا الله ثم تدخل الأحابش لهلك خراش، لأن الأحابش وهم حلفاء لقريـش فكروا بالعار الذي يجلبه قتل رسـول. أما قريش فقد أعماهم الكفر والحقد في ساعة غضب، فضربوا بكل شيء عرض الحائط.

عاد خراش سـليماً معافى، وجاءت كوكبة من الفرسان من قوم خراش.. هل كانوا يريدون نصر خراش، أم ماذا؟

من هؤلاء الفرسان وماذا يريدون

إنهم رجال من بني خزاعة، وقائدهم اسـمه (بديل بن ورقاء الخزاعي) وكانوا من الرجال الذين يُظهرون النصح لرسول الله ﷺ، وهم وقومهم خزاعة محل ثقة النبي ﷺ (فلما اطمأن رسول الله ﷺ إذا بديل بن ورقاء في رجال خزاعة، فقال لهم كقوله لبشير ابن سـفيان)[5] فقد (جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة[6] نصح رسـول الله ﷺ من أهل تهامة، فقـال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه[7] الحديبية ومعهم العوذ المطافيل[8]، وهم مقاتلوك، وصادوك عن

(١) حديث حسن وهو حديث أحمد الطويل وقد مر معنا (٣٢٤/٤).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).
(٣) قطعت إحدى قوائمه.
(٤) حديث حسن وهو حديث أحمد السابق.
(٥) حديث أحمد وهو حسن وقد مر معنا (٣٢٣/٤).
(٦) أي أن النبي ﷺ يثق بهم وهم أهل ثقة ونصح له.
(٧) العد هو الماء الذي لا ينقطع.
(٨) أي معهم الإبل ذوات اللبن والأمهات بأطفالهن.

البيت؟ فقال رسـول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شـاؤوا ماددتهم مدة[1] ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شـاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسـي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[2] ولينفذن الله أمره. فقال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشاً، قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه شيئا.

وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سـمعته. قال: (يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم)[3] أي اتهموا النبي بالتخطيط لحرب.

ثم إن النبي ﷺ أراد أن يبعث رجلاً مسلماً له مكانته ويستطيع بيان رسالته (فدعا ﷺ عمر ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني: عثمان بن عفان؟

فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمته، فخرج عثمان بن عفان حتى أتى مكة، ولقيه أبان بن سعيد ابـن العاص، فنـزل عن دابته، وحمله بين يديه، وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسـالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسـله به. فقالوا لعثمان: إن شـئت أن تطوف بالبيت فطف به. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل)[4].

---

(١) جعلت بيني وبينهم مدة من الزمن لا حرب فيها. ومعنى جموا: استراحوا من الحرب.

(٢) أي حتى أقتل.

(٣) ما بين الأقواس الصغيرة عند أحمد وهو الحديث السابق وهو حسن.

(٤) حديث حسن وهو جزء من حديث أحمد وهو حسن وقد مر معنا ٤-٣٢٣.

قتل عثمان واستعد عمر

إشـــاعة حولت الحديبية إلى ســـاحة للموت والفداء، فكان عمر بن الخطاب أول الناس اســـتعداداً للموت، ربما لشعوره أنه ساق عثمان إلى حتفه.. ها هو يلبس لباس الحرب، ويستدعي ابنه عبد الله ليأمره بإحضار فرس له عند أحد الأنصار، وليستفسر عن سبب ذلك الزحام على بقعة من أرض الحديبية.

اســـتجاب الفتى البار لأبيه وتوجه نحو ذلك الأنصاري لأخذ فرس أبيه التي يريد القتال عليها، لكن ذلك الشاب الصغير أُخذ بمشهد الزحام الذي كان في طريقه.. كان هناك شجرة تحت ظلالها كان الزحام، وتحت ظلالها كان النبي ﷺ، أما سبب الزحام فهو دعوة النبي ﷺ إلى: البيعة.

متى كانت البيعة تحت الشجرة

يقول شاب حضر تلك البيعة: (كانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة)[1] فجمعهم ﷺ تحت الشجرة، حيث النبوة والرحمة والأرواح هدايا.

اقتـــرب عبد الله بن عمر فتى مأخوذاً بمشـــهد الفـــداء، فوجد الصحابة رضي الله عنهم يهدون أرواحهم، فيهديهم الله رضاه إلى يوم القيامة.. أحب أن ينافســـهم وإن كان من أصغرهم، وبدلاً من أن يحضر الفرس لأبيه رضي الله عنه أحضر مهجته لنبيه ﷺ.. زاحم الجميع، ثم مد يده الصغيرة وعيناه معلقتان بحبيبه فبايعه (على الصبر)[2] ثم انفتل نحو مهمته الأولى، فتوجه نحو أخيه الأنصاري فأخذ فرس أبيه وقادها نحوه، فوجد أباه لا يعلم بعد عما يحدث.. إنه مشغول بالاستعداد للحرب.

يقول ذلك الفتى: إن (عمر يوم الحديبية أرســـل عبد الله إلى فرس له عند رجل مـــن الأنصار يأتى به ليقاتل، ورســـول اللـــه ﷺ يبايع عند الشـــجرة، وعمر لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله ثم ذهب إلى الفرس، فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئمُ[3] للقتال

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٦٩٨).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٥٨).
(٣) يلبس لأمة الحرب.

فأخبره)[1] بعد أن استغرب عمر ذلك الزحام تحت تلك الشجرة بالذات بالرغم من وجود أشجار أخرى كثيرة، فـ (الناس كانوا مع النبي ﷺ يوم الحديبية تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ. فقال: يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ..؟

فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر، فخرج فبايع)[2] وقد تكون بيعة عمر على الموت، فالبيعة تحت الشجرة ذات ألفاظ عدة، لكن كل تلك الألفاظ تعني الجهاد مع النبي ﷺ حتى النصر أو الشهادة.

ها هو جابر يتقدم ويبايع، فيسأله رجل فيما بعد عن بيعته فيقول: (بايعناه على ألا نفر ولم نبايعه على الموت)[3] أما عبد الله بن عمر فبايعه على (الصبر)[4].

تسابق الصحابة وازدحموا يبايعون النبي ﷺ.. أكثر من ألف وأربعمائة صحابي يبايعونه على التوالي.. شاهد عمر ذلك الزحام، فأحب أن يعين نبيه ﷺ، فأخذ بيده.

يقول جابر: (كنا أربع عشرة مائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة)[5] وإذا كان عمر قد أشفق على نبيه من الوقوف والتعب، فإن صحابياً آخر اسمه (معقل بن يسار) أشفق عليه من أغصان الشجرة لا تؤذيه، فقام برفعها عن رأسه.

يقول رضي الله عنه: (لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا أرفع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر)[6]

لكن بعض الصحابة بايعوا على الموت.. ها هو أحدهم اسمه: عبد الله بن زيد (وكان شهد معه الحديبية)[7] فبايع النبي ﷺ على الموت، ثم قال فيما بعد: (لا أبايع على ذلك أحداً بعد رسول الله ﷺ)[8].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٨٦).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٨٧).
(٣) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.
(٤) البخاري (٢٩٥٨).
(٥) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.
(٦) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٦٧).
(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٥٩).

وهذا صحابي آخر: خصه ﷺ ببيعة على الموت، ودعاه لها فاستجاب فمد له (يداً ضخمة كأنها خف بعير)[1] اسمه (سلمة بن الأكوع) فارس لا يقهر، وصلب لا يكسر.

يقـول رضي الله عنه: (بايعـت النبي ﷺ، ثم عدلت إلى ظل شـجرة، فلما خف الناس قال: يا ابن الأكوع ألا تبايع؟ قلت: قد بايعت يا رسول الله. قال: وأيضاً فبايعته الثانية)[2] (على الموت)[3].

هل اكتفى رسول الله ﷺ ببيعته الثانية، يبدو أن الأمر غير ذلك، فقد ميز النبي ﷺ صاحبه سـلمة بن الأكوع ببيعة لم تكن لأحد غيره، وللنبي ﷺ أسـلوبه الرائع في تكريم أصحابه وتفجير طاقاتهم، وإبراز نقاط القوة في كل فرد منهم، وقد أثمرت تلك البيعات، فحولت سلمة بن الأكوع إلى كتلة من الحماس، فـ:

ما هي بيعة سلمة المميزة

يقول سلمة رضي الله عنه: (قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جبا الركية[4]، فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشـت[5]، فسقينا، واستقينا، ثم إن رسول الله ﷺ دعانا للبيعة في أصل الشـجرة، فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان في وسط الناس، قال: بايع يا سلمة. قلت: قد بايعتك يا رسول الله في أول الناس..؟ قال: وأيضاً.

ورآني رسـول الله ﷺ عزلاً «يعني ليس معه سـلاح»، فأعطاني رسـول الله ﷺ حجفة أو درقة[6]، ثم بايع، حتى إذا كان في آخر الناس قال: ألا تبايعني يا سلمة؟ قلت:

---

(١) رواه ابن سـعد ٤-٣٠٦ وسـعيد بن منصور: حدثنا عكاف بن خالد حدثني عبد الرحمن ابن زيد العراقي قال: أتينا سـلمة بـن الأكوع فأخرج لنا يداً. وهذا السـند خطأ والصواب عطاف بن خالد وهو حسـن الحديث التقريب ٣٩٣ حدثني عبد الرحمن بن رزين الغافقي وليس زيد العراقي. وعبد الرحمن قال عنه الحافظ: صدوق والأصوب أنه مقبول عند المتابعة لأنه لم يوثقه إلا ابن حبان فالسند حسن إليه.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٦٠).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٦٠).

(٤) حافة البئر.

(٥) فارت وفاضت وامتلأت.

(٦) ترس من جلد.

قد بايعتك يا رسول الله في أول الناس، وفي أوسط الناس..؟ قال: أيضاً. فبايعته الثالثة.

ثم قال لي: يا سلمة: أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك؟ قلت: يا رسول الله.. لقيني عمي عامرٌ أعزلاً، فأعطيته إياها.

فضحك النبي ﷺ وقال: إنك كالذي قال الأول: اللهم ابغني حبيباً هو أحب إليّ من نفسي)(١).

باع الصحابة أرواحهم، وتحت شجرة السمر تلك حل رضوان الله على الذين بايعوا، فسميت بيعة الرضوان.. حيث بايع الجميع إلا رجلين:

رجل من أفضل الصحابة وأكرمهم هو: عثمان بن عفان رضي الله عنه فـ:

لماذا تخلف عثمان عن البيعة

باختصار، لأنه هو السبب الأول لتلك البيعة، بعد أن وصل خبر اغتياله على أرض مكة، لكن يبدو أن الخبر لم يتأكد لديه ﷺ، ولذلك قام بعمل هو تكريم لعثمان، وبيان لمنزلته لدى النبي ﷺ.

يقول الشاب المجاهد عبد الله بن عمر: (كانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: هذه يد عثمان. فضرب بها على يده، فقال: هذه لعثمان)(٢).

هذه هي منزلة عثمان لدى النبي ﷺ، وهذا هو مدى ثقته به وبإيمانه، وهذه هي المسافات التي قطعها في قلب نبيه.

أما الرجل الثاني الذي لم يبايع فمن الأنصار واسمه (جد بن قيس بن الأنصاري) وهو خال جابر بن عبد الله.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٧).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٦٩٨).

يقول جابر: (كنا أربع عشــرة مائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشــجرة، وهي سمرة، فبايعناه غير جد بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره)[1] ولا أدري ما سبب اختبائه..؟ لكنه خسر خسارة عظيمة، وتخلف عن رضوان يظله طوال حياته!! ربما كان الخوف والجبن سبباً لتخاذله ذلك، وربما كان السبب أمراً أخطر، لكنه خسر لا شك.. لا سيما والخطر الداهم قد أطبق من كل اتجاه على المؤمنين، فقد خرجت قريش ومن معهــا نحو الحديبية لإيقاف النبي ﷺ، أو حربه إن اســتدعى الأمر، وجد بن قيس قد خسر في الحالتين، فالصحابة لن يفروا مهما كان الثمن، وقد تأهبوا للأعداء.

قريش تحاصر الحديبية

بعد انتهاء المؤمنين من البيعة امتلأت جوانب الحديبية بجيش الشــرك، فاستعد المؤمنون لهم، واســتعدوا للشــهادة، أما النبي ﷺ فكان بينهم يتجول.. يتفقد وينظم، ويصلح من أحوالهم.

ها هو يحذرهم، فيقول: «لا توقدوا ناراً بليل»[2].

ويواصــل ﷺ تفقده لأصحابه، فيمر على رجل يوقد النار نهاراً تحت قدر لأصحابه، لكن منظر شعره ولحيته لا يسر. اسمه (كعب بن عجرة) وهو يحدثنا فيقول أن (النبي ﷺ مر به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم، وهو يوقد تحت قدر، والقمل يتهافت على وجهه فقال: أيؤذيك هوامك هذه؟ قال: نعم)[3]

انصرف النبي ﷺ من عنده لا يدري ما يقول له، فنزل جبريل عليه السلام بقرآن يتلى، واشتد الوجع بكعب بن عجرة، فنزلت رحمة الله على كعب ومن يأتي بعد كعب.

يقول رضي الله عنه: (كنا مع النبي ﷺ ونحن محرمون، وقد حصرنا المشــركون، وكانت لي وفرة[4]، فجعلت الهوام تساقط على وجهي. فمر بي النبي ﷺ، فقال: أيؤذيك

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.

(٢) سنده قوي رواه الأئمة أحمد ٣-٢٦ وغيره من طرق عن طريق محمد بن أبي يحيى الأسلمي عن أبيه عن أبي سعيد. ومحمد وأبوه صدوقان. التقريب ٥١٣ و٢٥٦.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم -الحج.

(٤) الشعر إذا وصل شحمة الأذن، والجمة إذا تناثر على الكتفين.

هوام رأسـك؟ قلت: نعم. وأنزلت هذه الآية: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾)[1] وهـذه الآية (نزلت فـيَّ خاصة وهي عامة لكم. حملت إلى رسـول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهي «فوقع القمل في رأسـي ولحيتي وحاجبي وشـاربي»، فقال: ما كنت أرى الوجع بلغ بـك ما أرى، أو ما كنت أرى الجهد بلغ بك ما أرى، تجد شاةً؟ فقلت: لا، قال: فصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسـكين نصف صاع)[2]. (فدعا ﷺ الحلاق فحلق رأسه)[3] فارتاح من القمل والوجع، وشعر برحمة الله وفضله حيث جعل له بعد الضيق فرجاً وفرحاً، وحكماً جديداً يتيح للمحرم بالعمرة أو الحج أن يحلق شعر رأسه بعد أن يذبح فدية.

فرح كعب كفرح رسـول الله ﷺ بعودة عثمان، الذي عاد دون أن يمس بأذى.. عاد عثمان لكن قريشـاً لم تعد، بل انحدرت معها ثقيـف من الطائف.. يقودهم (عروة بن مسـعود الثقفي) عم المغيرة بن شـعبة رضي الله عنه، وقد شـارك عروة قريشاً بكل مـا يملك.. جاء بأهله وولده وبعض أهل عكاظ، ثم قال لقريش: (إني اسـتنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا[4] علي، جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني)[5].

لـم تأتِ الطائف فقـط لنصرة قريش.. هـا هم حلفاء آخرون لقريش يسـمون (الأحابيش) يسـيرون مع قريش لحصار النبي ﷺ وأصحابه تحت قيادة رجل اسـمه: (الحليس بن علقمة الكناني، وهو يومئذٍ سـيد الأحابيـش)[6] وهو رجل عاقل وحكيم يحترم الهدي ومن يسـوقه إلى بيت الله العتيق، وكان وجود أمثال الحليس سـبباً في عدم هجوم قريش وإشعالها حرب جديدة مع النبي ﷺ.

كانـت قريش أكثـر تعقلاً هذه المرة لوجـود أمثال الحليس، فقـد (قام عروة بن مسعود فقال: أي قوم.. ألست بالولد؟ وألستِ بالوالدِ؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟

---

(١) حديث صحيح البخاري-٤١٩١ والنسك: الدم، فسره عليه السلام بالشاة كما سيأتي.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٨١٦).
(٣) حديث صحيح رواه مسلم – الحج.
(٤) رفضوا وأبوا.
(٥) سيأتي تخريجه.
(٦) هو جزء من حديث ابن إسحاق الطويل الصحيح.

قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا[١] علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أعطاني؟ قالوا: بلى.

قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد، اقبلوها، ودعوني آته «يا معشر قريش، إني قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد، وأني ولد، وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئت حتى آسيتكم[٢] بنفسي، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم» قالوا: ائته.

فأتاه «فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه» فجعل يكلم النبي ﷺ «فقال: يا محمد، جمعت أوباش[٣] الناس ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها[٤]، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً» فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل بن ورقاء[٥].

فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت[٦] أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى[٧]، فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك «وأبو بكر رضي الله عنه خلف رسول الله ﷺ قاعد، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات[٨]، أنحن نفر عنه وندعه؟!!

فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك «لكافأتك بها، ولكن هذه بها، ثم تناول لحية رسول الله ﷺ والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ من الحديد» وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة واقف على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف[٩]، وقال

---

(١) أبوا ورفضوا.
(٢) واسيتكم وساويتكم.
(٣) أخلاط الناس وأقلهم منزلة.
(٤) حماك أو حما قومك لتفرقه وتمزقه.
(٥) أي كلاماً كالذي قاله لبديل.
(٦) أي قطعت وانهيت.
(٧) أي إن هزمت.
(٨) إهانة لمعبوده المدعو: اللات.
(٩) حديدة بأسفل جفن السيف.

له: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ «قبل والله لا تصل إليك. قال: ويحك ما أفظك وأغلظك.

فتبسم رسول الله ﷺ» فرفع عروة رأسه فقال: من هذا «يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك» المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ «هل غسلت سوأتك إلا بالأمس»، وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل. وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، «فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، فأخبره أنه لم يأت يريد حرباً، فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه»)[1].

عروة منبهر بإجلال الصحابة للنبي ﷺ

يكاد لا يصدق ما يرى، لكنها الحقيقة شاخصة أمام عينيه.. أخذته الدهشة إلى قريش، فحدثهم عن إجلال لم يحض به أعظم ملكين على وجه الأرض (كسرى وقيصر).. (قام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه «كادوا يقتتلون على وضوئه» ولا يبسق بساقاً إلا ابتدروه «إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده» ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه «وإذا أمرهم ابتدروا أمره» «وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون إليه النظر تعظيماً له» فرجع إلى قريش، فقال: يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه، وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد في أصحابه.

«والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها». ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم)[2] (فقال رجل من بني كنانة «الحليس بن علقمة الكناني وهو يومئذٍ سيد الأحابش»: دعوني آته. فقالوا: ائته،

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١) وأحمد (٣٢٤/٤) والزوائد له.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد ٤-٣٢٤ والبخاري (٢٧٣١) والزوائد لفظ البخاري.

فلما أشـــرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رســـول الله ﷺ: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن[1]، فابعثوها له «ابعثوا الهدي في وجهه».

فبعثت له، واســـتقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك «الهدي يســـيل عليه من عرض الوادي في قلائده، قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى» قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت «يا معشـــر قريش، قد رأيت مالا يحل صده: الهدي في قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله.

فقالوا: اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك»)[2].

فقدت طواغيت قريـــش عقلها واحترامها لمبادئهـــا.. وأفقدها حقدها احترامها لبيـــت الله، ولمن يقصده للحج والعمرة بتلـــك الكلمات التي قذفتها كالحجارة في وجه الحليس الكناني ســـيد الأحابش وحليفها الدائم، لذلك لم تمانع أن تبعث رســـولاً ثالثاً هابط المستوى مثلها. قريش تبعث رجلاً فاجراً:

قريش تبعث مكرز بن حفص

بعـــد تلك الكلمات غير المهذبة التي أطلقتهـــا قريش على حليفها (قام رجل منهم يقال له (مكرز بن حفص) فقال: دعوني آته. فقالوا: ائته.

فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: هذا مكرز وهو رجل فاجر «غادر فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه» فجعل يكلم النبي ﷺ)[3] لكن يبدو أن قريشاً ندمت على إرسال مكرز هذا، لهذا قررت قطع رسالته وحواره برجلٍ أحكم وأعقل، ويبدو أن نداء العقل والرحم قد تنبه أخيراً داخل أوساط قريش.

---

(١) ما يذبح لله في العمرة أو الحج من الإبل أو البقر.
(٢) جزء من الحديث السابق.
(٣) جزء من الحديث السابق.

قريش تقاطع محادثة مكرز

لقــد بعثوا رجلاً متزنــاً يعرف مكانته ومكانة خصمه، ويحترم شــرف الخصومة (بعثوا (سهيل بن عمرو) أحد بني عامر بن لؤي فقالوا: ائت محمداً، فصالحه ولا يكون فــي صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو)[1]

وصل سهيل بن عمرو في الوقت الذي كان النبي ﷺ يتحدث فيه إلى مكرز بن حفص (فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو)[2] و(لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: قد ســهل لكم من أمركم)[3] وقبل أن يصل سهيل حدثت حركة داخل معسكر قريش.. حركة تثير الشفقة والغضب جميعاً:

أرقاء يهربون من قريش

قبل أن يصل ســهيل وصلت مجموعة من الفارين من معســكر الشــرك والرق.. مجموعــة صغيرة من الأرقاء يمموا نحو الحرية.. نحــو النبي ﷺ. رآهم علي بن أبي طالب: فقال: (خرج عِبدان إلى رسول الله ﷺ، يعني يوم الحديبية، قبل الصلح، فكتب إليــه مواليهــم فقالوا: يا محمد، والله ما خرجوا إليــك رغبة في دينك، وإنما خرجوا هرباً من الرق. فقال ناس: صدقوا يا رسول الله، ردهم إليهم.

فغضب رســول اللــه ﷺ وقال: ما أراكم تنتهون يا معشــر قريش حتى يبعث الله عليكم من يضرب رقابكم على هذا. وأبى أن يردهم، وقال: هم عتقاء الله عزّ وجلّ)[4] وهم أحرار بين أخوتهم المهاجرين والأنصار.. ينعمون برحمة الإيمان وأفياء المســاواة والتآخي في الله.

---

(١) ســنده صحيح رواه ابن إســحاق ومن طريقه البيهقي في الكبرى ٩ - ٢٢١ حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور بن.. وهو سند البخاري

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٣) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٤) حديــث صحيــح دون قوله: هم. رواه أبو داود (٢٧٠٠) وله طريق أخرى عند أحمد ١-١٥٥ حيث توبع ابن إســحاق وشــيخه، فالتقى الطريقان عند منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش عن علي رضي الله عنه: ومنصور ثقة لا يدلس وشيخه مخضرم ثقة عابد.

أما سـهيل بن عمرو فقد وصل إلى معسـكر المؤمنين (فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ، تكلما وأطالا الكلام، وتراجعا، حتى جرى بينها الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب)[1] تحدث سهيل بن عمرو فقال: (هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب)[2] وكان (كاتـب الكتاب يوم الحديبية علي بن أبـي طالب رضي الله عنه)[3] (فقال النبي ﷺ: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سـهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب باسـمك اللهم. كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: اكتب: باسمك اللهم.

ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك. ولكن اكتب: [اسمك واسم أبيك] «هذا ما اصطلح عليه» محمد بن عبد الله.

فقال النبي ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله)[4] (ثم قال لعلي: امح: رسول الله.

قـال علي: لا. والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسـول الله ﷺ الكتاب وليس يحسـن يكتب)[5] (قال ﷺ: فأرنيه. فأراه إياه، فمحاه النبي ﷺ بيديه)[6] وبعد أن محا النبي ﷺ كلمة رسول الله.. رأى الجميع شيئاً لم يعرفوه من قبل عن النبي ﷺ ف.

هل حدثت معجزة ثانية على أرض الحديبية

فالنبـي ﷺ لا يعـرف القـراءة ولا الكتابة، ولذلك قال ﷺ لعلـي بن أبي طالب: (أرنيه)، ولو كان يعرف ذلك لما سـأله، لكن الذي حدث أن النبي ﷺ محا الكلمة التي

(١) حديث أحمد الطويل الصحيح.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٣) سـنده حسـن رواه أحمد ٢-٥٩٠ حدثنا عبد الرزاق حدثنا عكرمة بن عمار أخبرنا أبو زميل أنه سـمع ابن عباس. عكرمة هو حسـن الحديث من رجال مسـلم، التقريب ٣٩٦ وشيخه لا بأس به، التقريب ٢٥٦ والحديث عند أحمد في فضائل الصحابة.

(٤) صحيح رواه البخاري (٢٧٣١) والزوائد لأحمد وما بين المعقوفين لمسلم (١٧٨٣).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٥١).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣١٨٤) وما بين الأقواس لمسلم (١٧٨٣).

أشــار إليها علي بيديه، ثم (أخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن أن يكتب، فكتب «ابــن عبد الله»)[1]، أي أن النبي ﷺ كتب فقط: (ابن عبد الله) وما حدث منه ﷺ قد يكون معجزة من الله، وقد يكون رسمها، فهي مجرد كلمة واحدة يجيد رسم مثلها أغلب الأميين الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، ومع ذلك تجدهم يجيدون كتابة أسمائهم، وهي ليست كتابة بالمعنى الصحيح، بل هي مجرد رسم وتقليد.

ثم واصل علي رضي الله عنه كتابة شــروط الصلح التي أثارت غضب عمر، كما أثارت غضب علي من قبل، لكن شيئاً حدث أثار الجميع إلا النبي ﷺ..؟

إنه ليس ما أملاه سهيل من شروط، بل أخطر من ذلك وأفدح.. جريمة كادت تفسد كل شيء، ودناءة كادت تحول أرض الحديبية إلى ساحة حمراء.. تلك الجريمة كانت:

محاولة اغتيال النبي ﷺ

يقــول أحد الحضــور وهو الصحابي عبد الله بن مغفل: (كنا مع رســول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشــجرة على ظهر رســول الله ﷺ، وعلي ابن أبي طالب وســهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

فأخذ ســهيل بن عمرو بيده فقال: ما نعرف بسم الله الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، اكتب باسمك اللهم.

فكتب: هذا ما صالح عليه محمد رســول الله ﷺ أهل مكة. فأمســك ســهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رســوله. اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا رسول الله، فكتب..

فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شــاباً عليهم الســلاح فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله عز وجل بأبصارهم، فقدمنا إليهم، فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: هل جئتم في عهد أحد، أو: هل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: لا.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٥١).

فخلى سبيلهم)[1] وعفا عنهم وتركهم لضمائرهم علها تستيقظ، ثم انصرف لإكمال ما بدأه من اتفاق وكتابة:

شروط صلح الحديبية

قال سـهيل بن عمرو: (اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، على:

- وضع الحرب عشر سنين.
- يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.
- على أنه من أتى رسـول الله ﷺ «رجل» من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم.
- ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليهم.
- وأن بيننا عيبة مكفوفة[2].
- وأنه لا إسلال[3].
- ولا إغلال[4].
- وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب أنه: من أحب[5] أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه.
- ومن أحب[6] أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.
- وانك ترجع عنا عامنا هذا، فلا تدخل علينا مكة.

---

(١) سـنده لا بأس به رواه أحمد ٤-٨٦ والحاكم ٢-٦١ من طريق زيد بن الحباب وعلي ابن الحسـن بن شقيق وهما ثقتان، قالا: أنبأنا وحدثني الحسين بن واقد، حدثني ثابت البناني عن عبد الله بن مغفل.. والحسين ابن واقد ثقة وشـيخه تابعي ثقة عابد وقال الذهبي في تعليقه على سـماع ثابت من عبد الله: لا يبعد سـماع ثابت من ابن مغفل قد اتفقا -أي الشـيخان- على إخراج معاوية بن قرة، وحميد بن هلال عن ابن مغفل، وثابت أسن منهما.

(٢) أي لا غش فيها.

(٣) أي لا سرقة.

(٤) ولا خيانة.

(٥) أي من أحب من القبائل الأخرى أن يحالف محمداً.

(٦) أي من أحب من القبائل الأخرى أن يحالف قريشاً.

- وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك.
- فتدخلها بأصحابك وأقمت فيهم ثلاثاً معك السلاح الراكب.
- لا تدخلها بغير السيوف في القرب)[1].
- (وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه.
- وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها)[2].

تعجب بعض الصحابة من تلك الشروط الجائرة (فقالوا: يا رسول الله: أنكتب هذا؟ قال: نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم، سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً)[3].

لم تنته المعاهدة حتى الآن، وعلي رضي الله عنه يواصل كتابة الشروط، والغضب يتطاير من عيني عمر بن الخطاب، والصحابة رضي الله عنهم في حالة ذهول..

في تلك الأثناء حدثت حركة أججت لهيب الغضب في معسكر المسلمين.. مشهد كالفجيعة، وظلم لا طاقة للرجال به.

لقد وصل الآن إلى مكان المباحثات رجل يرسف في قيوده.. يزحف، ويمشي ويسقط، ويجأر باحثاً عن ملجأ ومفر له مما هو فيه.. إنه ابن ذلك الرجل الذي يفاوض النبي ﷺ سهيل بن عمرو وابنه ذلك اسمه (أبو جندل)

مأساة أبي جندل

قيده أبوه عندما علم بإسلامه، وغل يديه وقدميه، ومنعه من مغادرة مكة، لكنه لم يستطع منعه من مغادرة الشرك. ولما خرجت قريش لصد النبي ﷺ عن دخول مكة وجد ثغرة فهرب من خلالها، وها هو الآن بين يدي رسول الله ﷺ، ووالده سهيل يشاهده، ومداد المعاهدة لم يجف بعد، والشروط لم تنته حتى الآن، لكن النبي ﷺ قد وافق على ما مضى؟

(١) حديث صحيح رواه أحمد ٤-٣٢٥ والزوائد للبخاري (٢٧٣٢).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٥١).
(٣) حديث صحيح رواه مسلم (١٧٨٣).

وصل أبو جندل بعد أن قال والده سـهيل لرسول الله ﷺ: (وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا.

قال المسلمون: سـبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تـرده إليّ. فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتـاب بعد! قال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً.

«فلما رأى سـهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه، ثم قال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا.

قال: صدقت.

فقام إليه فأخذ بتلبيبه[1]، وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معاشـر المسـلمين، أتردونني إلى أهل الشرك، فيفتنونني في ديني.

فزاد الناس شراً إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المسـتضعفين فرجاً ومخرجـاً، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، فأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عليه، وإنا لن نغدر بهم».

قال النبي ﷺ [2]: فأجزه لي[3]. قال: ما أنا بمجيز ذلك لك.

قال: بلى، فافعل. قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزنا لك. قال أبو جندل: أي معشـر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله)[4].

كان هذا المنظر المؤلم خنجرا في خاصرة عمر.. يفقده صوابه وصبره (فوثب إليه عمر بن الخطاب مع أبي جندل، فجعل يمشـي إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل،

---

(١) أي بثوبه من جهة الصدر.
(٢) قال لسهيل بن عمرو.
(٣) أي اتركه لي.
(٤) حديث البخاري الطويل السابق والزوائد لأحمد.

فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني قائم السيف منه، ويقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن[1] الرجل بأبيه، ونفذت القضية)[2]

كان عمر يريد من أبي جندل أن يجهز على أبيه بالسيف، وينطلق من إساره بنفسه دون مساعدة المسلمين، ليكون بذلك قد حرر نفسه ولا لوم على النبي ﷺ، ولا على أصحابه، ولا على عهدهم وذمتهم. لكن أبا جندل لم يفعل فطار صواب عمر وتوجه نحو نبي الله ﷺ بعد أن رأى وسمع ما لم يستطع عليه صبراً.

قال عمر للنبي ﷺ: (ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ «ألسنا بالمسلمين أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذن؟ «فعلام نعطي الذلة في ديننا؟».

قال ﷺ: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري، «أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني». قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوف به.

فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟

قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ «أولسنا بالمسلمين، أو ليسوا بالمشركين»؟ قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ فعلام نعطي الذلة في ديننا؟». قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به)[3].

ندم عمر على ما كان منه من احتجاج على ذلك الظلم الوثني.. ندم عمر وتوجه بالتوبة إلى الله، وحاول تكفير ما كان منه بأعمال كثيرة يقول عنها: (مازلت أصوم

(١) أي بخل بأبيه على الموت.
(٢) حديث البخاري السابق.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري وهو الحديث الطويل السابق والزوائد لأحمد.

وأتصـــدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت، مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذٍ، حتى رجوت أن يكون خيراً)[1]

بالنسبة للنبي ﷺ كل شيء قد انتهى، ولم يتبق سوى التحلل من الإحرام، والعودة إلى المدينة.

لكن الصحابة لم يمتثلوا لأوامره ﷺ

الأمـــر عندهم غيـــر قابل للتصديق!! أين تلك الأحلام بالطـــواف بالبيت الحرام، والصلاة فيه..؟ أين أحلام المهاجرين بمعانقة أجواء مكة الحبيبة..؟ هل انهار كل ذلك على صخور الحديبية..؟

حاول ﷺ أن يزيل تلك الدهشة وذلك الذهول، لكنه لم يستطع، وما حدث أنه (لما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. فوالله ما قام رجل)[2]

فقـــال مرة ثانيـــة: فانحروا ثم احلقوا، فلم يقم منهم أحد مما بهم من الهم والغم، ثم قال الثالثة: قوموا فانحروا ثم احلقوا.

لكنه لم يلق إجابة فعليةً ولا حتى قولية، (حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة)[3] عله يجد لدى هذه المرأة العظيمة حلاً.

أم سلمة تشير على النبي ﷺ

نحـــو خبائهـــا الكريم تهادى النبـــي ﷺ فـ(دخل على أم ســـلمة، فذكر لها ما لقي من الناس. «فقال: يا أم ســـلمة ما شـــأن الناس؟» فقالت أم سلمة: «يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت»، يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك[4]، وتدعو حالقك فيحلقك. «فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك».

---

(١) حديث صحيح وهو حديث أحمد الطويل السابق.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢) وأحمد (٣٢٦/٤).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢) وأحمد (٣٢٦/٤).
(٤) البدن؛ هي: الإبل والبقر التي ينحرها الحاج أو المعتمر لله.

فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدنه[1]، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، فجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غما)[2] مما رأوه من ظلم وغبن من المشركين، فهم بشر، وبنود المعاهدة مجحفة في حقهم، مما أصابهم بالذهول، مما أحوجهم إلى قدوة عملية تنتشلهم من ذلك الذهول.

كان النبي ﷺ قد بدأ بالنحر قبل الحلق. حيث (حلق بالحديبية في عمرته، وأمر أصحابــه بذلك، ونحر بالحديبية قبــل أن يحلق، وأمر أصحابه بذلك)[3]، وحتى يغيظ أولئك المشركين المتغطرسين.. ساق ﷺ معه جملاً كان لأبي جهل في غزوة بدر.. غنمه المسلمون، فنحره أمام أعين المشركين.

النبي ﷺ ينحر جمل أبي جهل

يقول أحد الصحابة: (أهدى رسول الله ﷺ جمل أبي جهل في هديه يوم الحديبية، وفي رأسه برة من فضة، كان أبو جهل أسلمه يوم بدر)[4] (ليغيظ المشركين بذلك)[5].

وإذا كان هــذا الأمــر قد أفزع المشــركين، فإنه قد أيقظ المؤمنــين من همومهم، فنهضوا لينحروا هديهم ويحلقوا رؤوســهم، وقد اشــترك الصحابة بالهدي.. السبعة منهم يشتركون في الجمل أو البقرة، أما الشاة فلا تكفي إلا عن واحد.

يقول جابر رضي الله عنه: (نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة)[6] (نحرنا يومئذ سبعين بدنة، اشتركنا: كل سبعة في بدنة)[7].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢) وأحمد (٤/٣٢٦).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢) والزوائد لأحمد (٤/٣٢٦).

(٣) حديث أحمد الصحيح السابق (٤/٣٢٧)

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق حدثني ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ومن طريقه أحمد ١-٢٦١ وغيــره. بــن أبي نجيح تابعي ثقة التقريب ٣٢٦ ومجاهد ثقة إمام، االتقريب ٥٢٠ وله طريق آخر عن ابن عباس عند أحمد ١-٢٦٩ وطريق عند الطبراني (٧/٢٣) عن سلمة.

(٥) حديث صحيح وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٦) حديث صحيح رواه مسلم (١٣١٨) الحج.

(٧) حديث صحيح رواه مسلم (١٣١٨) الحج.

نحر الصحابة سبعين بدنة، ولا أدري هل نحروا من الغنم شيئاً، ثم قاموا (وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً غماً)[1] لكن بعض الصحابة، وهم قلة، لم يحلقوا بل اكتفوا بتقصير شعورهم، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال: يرحم الله المحلقين.

يقول أحد الصحابة: (حلق رجال يوم الحديبية، وقصر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله المحلقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: يرحم الله المحلقين.قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: يرحم الله المحلقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: والمقصرين.

قالوا: فما بال المحلقين ظاهرت لهم الترحم؟ قال: لم يشكوا)[2]

وبعد الحلق هدأ عمر ومن معه من الصحابة، لكن الذهول مازال يطوف برؤوسهم، ومازالت صورة أبي جندل تلوح أمامهم.. لم يكن أبو جندل وحده مأسوراً.. هناك الكثير غيره، حتى حلفاء قريش كانوا قد أوثقوا من آمن منهم، وكان من هؤلاء المأسورين:

أسد يقال له: أبو بصير

قيده قومه ومنعوه من الالتحاق بمحمد ﷺ وأصحابه، واسمه (عتبة ابن أسيد بن جارية الثقفي) ولم يكن الرجال وحدهم يعانون هذه المأساة، ويتجرعون سموم الشرط الجائر.

النساء المستضعفات عانين الكثير.. تلك المؤمنة الطاهرة ابنة الطاغية الهالك (عقبة بن أبي معيط) واسمها (أم كلثوم) تخطط للهرب من مستنقع الشرك وأسلاكه الشائكة، فتنجح، وعندما تصل هي وغيرها إلى النبي ﷺ يطالب أهلها بإرجاعها حسب نصوص المعاهدة، لكن النبي ﷺ يرفض إرجاع النساء المهاجرات. ليس لأنه نقض عهده مع قريش.. إنه أكبر من ذلك، وتاريخه أبيض في هذا الشأن، فقد رد حذيفة ووالده يوم بدر، ورد أبا جندل قبل قليل، فلم لا يرد أم كلثوم ورفيقاتها من المؤمنات الهاربات من عالم الأصنام..؟

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢).

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق حدثني ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس. عبد الله بن أبي نجيح يسار تابعي ثقة التقريب ٣٢٦ ومجاهد بن جبر ثقة إمام في االتقريب التهذيب ٥٢٠ .

الإجابة هي أن النبي ﷺ وجد للمؤمنات ثغرة خلال نصوص المعاهدة.. ثغرة تتيح للمؤمنات التسلل من خلالها والهرب. فقد كان سهيل كغيره من المشركين لا يأبهون لشأن المرأة إلا حين تناديهم غرائزهم، ولذلك قال سهيل للنبي ﷺ: (وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا)[1]

هذا النص - الشرط ينصب على الرجال فقط، لذا فالنساء لا يدخلن تحت طائلته، فكان الفرج لأم كلثوم فقد (كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ: أنه لا يأتيك منا أحد «رجل» وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فرد يومئذٍ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذٍ وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم..؟ فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ [2] فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ ﴾ [3]

تقول عائشة رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧١١-٢٧١٢).

(٣) سورة الممتحنة: الآية ١٠، وأكملت الآية للفائدة.

﴿ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ فمــن أقر بهذا الشــرط منهن قال لها رســول الله ﷺ: قــد بايعتك، كلاماً يكلمها به، والله ما مســت يده امرأة قط في المبايعة، وما بايعهن إلا بقوله)[1].

سمع عمر بن الخطاب تلك الآيات، والقرآن يسري في عروق عمر لا يجد ما يعيق انسيابه، والقرآن يتوهج داخل زواياه وأعماقه، فاستجاب على الفور

تقول عائشــة رضي الله عنها: (لمــا أنزل الله تعالى: أن يردوا إلى المشــركين ما أنفقوا على من هاجر من أزواجهم، وحكم على المسلمين أن لا يمسكوا بعصم الكوافر، أن عمر طلق امرأتين: «قريبة بنت أبي أمية» و«ابنة جرول الخزاعي».

فتزوج «قريبة»: معاوية بن أبي ســفيان، وتزوج الأخرى أبو جهم، فلما أبى الكفار أن يقروا بأداء ما أنفق المســلمون على أزواجهم، أنزل الله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ والعَقَــبُ: ما يؤدي المســلمون إلى مــن هاجرت امرأته من الكفار، فأمر أن يعطي من ذهب له زوج من المســلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللاتي هاجرن، وما نعلم أحداً من المهاجرات، ارتدت بعد إيمانها)[2] بالله ورسوله، أما من هاجرن فلن يردهن ﷺ للمشركين لأنه لا شرط بينهم في ذلك.

اقتنعــت قريــش ورضيت على مضض بذلــك، فبين يديها يتلبــط أبو جندل في قيوده.. لم يلن أبوه ســهيل لمرآه، ولم يتذكر تلك القيود التي كان مكبلاً بها في حجرة سودة رضي الله عنها بعد أسره في غزوة بدر.. لقد أعماه الشرك عن الشعور بالقيود، بل أعماه عن الشعور بالأبوة تجاه ابنه أبي جندل.

سلم المسلمون والمشركون بالمعاهدة، فتحولت أرض الحديبية إلى ساحة للسلام.. اختلــط فيها الجميع: المؤمنون والكافرون، ولا بد أن ذوي الأرحام والصداقات الماضية رأى بعضهم بعضاً، ووصل بعضهم بعضاً، لكن من المشــركين من لا ينفع معه عهد ولا ميثاق، ولا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً.. هناك من تجثم بين أضلعه أحقاد ومخالب، فحاول إفساد كل شيء.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧١٣) سورة الممتحنة.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٣).

بعض المشركين ينقضون المعاهدة

يقول سلمة بن الأكوع: (ثم إن المشركين راسلونا الصلح، حتى مشى بعضنا في بعض، واصطلحنا. وكنت تبيعاً لطلحة بن عبيد الله، أسقي فرسه، وأحسه[1]، وأخدمه، وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها[2]، فاضطجعت في أصلها، فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم، فتحولت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم، واضطجعوا، فبينما هم كذلك، إذ نادى مناد من أسفل الوادي: ياللمهاجرين، قتل ابن زنيم.

فاخترطت سيفي[3]، ثم شددت[4] على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم، فجعلته ضغثاً[5] في يدي، ثم قلت: والذي كرم وجه محمد، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه. ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، وجاء عمي عامر برجل من العبلات[6] يقال له: مكرز، يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مجفف[7] في سبعين من المشركين. فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال: دعوهم، يكن لهم بدء الفجور وثناه. فعفا عنهم رسول الله ﷺ)[8] كما عفا عن أولئك الغادرين أثناء كتابة العقد، وكان عدد هؤلاء الغادرين أكثر من سبعين.

يقول أنس بن مالك: (إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً، فأنزل

(١) أحك ظهره بالمحسة.
(٢) كنست ما تحتها من الشوك.
(٣) سللته.(٤) هجمت.
(٥) حزمة.
(٦) من قريش نسبة لأمهم التميمية (عبلة).
(٧) مجلل بشيء يقيه الجراح في الحرب.
(٨) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٧).

الله عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾[1] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[2].

كان للنبي ﷺ رأيٌ لا يخيب في صاحبه سلمة بن الأكوع.. كان يدرك ما لدى هذا الرجل من بأس وشجاعة، ولذلك بايعه ثلاث مرات، ولذلك بايعه على الموت، ومازال لدى سلمة الكثير.. الكثير لله ولرسوله ﷺ، ومازال لدى سلمة الكثير ليقوله لنا عن الحديبية وما بعدها. ها هو سلمة يستعد للرحيل فـ:

النبي ﷺ يعود بأصحابه إلى المدينة

نهض جيش المؤمنين مع نبيه ﷺ متوجهين نحو المدينة.. عادوا والهموم طريق، ومرابع مكة وكعبتها آهات في قلوبهم.. عادوا منكسرين يلفهم الوجوم والحزن، حتى أقبل الليل عليهم، فصلى الجميع المغرب والعشاء وحان موعد النوم، فحدثت هذه القصة:

قصة النوم حتى طلوع الشمس

هل كان من أسباب ذلك النوم العميق الحزن الثقيل على بيت الله الحرام..؟

الله أعلم. لكن ابن مسعود يقول: (أقبلنا مع رسول الله ﷺ من الحديبية، فذكروا أنهم نزلوا دهساً من الأرض -يعني الدهاس: الرمل- فقال: من يكلؤنا؟ فقال بلال: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «إذاً ننام.

فناموا حتى طلعت الشمس، فاستيقظ ناس، منهم: فلان، وفلان، وفيهم عمر». فقلنا: اهضبوا -يعني- تكلموا.

فاستيقظ النبي ﷺ، فقال: افعلوا كما كنتم تفعلون. ففعلنا. وقال: كذلك فافعلوا لمن نام أو نسي[3].

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٨).

(٢) سورة الفتح: الآية ٢٤.

(٣) يعنى صلوا بعد قيامكم من النوم.

وضلت ناقة رسول الله ﷺ فطلبها فوجدت حبلها قد تعلق بشجرة، فجئت بها إلى النبي ﷺ، فركب مسروراً)[1] وسار وسار معه أصحابه.. يتوقفون للصلاة حيناً، وللراحة حيناً، ولما جن عليهم الليل كان ﷺ يسير وعمر بن الخطاب إلى جانبه يحدثه و:

النبي ﷺ لا يرد على عمر

كان ﷺ يسير (وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء، فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، وقال عمر بن الخطاب: ثكلتك أمك يا عمر، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك.

قال عمر: فحركت بعيري، ثم تقدمت أمام المسلمين وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي. فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن. وجئت رسول الله ﷺ فسلمت، فقال: لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾)[2].

ربما كان ﷺ في لحظات أسئلة عمر مشغولاً، أو مهموماً، أو يوحي إليه، لكنه كان حساساً تجاه صحابته.. لم يترك عمر لأفكاره تذهب به بعيداً، لقد دعاه وبشره بـ:

نزول سور الفتح

وقرأ عليه ما نزل، فسأله عمر سؤالاً أعادت إجابته الطمأنينة إلى نفسه. لقد (نزل القرآن على رسول الله بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه «فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها». فقال «عمر»: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: نعم.

---

(١) صحح إسناده الإمام الألباني رحمه الله في الإرواء (٢٩٣) وقد رواه أحمد ١-٤٦٤ واللفظ له ورواه أبو داود (٤٤٧) والبزار (زوائد - ٢٠٢/١).كلهم من طريق الثقة: جامع بن شداد عن عبد الرحمن بن أبي علقمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود. ولي ملاحظة على هذا التصحيح للسند، نظراً لأن الشيخ رحمه الله اكتفى بقوله في الإرواء (٢٩٣) إسناده صحيح دون أن يتحدث عن سنده ومتنه، لا سيما وقد أورده شاهداً لحديث عند البخاري، وجعله موازياً لحديث عند مسلم يحمل قصة مماثلة. لكن عند التدقيق في السند والمتن يتبين عذري في إبداء ملاحظة على تصحيح الشيخ فحديث مسلم يتحدث عن خيبر، وهذا الحديث يتحدث عن الحديبية، أما السند، ففيه إشكال حول الراوي عن ابن مسعود، فالرجل مشكوك في صحبته وهو غير الصحابي الذي روى قصة وفد ثقيف، فقال الدارقطني: لا تصح له صحبة ولا نعرفه. وقال أبو حاتم: هو تابعي ليست له صحبة، فإذا تجاوزنا وقلنا إنه تابعي كبير روى عنه ثقتان، فلا يمكن قبول مخالفته لحديث مسلم وأن ذلك وقع بعد خيبر كما سيأتي، وهو ما مال إليه ابن عبد البر وابن القيم في الزاد.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٧).

فطابت نفســه ورجع)[1] من حيث أتى، ورجعت السـكينة إلى قلبه، وهدأت ثائرته واستبشر خيراً وفتحاً مؤكداً.

أما الصحابــي الجليل المدعو: (مجمع بن جارية الأنصــاري، وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن، قال: شــهدنا الحديبية مع رســول الله ﷺ، فلمــا انصرفنا عنها «إذ الناس يهزون الأباعر، فقال بعض الناس لبعض: ما بال الناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ.

فخرجنا مع الناس نوجف، فوجدنا النبي ﷺ واقفاً على راحلته عند كراع الغميم، فلما اجتمع عليه الناس» قرأ عليهم ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فقال رجل: يا رسول الله، أفتح هو؟

قال ﷺ: نعم «والذي نفسي بيده إنه لفتح»)[2]

ارتفعت المعنويات ونشــط الجميع، فالنصر فــي الطريق، وليس النصر وحده في الطريق.. هناك أشــياء وأشياء.. هناك الهبات والمعجزات، والدهشة التي لا تنقضي.. ســار الجميع نحو المدينة الحبيبة وكلهم شوق وعطش، وفي الطريق نفد الماء، ولم يبق أحد معه ماء ســوى النبي ﷺ، الذي احتفظ به بإناءٍ جلدي صغير يســمونه «الركوة». حمل الصحابة عطشهم وشكواهم إلى الله، ثم إلى رسوله، فـ:

تحولت الركوة إلى نهر عذب

شرب منها الجميع، وتوضأوا وتنظفوا.

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله ﷺ: ما لكم؟ قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ما نتوضأ به، ولا نشرب إلا ما في ركوتك.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣١٨٢) ومسلم الجهاد (١٧٨٥) واللفظ له والزوائد للبخاري.

(٢) حكم الإمام الألباني رحمه الله بضعف هذا الحديث في ضعيف أبي داود (٢٦٨) وهو عند التدقيق أقوى من حديث أحمد السابق الذي صححه رحمه الله.. أو قل مثله وذلك لعدة أسباب.. منها: أن علة سند هذا الحديث هو التابعي يعقوب بن مجمع.. وقد قال الذهبي في المستدرك بعد تصحيح الحاكم (٢/١٣١): لم يرو مسلم لمجمع شيئاً ولا لأبيه -يعني يعقوب- وهما ثقتان. وإذا تجاوزنا هذا لأن الذهبي متأخر فالرجل تابعي روى عنه أربعة اثنان منهم ثقات وهما: ابنه مجمع وسفيان الثوري وضعيفان ووثقه ابن حبان.. لكن كل ذلك لا يكفي إلا أن للحديث شاهداً قوياً وهو ما قبله وهو به حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة.

فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، «فأدخل يده فيه وفرج أصابعه، ثم قال: [خذوا بسم الله] حي على أهل الوضوء البركة من الله.

فلقــد رأيت المــاء يتفجر من بين أصابعه [كأنها عيون، فوســعنا وكفانا]، فتوضأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جلعت في بطني منه، فعلمت أنه بركة)[1] ومعجزة لهذا النبي العظيم.. أهداها الله له ولأصحابه.. لخير أهل الأرض.. لأهل الحديبية، وأهل بيعة الرضوان رضي الله عنهم.

واصل النبي ﷺ وصحابته الكرام مســيرهم، ثم توقفوا للراحة، وهذه المرة جاءوا يشكون جوعاً شديداً.. فهل ستحدث

معجزة في الطعام أيضاً

بل وفي الشراب مرة ثالثة، وذلك (لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كلمه بعض أصحابه، فقالوا: جهدنا وفي الناس ظهر[2]، فانحره لنا فنأكل من لحومه، ولندهن من شــحومه، ولنحتذي[3] من جلوده..؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تفعل يا رسول الله، فإن الناس إن يكن معهم بقية ظهر أمثل[4].

فقال رسول الله ﷺ: ابسطوا أنطاعكم[5] وعباءكم. ففعلوا. ثم قال: من كان عنده بقية من زاد وطعام فلينثره.

ودعا لهم ثم قال: قربوا أوعيتكم، [فأكلوا حتى تضلعوا[6] شــبعاً ثم لفقوا فضول مــا فضل[7] من أزوادهم في جربهم] فأخذوا ما شــاءوا)[8] وكان من بين الذين أخذوا

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٢) والزوائد له (٥٦٣٩).

(٢) ما يركب من الإبل والخيل والبغال والحمير.

(٣) أي يتخذ جلده حذاءً.

(٤) أحسن وأفضل.

(٥) النطع هو البساط من الجلد أو السفرة الجلدية.

(٦) امتلأوا شبعاً.

(٧) ما زاد.

(٨) حديث حســن رواه البيهقي ٤-١١٩ من طريقين الأولى من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري قال: قال ابن عباس. والأخرى: من طريق يحيى بن ســليم الطائفي عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الطفيل عن ابن عباس. الأولى رجالها ثقات لكن هناك احتمال انقطاع بين ابن عباس وابن شــهاب، لكن تشهد لها الطريق الأخرى وفيها ضعف يسير من أجل يحيى بن سليم وهو صدوق من رجال الشيخين إلا أنه سيء الحفظ، التقريب ٥٩١ ويشهد للحديث ما رواه مسلم وهو الحديث التالي.

(سلمة بن الأكوع) رضي الله عنه الذي يقول: (أصابنا جهد، حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمر نبي الله ﷺ فجمعنا مزاودنا، فبسطنا له نطعاً، فاجتمع زاد القوم على النطع، فتطاولت لأحزر كم هو؟ فحزرته كربضة العنز[1]، ونحن أربع عشرة مائة، فأكلنا حتى شبعنا جميعاً، ثم حشونا جربنا، فقال نبي الله ﷺ: فهل من وضوء؟

فجاء رجل بإداوة له، فيها نطفة، فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا: ندغفقه[2] دغفقة أربع عشرة مائة. ثم جاء بعد ذلك ثمانية، فقالوا: هل من طهور، فقال رسول الله ﷺ: فرغ الوضوء)[3].

كانت تلك المعجزات تسلية لتلك النفوس، وتثبيتاً لتلك القلوب التي أصابها ما أصابها بعد صد قريش ورفضها وشروطها الظالمة.. انتهت تلك المعجزات بالصحابة إلى شواطئ الأمن واليقين، وانتهو جميعاً إلى مكان بين مكة والمدينة.. قريب من بني لحيان، وفي ذلك الموقع الحرج.. أثار ﷺ حب الفداء والشهادة في أصحابه من جديد، وكان لسلمة بن الأكوع تميز آخر في هذا الموقع، وبالتحديد:

على جبل بين الحديبية والمدينة

يقول سلمة رضي الله عنه: (ثم خرجنا راجعين إلى المدينة، فنزلنا منزلاً، بيننا وبين بني لحيان جبل وهم مشركون، فاستغفر رسول الله ﷺ لمن رقى هذا الجبل الليلة، كأنه طليعة النبي ﷺ وأصحابه.

قال سلمة: فرقيت تلك الليلة مرتين أو ثلاثاً، ثم قدمنا المدينة)[4] ولم يحدث قتال بين النبي ﷺ وبين بني لحيان، لكن المدينة تعرضت لهجوم مباغت من عصابة من فزارة وغطفان.. بقيادة رجل يقال له (عبد الرحمن بن عيينة الفزاري) وقد نهب في ذلك الهجوم كل إبل النبي ﷺ، واستاقها غنيمة معه، فهاجت من أجل ذلك معركة، غزوة كان بطلها فارس الإسلام (سلمة بن الأكوع) حدثت تلك الغزوة في مكان يقال له ذو قرد وبه سميت:

---

(١) أي مبرك العنز.

(٢) نصبه صباً شديداً.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم -اللقطة (١٧٢٩).

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٧).

غزوة ذي قرد

بطل هذه الغزوة، الذي نفثت فيه بيعة نبيه له على الموت معنويات استثنائية يحدثنا فيقول: (كانت لقاح[1] رسول الله ﷺ ترعى بـ: ذي قرد، فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال: أُخذت لقاح رسول الله ﷺ. فقلت: من أخذها؟ قال: غطفان «وفزارة». فصرخت ثلاث صرخات: يا صباحاه.

فأسمعت ما بين لابتي المدينة، ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم بذي قرد، وقد أخذوا يسقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلي، وكنت رامياً، وأقول:

أنا ابن الأكوع والليوم يوم الرضع[2]

وذلك بعد أن (قدمنا المدينة، فبعث رسول الله ﷺ بظهره[3] مع رباح، غلام رسول الله ﷺ، وأنا معه، وخرجت معه بفرس طلحة أنديه مع الظهر[4]، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ، فاستاقه أجمع، وقتل راعيه. فقلت: يا رباح، خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه. ثم قمت على أكمة[5]، فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثاً: يا صباحاه.ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجز، أقول:

أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

فألحق رجلاً منهم، فأصك سهماً في رحله، حتى خلص نصل السهم إلى كتفه[6]، قلت:

خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

فوالله مازلت أرميهم وأعقر[7] بهم، فإذا رجع إلي فارس أتيت شجرة فجلست في أصلها، ثم رميته، فعقرت به، حتى إذا تضايق الجبل، فدخلوا في تضايقه علوت

(١) ذات الدر من الإبل.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٦) والزوائد للبخاري (٣٠٤١).

(٣) الدابة التي تركب أو تحمل المتاع والأثقال.

(٤) أي يورده الماء ثم المرعى والعكس.

(٥) أي تل كما جاء في بعض الألفاظ.

(٦) أي وصلت حديدة السهم إلى كتفه.

(٧) يقصد أنه يجرحهم أو يصيبهم.

الجبـل، فجعلت أرديهم[1] بالحجـارة، فمازلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه[2]، ثم اتبعتهم أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحاً، يستخفون. ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً[3] من الحجارة، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى أتوا متضايقاً من ثنية فـإذا هم قد أتاهم فلان «عيينة» ابن بدر الفزاري، فجلسـوا يتضحون، يعني يتغدون، وجلست على رأس قرن.

قال «عيينة» الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح[4]، والله ما فارقنا منذ غلس، يرمينا حتى انتزع كل شيء من أيدينا. قال: فليقم إليه نفر منكم، أربعة.

فصعد إلي منهـم أربعة في الجبل، فلما أمكنوني من الـكلام، قلت: أتعرفونني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قلت: أنا سـلمة بـن الأكوع، والذي كرم وجه محمد ﷺ، لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم فيدركني، قال أحدهم: أنا أظن.

فرجعوا، فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسـول الله ﷺ يتخللون الشـجر، فـإذا أولهم: الأخرم الأسـدي، على إثـره أبو قتادة الأنصاري، وعلـى إثره المقداد بن الأسـود الكندي. فأخذت بعنـان الأخرم. فولوا مدبرين. قلت: يـا أخرم، إحذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه.

قال: يا سـلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق، والنار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة.

فخليته، فالتقى هو وعبد الرحمن، فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله وتحول على فرسه، ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن، «فاختلفا طعنتين فعقر بأبي قتادة» فطعنه، فقتله «أبو قتادة وتحول أبو قتادة إلى فرس الأخرم، ثـم إني خرجت أعدو في أثر القوم» فوالذي كـرم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجلي، حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم شـيئاً، حتى يعدلوا قبل

(١) أرميهم.
(٢) تركوها لسلمة.
(٣) أعلام من الحجارة.
(٤) التعب والإجهاد الشديد.

غروب الشمس إلى شعب فيه ماء، يقال له ذو قرد، ليشربوا منه وهم عطاش. فنظروا إليَّ أعدو وراءهم، فخليتهم عنه -يعني أجليتهم عنه - فما ذاقوا منه قطرة، «فعطفوا عنه وأسندوا في الثنية[١]، ثنية ذي شر وغربت الشمس» ويخرجون فيشتدون[٢] في ثنية، فأعدو فألحق رجلاً منهم، فأصكه بسهم في نغض[٣] كتفه. قلت:

خذها وأنا ابن الأكوع   واليوم يوم الرضع

قال: يا ثكلته أمه.. أي أكوعة بكرة[٤].

قلت: نعم يا عدو نفسه، أكوعك بكرة «وكان الذي رميته بكرة[٥]، فاتبعته بسهم آخر، فعلق به سهمان» وأرادوا فرسين على ثنية، فجئت بها أسوقها إلى رسول الله ﷺ، ولحقني عامر بسطيحة[٦] فيها مذقة من لبن، وسطيحة فيها ماء، فتوضأت وشربت، ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي حلأتهم[٧] عنه، فإذا رسول الله ﷺ «في خمسمائة» قد أخذ تلك الإبل، وكل شيء استنقذته من المشركين، وكل رمح وبردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل الذي استنقذت من القوم، وإذا هو يشوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها. قلت: يا رسول الله، خلني فأنتخب من القوم مائة رجل، فأتبع القوم، فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته.

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النهار، فقال: يا سلمة، أتراك كنت فاعلاً؟ قلت: نعم والذي أكرمك. فقال: إنهم الآن ليقرون في أرض غطفان.

فجاء رجل من غطفان فقال: «مروا على فلان الغطفاني فـ» نحر لهم فلان جزوراً، «فلما أخذوا يكشطون جلدها» فلما كشفوا جلدها رأوا غباراً، فقالوا: أتاكم القوم، فخرجوا هاربين. فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة. ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس، وسهم

---

(١) الطريق في الجبل.
(٢) يركضون.
(٣) أعلى غضروف الكتف.
(٤) أي هو الذي جاءنا في الصباح الباكر مازال يلاحقنا.
(٥) مبكراً.
(٦) قربة جلد.
(٧) منعهم عنه.

الراجل، فجمعها لي جميعاً، ثم أردفني رسـول اللـه ﷺ وراءه على العضباء، راجعين إلى المدينة)[1].

كان سـلمة أسـطورة من الشجاعة والإقدام.. كان جسـداً مفتولاً لله.. يعرق في دروب الشـهادة وينزف.. كان قلباً ينبض بالفداء والجسـارة، فلا عجب أن بايعه ﷺ ثلاث مرات، ولا عجب أن بايعه على الموت.

تمتع سـلمة بمرادفة النبي ﷺ على العضباء.. وشـرف بلمس جسـده الكريم، وفي ساعات الجد تلك كان لسلمة رغبة في اللهو والتحدي.. في طريق المدينة وأمام عينيه ﷺ وبين يديه مارس سلمة ورجل من الأنصار لهواً وتحدياً ومرحاً.

سلمة يسابق رجلاً من الأنصار يتحدى الجميع

يواصل سلمة رضي الله عنه بقية حديثه فيقول: (ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، «فلما كان بيننا وبينها قريب من ضمرة» فبينما نحن نسـير، وكان رجل من الأنصار لا يسبق شداً، فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسـابق؟ فجعل يعيد ذلك، فلما سـمعت كلامه «وأنا وراء رسول الله ﷺ مردفي» قلت: أما تكرم كريماً، ولا تهاب شريفاً؟

قال: لا، إلا أن يكون رسول الله ﷺ.

قلت: يا رسول الله، بأبي وأمي، ذرني فلأسابق الرجل. قال: إن شئت. قلت: أذهب إليك.

«فطفـر[2] عن راحلته» وثنيت رجلي، فطفرت فعدوت، فربطت[3] عليه شـرفاً أو شـرفين أستبقي نفسي، ثم عدوت في إثره، فربطت شرفاً أو شرفين، ثم إني رفعت[4] حتى ألحقه، فأصكه بين كتفيه. قلت: قد سبقت والله.

---

(١) صحيح رواه مسـلم - الجهاد (١٨٠٧) والزوائد للبيهقـي (١٨٢/٤) وهي صحيحة، وقد رواه البيهقي من طريقين عن هاشم بن القاسم وهو أحد رواة مسلم لهذا الحديث به.

(٢) قفز.

(٣) أي جريت جريا خفيفاً، والشرف المكان المرتفع، وفعل ذلك لكي يبقي طاقته للنهاية.

(٤) أسرعت في الجري.

«فضحك» وقال: أنا أظن. فسبقته إلى المدينة)[1]

مشـــهد بريء ومفرح، ومرح متاح يمارســـه هؤلاء الفرسان الأشداء العظماء بعيداً عن التنطع والتطرف، لأنهم بين يديه ﷺ، ويداه كانتا ربيعاً.. ينثال ذلك الربيع للجميع، والجميع الآن في المدينة.. يرتاحون من عناء الحديبية وذي قرد، ويغتسلون من غبار السفر.

كانت المدينة بانتظارهم، لكنها لم تكن بانتظار هذا الفارس الذي تعشـــقه مثلهم.. تعشقه لكنها لا تستطيع احتضانه.. فارس أضناه الشوق إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، ولم يتعبه الأسر ولا السفر، ولم تستطع أغلال قومه تحطيمه.. هو الذي حطمها وهب كالريح نحو مدينة الحرية والإيمان.

وصل هذا المشتاق إلى المدينة فإذا هو:

أبو بصير في المدينة

والمعاهـــدة بين النبي ﷺ وقريش لا تزال ســـارية المفعول والبنود، فماذا ســـيكون مصيره وهو الهارب من قومه.. المهاجر إلى الله ورســـوله ﷺ..؟ هل سيرده كما رد أبا جندل من قبل..؟

لقد (رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاء أبو بصير -رجل من قريش- وهو مســـلم، فأرسلوا في طلبه رجلين. فقالوا: العهد الذي جعلت لنا..؟

فدفعه ﷺ إلـــى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت.

فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى برد[2] وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً.

فلمـــا انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم.

---

(١) حديث صحيح وهو جزء من حديث مسلم السابق.

(٢) أي ضعف وفتر والمقصود أنه مات.

قال النبي ﷺ: ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد.

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر)[1]

يا إلهي.. ألهذه الدرجة بلغ التزام نبينا عليه السلام بالمعاهدات والمواثيق والعهود..!! من يفعل ذلك..؟ يسلم صاحبه للمشركين، ثم يهم بتسليمه مرة أخرى..!!

رائع هذا الدين.. رائع من يلتزم به منكراً أهواءه وميوله وغرائزه.. صلح الحديبية دروس لو استوعبها مجاهدونا الأشاوس لما أصابهم ما أصابهم.

في هذه الأثناء التي لجأ فيها أبو بصير إلى جوار البحر.. فر أبو جندل من أسره، وانطلق يحمل حريته بيديه، فترامى إلى سمعه أن أبا بصير هناك.. كالأسد الرابض على ساحل البحر الأحمر، فانطلق إليه، واتحد معه في تشكيل مساحة من الرعب والخوف ليس لها حدود سوى الموت، فبعد أن (قال النبي ﷺ ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر.

وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم)[2] وتركوا لقريش النواح على قتلاها، والندم على صدها لمحمد وأصحابه، والحسرة على تلك الشروط التي زرعت في طريقها أولئك الأسود.. أولئك الشباب الذين ضيقت عليهم طواغيت الشرك كل طرق الحياة الطبيعية، أغلقتها وأشرعت لهم طريقاً واحداً.. طريق العنف المضاد، فحول أولئك الشباب ذلك الطريق إلى نهر تهدر فيه دماء قريش وكرامتها، حولوا حياة قريش إلى جحيم ونواح.. حولوا طرقاتها إلى رعب وتلفت.. وتجارتها إلى كساد حين قطعوا شريان التجارة الذي يصلهم بالشام.

لكن ماذا عن محمد ﷺ، أليس شريكا فيما يحدث لقريش من إرهاب..؟

لا.. أبداً على الإطلاق.. إنه في حل مما يحدث لمجرمي قريش، ولا مسؤولية عليه مادام هذا العنف المضاد لا يمارس داخل حدود دولته، فقد فعل ما لم يفعله غيره..

---

(١) هو حديث المسور ومروان الطويل الصحيح.

(٢) هو حديث المسور ومروان الطويل الصحيح.

رفض استقبال أولئك المظلومين بل سلمهم تنفيذاً لشروط قريش وإرادتها الظالمة، ورفض حمايتهم، أو إمدادهم، في الوقت الذي يتمتع فيه مواطنون يهود ووثنيون بالأمن تحت حماية دولته في المدينة.. إنها معركة بين قريش وبين فتية حارت بهم الدروب، وضاقت بهم السبل..

من مثل محمد ووفاء محمد ﷺ..؟

وإلى أن تأتي الإجابة على قريش أن تتحمل مسؤولية طغيانها، أما النبي ﷺ، فبعد أن رد صاحبه أبا بصير الذي جعلته المعاهدة طريداً شريداً.. لا يملك مساحة يعيش عليها سوى مساحة سيفه.. توجه ﷺ إلى أصحابه المتعبين من طول السفر، وأمرهم بالاستعداد من جديد، لسفر جديد. فقد أمن شر قريش، وأشغلها أبو بصير وأبو جندل ومن معهما بالرعب المشروع، والسيوف الملتهبة، وقد حان تأديب أحد أطراف معركة الخندق، وهم اليهود القابعون في حصون خيبر، فلا يكفي قتل قائدهم الخائن أبي رافع (سلاَّم بن أبي الحقيق) وهو داخل حصنه في خيبر، ففي داخل ذلك الحصن أكثر من سلاَّم، وأكثر من خيانة، لذلك قرر ﷺ

غزو خيبر

وذلك بعد ثلاثة أيام فقط من عودته من غزوة ذي قرد.

يقول سلمة ابن الأكوع في نهاية حديثه عن سباقه مع ذلك الأنصاري: (فسبقته إلى المدينة، فوالله، ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ)(١).

وقبل أن يخرج النبي ﷺ دعا صحابياً جليلاً يدعى (سباع بن عرفطة) فأمره بالبقاء في المدينة ثم توجه إلى (خيبر وقد استخلف سباع بن عرفطة على المدينة)(٢) وجعله أميراً عليها ثم سار إلى خيبر، وفي الطريق خيم الليل وانتشرت نجومه، فأيقظت تلك الأجواء المخملية شجون أحد الصحابة، وحركت مشاعره، فالتفت إلى عم سلمة بن الأكوع واسمه: عامر، وكان داخل عامر رضي الله عنه من المشاعر ما

(١) حديث صحيح رواه مسلم وهو جزء من الحديث السابق عند مسلم (١٨٠٧).
(٢) سنده قوي وسيأتي بعد الحديث التالي.

يوازي تلك الأجواء، وما يشـجي ذلك الصحابي ويطربه، فقد كان عامر شاعراً، وكان عذب الصوت أيضاً، فطلب منه أن يتغنى بأبيات ومشـاعر يتحدث عنها سـلمة رضي الله عنه فيقول:

(خرجنـا مع النبي ﷺ إلى خيبر، فتسـيرنا ليلاً، فقـال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسـمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً. فنزل يحدو بالقوم «فجعل عمي عامر يرتجز» بالقوم يقول:

اللـهم لـولا أنـت مـا اهـتـدينـا ... ولا تـصـدقـنـا ولا صـلـيـنـا
فـاغـفـر فـداء لـك مـا اقـتـفيـنـا ... وثـبـت الأقـدام إن لاقـيـنـا
وألـقـين سـكـيـنـة عـلـيـنـا ... إنـا إذا صـيـح بـنـا أتـيـنـا
«والمـشـركـون قـد بـغـوا عـلـيـنـا» ... وبـالـصـيـاح عـولـوا عـلـيـنـا

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر. قال: يرحمه الله «غفر لك ربك.

قال سـلمة: وما استغفر رسـول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد، فنادى عمر بـن الخطاب وهو على جمل: يا نبي الله، لولا ما متعتنا بعامر»؟ فقال رجل من القوم: وجبت يا رسول الله..؟ لولا أمتعتنا به)[1].

يا لها من ليلة.. تغنى فيها عامر، وحرك الصحابة والمشاعر، وشد حداؤه النبي ﷺ حتى سأل عنه، فدعا له بالمغفرة والرحمة، وبشره بالشهادة، فتمنى عمر بقاءه بينهم.

مشـهد عذب يقدمه ﷺ للمتطعين.. لم يكن الإنشـاد والشعر حميماً في طريق خيبر فحسـب، فالشعر في كل مكان تتحرك فيه المشاعر، ولئن تحركت مشاعر عامر وهو في طريقه إلى خيبر، فلقد تحركت مشـاعر حافظة الإسـلام وذاكرته، وهو في طريقه إلى المدينة.. إلى النبي ﷺ.

العلـم يمـان، وهذا اليماني العظيـم المتعطش للنبي ﷺ.. المتعطـش للعلم.. في طريقه للمدينة.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٢) والزوائد للبخاري.. والشطر الزائد لمسلم.

أبو هريرة في الطريق

قادم من دوس، من اليمن.. ذاكرة تحلم بأحاديث الحبيب ﷺ.. ليس بين سطورها مكان للدينار والدرهم.

أبو هريرة قادم لا يملك من الدنيا سوى غلام، وحتى هذا الغلام ضاع، فخيم الليل والفقر على أبي هريرة، وخيم الشعر كذلك.. لـ (أنه لما أقبل يريد الإسلام ومعه غلام ضل كل واحد منهما من صاحبه)[1] يقول رضي الله عنه عن تلك الليلة: (لما قدمت على النبي ﷺ قلت في الطريق:

يا ليلة من طولها وعنائها ... على أنها من دارة الكفر نجت

وأبق مني غلام في الطريق)[2]

واصل أبو هريرة معاناته ومسيره حتى وضعته أقدامه على أرض المدينة، وربما كانت أمه بصحبته، فقد كان من أعظم الناس براً.. رغم كفرها ورفضها للإسلام.

صادف رضي الله عنه آخرون يقصدون المدينة مثله، ووصل أبو هريرة ورفاقه ليلاً فلم يجد النبي ﷺ.

سأل عنه، فأخبروه أنه قد توجه إلى خيبر.. سأل عن نائبه في المدينة، فقيل له إنه يماني يدعى سباع بن عرفطة الغفاري رضي الله عنه، وبعد أن: (قدم المدينة في نفر من قومه وافدين، وقد خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر، واستخلف على المدينة رجلاً من بني غفار يقال له: (سباع بن عرفطة)، فأتيناه وهو في صلاة الصبح، فقرأ في الركعة الأولى: كهيعص، وقرأ في الركعة الثانية: ويل للمطففين.

قال أبو هريرة: فأقول في الصلاة: ويل لأبي فلان له مكيالان، إذا اكتال اكتال بالوافي، وإذا كال.. كال بالناقص، فلما فرغنا من صلاتنا أتينا سباعاً، فزودنا شيئاً حتى قدمنا على رسول الله ﷺ)[3]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٣٠).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٣١)

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٣٩٠ وأحمد ٢-٣٤٥ وابن سعد ٤-٣٢٧ من طرق عن خثيم بن عراك بن مالك. عراك ثقة فاضل وابنه صحيح الحديث التقريب ٣٨٨ و١٩٣.

لم يتحرك أبو هريرة ومن معه فقط نحو أرض خيبر.. كان هناك من يشق عباب البحر نحو خيبر.. سفينة تحمل المؤمنين.. تحمل الغرباء المعذبين.. جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء ومن معهما من المهاجرين الأولين، وأبو موسى الأشعري ومن معه من مهاجري اليمن.. اجتمعوا في الحبشة، ولما وصلهم خبر الحديبية واستقرار الأمر على الصلح.. ركبوا أمواج البحر والفرح حتى قذفتهم على سواحل البحر الشرقية.. رياح المشاعر كلها نحو خيبر.. الجميع نحو خيبر إلا:

علي بن أبي طالب يتخلف في المدينة

لم يأمره النبي ﷺ بالبقاء، ولم يعينه بديلاً لسباع بن عرفطة أو أميراً عليه، فما الذي يجعلك يا أبا الحسن بعيداً عن حبيبك؟

سلمة بن الأكوع يجيب عن علي فيقول: (كان علي رضي الله عنه تخلف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان رمداً فقال: أنا أتخلف عن النبي ﷺ، فلحق به)[1].

إذا فهو الرمد، وكيف يقاتل المرء وعينه مصابة بالرمد..؟

لكن علي رضي الله عنه قرر ذلك، فطار نحو حبيبه ﷺ متناسياً معاناته ومرضه وعينه، حتى وصل إلى النبي ﷺ.

الرجال على الخيل والإبل والأقدام من كل مكان يتجهون نحو مهوى الفؤاد وقرة العين محمد ﷺ.. ونحو خيبر، لكن هناك من سبقهم وتغلغل في حصن اليهود قبلهم.. شيء جميل ليس من المدينة ولا حتى من البشر سبق الجميع..!

القمر.. يهوي من السماء فيقع في حصن خيبر، فيصيب أحدهم الفزع.. ما قصة القمر الذي هوى في حضن خيبر..؟

القمر الذي هوى في حصن خيبر

في ذلك الحصن.. حيث الظلام في كل مكان.. حيث اليهود نيام.. كانت هناك فتاة من اليهود من بني النضير، هربت نحو خيبر قبل قتل أبيها بعد معركة الخندق..

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٠٩).

أبوهـــا الذي خان لله ورســـوله ونقض العهد وتآمر على وطنـــه، وخان من تآمر معهم. وقد تزوجت هذه الفتاة من يهودي يقال لـه «كنانة بن أبي الحقيق» وهي الآن في ليالي زفافها الأولى.

وهي الآن تغط في نوم العرائس، لكنها ترى شيئاً عجيباً.. نهضت الفتاة من نومها، فأخبرت عريســـها.. ربما كانت تظن أن هذه الرؤيا ستسعده كما سعدت بها. لكن هذا العريس فسر هذه الرؤيا بطريقة يهودية فريدة من نوعها. لقد كان تفسيره لهذه الرؤيا لكمة بقبضته القاسية إلى ذلك الوجه الجميل.. لكمة اخضرت منها عيناها.

من هذه الفتاة؟ ومن هو زوجها الملاكم هذا؟ وما تفسير هذه الرؤيا؟

على أرض خيبر تلكم العروس

فـــي إحدى حصونها تزف الآن أميرة إلى أمير.. يحتفل اليهود بذلك الزفاف على طريقتهـــم الخاصة، ويتوجه العروســـان إلى مخدعهما بعد أن حـــل الظلام على تلك الأرض وتلك الحصون، وبعد أن نامت العروس ونام الأمير ونام الجميع ســـاد السكون والظلام على أرض خيبر وسمائها.

وفجأة ظهر البدر في الســـماء.. لم يشـــاهده أحد ســـوى الأميرة، وعندما رمته بطرفها هوى بين يديها، واستقر برفق في أحضانها.

انتبهت الأميرة فإذا هو حلم لكنها لا تعرف تفسيره، وعندما استيقظ أميرها توجهت إليه بود علها تجد لديه تفسيراً لذلك الحلم، لكن ذلك الأمير كان أرعناً عديم التهذيب.

كانت أميرته تنتظر كلماته بشغف، لكن قبضته القاسية انطلقت كالقذيفة نحو ذلك الوجه الجميل.. لكمة شديدة سددها لعينيها حتى اخضرت منها، ثم بصق بكلمات أشد مـــن تلك اللكمة على مشـــاعر تلك الفتاة. لقد اتهم هـــذا الجلف المدعو: (كنانة بن أبي الحقيق)[1] هذه الفتاة بأنها تحلم بالزواج من ملك المدينة.. يعني محمداً عليه السلام.

---

(١) هو ابن زعيم خيبر الذي قتله الصحابي عبد الله بن عتيك داخل حصنه في خيبر .. واسمه سلام بن أبي الحقيق وقد مرت معنا قصة اغتياله لأنه كان أحد المتآمرين في غزوة الخندق، وهو الذي آوى زعيم بني النضير حيي بن الأخطب والد هذه الفتاة. وقد قتل حيي في المدينة بعد قدومه من أرض خيبر لتأجيجه الخيانة والغدر بالمسلمين من خلال تحريضه بني قريظة.

بينما تقول تلك الأميرة واسمها صفية بن حيي بن أخطب: «كان رأسي في حجر ابن أبـــي حقيق وأنا نائمة، فرأيــت كأن قمراً وقع في حجري، فأخبرته بذلك [قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم قمراً وقع في حجري] فلطمني وقال: تمني ملك يثرب»(١)

آلمتها تلك اللكمة، وأحزنتها تلك الكلمات وذلك التفسير، لأنها بريئة طاهرة تتساءل وتسأل زوجها: «وما كان أبغض إلي من رسول الله، قتل أبي» حيي بن أخطب.

إذاً فهذان العروسان يحملان بغضاً شديداً لهذا النبي القادم من ديار صفية.. من المدينة، وهما يشتركان في حمل ثأر ثقيل ومرير، أما النبي ﷺ فما زال في طريقه إلى خيبر، وقبل خروجه من المدينة توجه بحديثه إلى صاحبه الكريم أبي طلحة زوج أم سليم فـ «قال لأبي طلحة: التمس غلاماً من غلمانكم يخدمني حتى أخرج من خيبر»(٢).

لم يجد أبو طلحة أنســب من أنس بن مالك ابن زوجته أم ســليم رضي الله عنهم جميعاً، فاستبشر أنس بهذه الوظيفة - الشرف، وحدث من حوله فقال: «فخرج بي أبو طلحة مردفي، وأنا غلام راهقت الحلم فكنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل»(٣).

كان ذلك المسير يهدف إلى تجفيف منابع الغدر المنحدر من أرض خيبر، أما تاريخ المســير فكان في شــهر محرم، وفي الطريق كان النبي ﷺ يقرأ كل احتمالات الخطر. فعندمـــا وصل ﷺ إلى وادٍ بين غطفان وخيبر يقال له الرجيع.. توقف لقطع أي إمداد عسكري قد تقوم به غطفان لأصدقائها اليهود.

يقول أحد الصحابة إن النبي ﷺ: «ســـار إلى خيبر في المحرم، فنزل رســـول الله بالرجيــع -واد بين خيبر وغطفان- فتخوف أن تمدهـــم غطفان، فبات به حتى أصبح فغدا إليهم» (٤).

---

(١) ســنده صحيــح رواه ابن حبان واللفظ له ١١-٦٠٧ والطبرانــي والزيادة له ٢٤-٦٧ من طريق الإمام الثقة حمــاد بن ســلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمــر. وعبيد الله ثقة ثبت، من أوثق الناس عن الإمام الثقة نافع. انظر التقريب ٣٧٣ ورواه غيرهم.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٩٣.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٩٣.

(٤) ســنده صحيح رواه ابن إســحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-١٩٧ حدثني الزهري عن عروة عن مروان بن الحكم والمسور. وهذا سند صلح الحديبية والسابق وهو صحيح.

كان مسير النبي ﷺ وجيشه حالة من التماهي والود تثير المشاعر والدهشة.. كان ﷺ في مسـيره ذلك يفتح لهم قلبه.. يفتح لهم الكنوز ليأخذوا منها ما شاءوا، فحينما «أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير:

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله

فقال رسـول الله ﷺ: أربعوا على أنفسـكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم»(١)

يقول ذلك الصحابي: «وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ، فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

فقال لي: يا عبد الله بن قيس. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة؟ قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي.

قال: لا حول ولا قوة إلا بالله»(٢).

ورآه مولاه شـقران رضي الله عنه يسن فسـحة لهذه الأمة، وسياحة مع الله دون مشقة أو تعب.

يقول شـقران: «رأيته يعني النبي ﷺ متوجهـاً يوم خيبر على حمار، يصلي يومئ إيمـاء»(٣) دون الحاجة إلى مس ظهر الحمار، أو مس وجه الأرض، أو القيام عليها، بل دون التوجه إلى القبلة.. كان ﷺ لا يبالي أين اتجه به الحمار.

يقول ابن عمر رضي الله عنه: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي على حمار وهو موجه إلى خيبر»(٤) وخيبر في جهة الشـمال، والطريق متعرج، والنبي يحتاج إلى التعرج معه، ويقول ابن عمر «إن النبي ﷺ كان يصلي على راحلته حيث توجهت به»(٥).

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٤١.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٤١.
(٣) حديث حسن رواه أحمد ٣-٤٩٥ والطبراني في المعجم الأوسط ٣-١٤٩ من طريق مسلم ابن خالد الزنجي عن عمرو بن يحيى عن شقران. ومسلم صدوق له أوهام كثيرة لكن يشهد للحديث ما بعده.
(٤) صحيح مسلم ١-٤٨٧.
(٥) صحيح مسلم ١-٤٨٦.

كان ﷺ يتفقـد أصحابه في كل مواقعهم، فلم يكـن بمعزل عنهم مكتفياً بإصدار الأوامـر والنواهي.. كان يشـملهم برعايته، ويحتضنهم بقلبه.. «كان رسـول الله ﷺ يتخلف في المسـير فيزجي الضعيف ويـردف ويدعو لهم»[1]، وكانـوا كلهم يخدمونه، ويتسابقون لخدمته رغم أنه قد حدد من يخدمه.

هذا أحدهم أنس بن مالك يقول رضي الله عنه: «خرج بي أبو طلحة مردفي وأنا غلام راهقت الحلم، فكنت أخدم رسـول الله ﷺ إذا نزل فكنت أسـمعه كثيراً يقول: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال»[2]

سـمع أنس ذلك الدعاء، لكن غيره سـمع دعاء جديداً، وذلك بعد صلاة الفجر.. خلال تلك الأجواء السـاحرة، وليس هناك أجمل من فجر الصحاري، وليس هناك ألذ من النهوض فيها.

كان ﷺ «يحرك شـفتيه بشـيء بعد صلاة الفجر، فقيل له: يا رسـول الله، إنك تحرك شـفتيك بشـيء ما كنت تفعله، فما هذا الذي تقول؟ قال ﷺ: أقول: اللهم بك أحاول، وبك أقاتل، وبك أصاول»[3].

فجر جديد معطر بالنشـاط والتوحيد.. حمل الصحابة رضي الله عنهم مع نبيهم حتى وصلوا إلى مكان يقال له (الصهباء) وذلك قبل العصر.

الوصول إلى الصهباء

كان الوصول إليها يعني الاقتراب جداً من خيبر، فالصهباء هي أول منطقة خيبر. يقول أحد الصحابة واسمه (سويد بن نعمان): «إنه خرج مع رسول الله ﷺ عام خيبر، حتـى إذا كانوا بالصهباء -وهي أدنى خيبر- فصلى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت

---

(١) سنده صحيح رواه أبو داود ٣-٤٤ وغيره من طريق إسماعيل بن علية، ثنا الحجاج بن أبي عثمان عن أبي الزبير أن جابر بن عبد الله حدثهم. أبو الزبير لم يدلس والحجاج ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١٥٣ وكذلك إسماعيل: ٦٥.

(٢) صحيح البخاري ٣ : ١٠٥٩.

(٣) سـنده صحيح رواه ابن حبان ٥-٣٧٤ من موسـى بن إسماعيل وهو ثقة ثبت عن حماد بن سلمة عن ثابت البنانـي عن عبد الرحمـن بن أبي ليلى عن صهيب. عبد الرحمن تابعي كبير وثقة من رجال الشـيخين. التقريـب ٤٩٦ وكذلك ثابت، أما حماد فإمام ثقة لكنه من رجال مسـلم فقـط. ولعل الأصح أن ذلك في حنين كما سيمر.

إلا بالسويق، فأمر به فثري، فأكل رسول الله وأكلنا، ثم قام إلى المغرب، فمضمض، ومضمضنا، ثم صلى ولم يتوضأ»[1]، ثم سار ﷺ حتى وصل إلى مشارف حصون خيبر.

هنا توقف ﷺ ليتأكد من أن يهود خيبر مازالوا على غدرهم وكفرهم وأن أرضهم خالية من الإسلام.. سينتظر حتى بزوغ الفجر، فإذا لم يرفع الأذان من داخل الحصون، فإنه سيشن غارته.

لا أذان في حصون خيبر

يقول أنس: «كنت ردف أبي طلحة يوم خيبر وقدمي تمس قدم رسول الله ﷺ، فأتيناهم حين بزغت الشمس وقد أخرجوا مواشيهم، وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومرورهم»[2](وكان إذا غزا بنا قوماً، لم يغزُ بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذاناً كف عنهم، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم. فخرجنا إلى خيبر، فانتهينا إليهم ليلاً، فلما أصبح ولم يسمع أذاناً ركب، وركبت خلف أبي طلحة، وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ.

فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم [خرجوا بالمساحي على أعناقهم] فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد والله، محمد والخميس،

[فلجأوا إلى الحصن] فلما رآهم رسول الله ﷺ [رفع النبي يديه] قال: «الله أكبر، الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»)[3].

سمع اليهود التكبير، ورأوا خيل الله تزحف نحوهم، فلجأوا إلى حصونهم وتركوا الرعب والجيش يتجولان في أزقة خيبر وشوارعها. أما الحصون فقد اكتظت بالجبن واليهود، فاحتل جيش الإسلام ما أمامه من مساحات دون الحصون «فغلب على النخل والأرض» وأرجأ فتح الحصون إلى الغد لصعوبة اقتحامها، ولما جاء الغد نادى ﷺ صاحبه الصديق.

---

(١) صحيح البخاري ١-٨٦.

(٢) صحيح مسلم ٢-١٠٤٥.

(٣) صحيح البخاري ١-٢٢١ والزوائد له ٣-١٠٩٠ و٣-١٣٣٢.

أبو بكر يقود أول حملة على حصون خيبر

ناداه النبي ﷺ وأعطاه الراية، فامتثل رضي الله عنه دون تردد

يقول بريدة: «حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر ولم يفتح له»[1] أي لم يتمكن من فتح حصن خيبر، وكانت تلك السـرية تضم ثلة من شـجعان الصحابة إلا واحداً.. هو علي بن أبي طالب، الذي كان يشكو من رمد في عينيه، وفي اليوم الثاني كرر النبي ﷺ المحاولة، لكنه أعطى اللواء هذه المرة لـ:

عمر بن الخطاب يقود الحملة الثانية

يقـول بريدة وهو أحد الذين شـاركوا في تلك الحملات: «وأخـذ من الغد عمر فانصرف ولم يفتح له، وأصاب الناس يومئذ شـدة وجهد» فقد حاولوا وحاولوا، ولكن شـدة التحصين كانت حائلاً دون الفتح، لكن النبي ﷺ -رغم ذلك- يبشر بفتح خيبر، فبعد أن استعصت تلك الحصون على السرية الأولى والثانية «قال رسول الله ﷺ: إني دافع لوائي غداً إلى رجل يحب الله ورسـوله، ويحبه الله ورسـوله، لا يرجع حتى يفتح له»[2] «يفتح الله على يديه ليس بفرّار»[3].

كانت المشـاعر تحاصر حصون خيبر، وتدفع بالشمس نحو الشروق.. هبت أنسام الفجر، فنهض الصحابة للصلاة، وعندما أشـرقت الشمس لاح في الأفق الفتح، فقد خرج أشجع رجل في اليهود.

---

(١) تخريجه في نهاية الحديث.

(٢) سـنده صحيح رواه النسائي في الكبرى ٥-١٠٩ وأحمد ٥-٣٥٣ وغيرهما من طريق الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة قال سـمعت أبي: بريدة. وعبد الله تابعي ثقة والحسـين بن واقد ثقة من رجال مسلم. التقريب ١٨٠.

(٣) حديث صحيح بطرقه رواه أحمد ١-١٣٣ عن المنهال بن عمرو عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال كان أبي يسـمر مع علي ورواه ابن أبي شـيبة ٧-٣٩٦ من طريق عبيد الله قال حدثنا نعيم بن حكيم عن أبي مريم عن علي والنسـائي في الكبرى ٥-١٤٤ عمران بن بكار بن راشـد قال حدثنا أحمد بن خالد قال حدثنا محمد عن عبد الله بن أبي نجيح عن أبيه أن معاوية ذكر علي بن أبي طالب فقال سعد.

ملك خيبر يبحث عن مبارز

رجل جمع الملك والفروسية، فمن سيتصدى له..؟

أتذكرون ذلك الشاعر الذي كان يطرب الصحابة في الطريق إلى خيبر..؟ إنه عم سلمة بن الأكوع، واسمه عامر بن الأكوع. عامر هذا جمع الفروسية والشعر والحداء والتحدي أيضاً.

يقول ابن أخيه سلمة: «خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

وبرز له عمي عامر فقال:

قد علمت خيبر أني عامر ... شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، وذهب عامر يسفل له، فرجع سيفه على نفسه، فقطع أكحله فكانت فيها نفسه. فخرجت فإذا أصحاب النبي ﷺ يقولون: بطل عمل عامر، قتل نفسه.

فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله بطل عمل عامر؟ قال رسول الله ﷺ: من قال ذلك؟ قلت: أناس من أصحابك. قال: كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين ثم أرسلني إلى»[1].. إلى من..؟

أرسله إلى فارس خيبر المنتظر، لكن تفاصيل حدثت قبل إرساله نحتاج إلى معرفتها، فالصحابة ينتظرون اسم الفارس الذي سيفتح خيبر.

يقول سهل بن سعد عن تشوق الصحابة وتجمعهم لذلك: «فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها»[2] كل الصحابة يرجونها.. كلهم مرشحون إلا واحداً.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٤٠.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٥٧.

عمر بن الخطاب يحدثنا عن مشاعر ذلك الصباح فيقول: «فما أحببت الأمارة قبل يومئذ، فتطاولت لها، واستشرفت رجاء أن يدفعها إلي»(١)

بريدة رضي الله عنه يقول: «وأنا فيمن تطاول لها»(٢).

أما النبي ﷺ فقد كرر بث الحماس في أصحابه، كما فعل في غزوة أحد فقال: من يأخذ الراية بحقها؟ (أخذ رسول الله ﷺ الراية فهزها ثم قال: من يأخذها بحقها؟ فجاء الزبير فقال: أنا

فقال: أمط. ثم قام رجل آخر فقال: أنا. فقال: أمط. ثم قام آخر. فقال: أنا. فقال: أمط.

فقال رسول الله ﷺ: والذي أكرم محمد لأعطينها رجلاً لا يفر بها)(٣).

صرح النبي ﷺ بفارس هذا اليوم ونطق باسمه.. كان اسماً غير مطروح ولا متوقع، نظراً لظروف هذا الفارس الصحية، والحالة التي يمر بها، فهو لم يشارك في أي سرية من السرايا في الأيام السابقة، وما أخرجه من المدينة سوى الشوق لنبيه ﷺ، وإلا فهو في حالة عذر عن القيام بأعباء الجهاد، بل إنه عاجز تماماً عن الجهاد.. رغم ذلك كله:

النبي ﷺ ينادي علياً

غدا الصحابة «على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول الله.. فأرسلوا إليه فأتوني به»(٤).

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه خارج قوائم الترشيح عند الصحابة، حتى لقد قال سلمة بن الأكوع: «فإذا نحن بعلي وما نرجوه»(٥)، وذلك لشدة الرمد الذي

---

(١) مر تخريجه وهو صحيح.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد في فضائل الصحابة ٢-٦١٧ وغيره من طريق إسرائيل عن عبد الله بن عصمة سمعت أبا سعيد الخدري. ابن عصمة تابعي صدوق قال في الجرح والتعديل ٥-١٢٦ سألت أبا زرعة عن عبد الله بن عصمة أبي علوان فقال كوفي ليس به بأس.

(٣) سنده صحيح رواه ابن حنبل في فضائل الصحابة ٢-٦١٧ وهو الحديث السابق.

(٤) صحيح البخاري ٣-١٣٥٧.

(٥) صحيح البخاري ٣ - ١٠٨٦.

أصاب عينيه، بل إن علياً نفسه لم يتوقع ذلك، وإلا لجاء مع الصحابة المتلهفين إلى الإمساك بالراية.. لقد كان علياً مشغولاً بعينيه، لكن قوة إيمانه وعزمه حملاه على المشاركة المعنوية، بعد أن تعذرت عليه المشاركة البدنية مع نبيه وأخوته.

إن كرامة الله لعلي رضي الله عنه تشابه كرامته لعمرو بن الجموح، وعبد الله بن حرام.. شيخان انتزعا نفسيهما من ظروف قاهرة وصعبة.. عمرو بن الجموح كان شديد العرج، وعبد الله بن حرام لديه تسع بنات، أما علي، فقد قال لنفسه بعد أن غادر النبي ﷺ أصحابه نحو خيبر «أنا أتخلف عن النبي ﷺ..؟ فلحق به»[1].

غداً موعد لفتح جديد، وغداً ستشرق الشمس على أرض جديدة بالإسلام، وأرض جديدة للإسلام، لكن ماذا عن فاتحها، وهل هذه الصفات لا تنطبق إلا على رجل واحد فقط..؟

الصفات والأحداث تقول: لا.

فالنبي ﷺ قال: يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، وهذا الجيش ينعم كله بهاتين الصفتين، لأنه جيش الحديبية الذي قال الله عنه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

أما قول النبي ﷺ: ليس بفرار، فهذه الصفة يتزين بها أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، والزبير، وابن عوف، وابن عبادة، والمقداد، وأبو دجانة، وسعد وأسيد، وبلال، وغيرهم.. وغيرهم.

إذاً فهو تكريم من الله للفاتح غداً، كتكريمه لوالد جابر بن عبد الله في غزوة أحد، ولا شيء يؤكد هذا مثل الشعور الذي انتاب الصحابة وهم ينتظرون ذلك الغد على أحر من الشوق.

هذا بريدة يتحدث عن مشاعر الصحابة فيقول: «فما منا إنسان له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا هو يرجو أن يكون صاحب اللواء»[2] ثم يتحدث رضي الله عنه عن

---

(١) مر معنا في أول الغزوة وهو صحيح.

(٢) حديث الحسين بن واقد السابق.

مشاعره الخاصة فيقول: (وأنا فيمن تطاول لها)[1] ويقول سهل بن سعد: «فبات الناس يدكون ليلتهم أيهم يعطاها»[2]

أما عمر بن الخطاب فيصف شوقه قائلاً: «ما أحببت الأمارة إلا يومئذ، فتساورت لها رجاء أن أدعى لها»[3].

امتثل الصحابة، فبعثوا سلمة بن الأكوع إلى علي، فوجده على حال يرثى لها.. وصل «إلى علي وهو في الرحى يطحن»[4] لإخوانه المجاهدين.. اكتفى علي بأن يكون خادماً لنبيه وإخوانه. ويقول سلمة: «فبعثني إلى علي وهو أرمد، فجئت به أقوده»[5] «فجاء وهو أرمد لا يكاد أن يبصر»[6] «فقال: يا نبي الله ما أكاد أبصر؟ فنفث في عينه»[7] «ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع»[8] «وهز الراية ثلاثاً ثم دفعها إليه»[9] وبعد أن أعطاه الراية أمره بأمر ينضح بالانتصارات.. أمر كالسيف:

لا تلتفت

أخذ فارس خيبر راية الإسلام منطلقاً إلى حصون خيبر، لكنه تذكر رسالته التي يحملها في صدره.. رسالته التي أخرجته من داره بمكة، فهو لا يحتاج إلى دماء هؤلاء اليهود الخونة، فهل سيلتفت والنبي ﷺ قد قال: («امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك».

فسار علي شيئاً ثم وقف، ولم يلتفت [للعزمة] فصرخ: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ [أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟].

---

(١) حديث الحسين بن واقد السابق.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٧٢.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٧١.

(٤) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ والحاكم ٣-١٤٣ والطبراني ١٢-٩٨ وغيرهم من طريق الوضاح وهو أبو عوانة حدثنا يحيى ابن أبي سليم أبو بلج حدثنا عمرو بن ميمون أن بن عباس. ابن ميمون ثقة مخضرم ويحيى صدوق ربما أخطأ التقريب: ٦٥٢.

(٥) صحيح مسلم ٣-١٤٤٠.

(٦) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ وهو الحديث قبل السابق.

(٧) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ وهو الحديث السابق.

(٨) صحيح البخاري ٣-١٠٩٦.

(٩) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ وهو الحديث قبل السابق.

قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله، فإذا فعلوا فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»(١).

كل هـــذا التجاوز والصفـــح، وكل هذه الأجــواء الرحبة مفتوحة لليهود.. ســيتم التغاضي عن خياناتهم وغدرهم يوم الأحزاب، وقبله مقابل ماذا؟

مقابــل الدخول في دين الله وعبادته وحده، فالهـــدف ليس تطهير حصون خيبر وأرضها، بل تطهير قلوب ساكنيها من الكفر، الذي حول حياتهم وسلوكياتهم إلى خيوط وعقد من المؤامرات السوداء، التي تخنق الأمن والأنفاس.

لم يعرض النبي ﷺ عليهم دفع فدية..

هو الإســـلام أو عقوبة الخيانة، وبالإسلام يحتفظون بأموالهم ودمائهم وديارهم، لكنهـــم يهود. أما علي المتوجه كالموت نحوهم، فقـــد قدم له النبي ﷺ ولأتباعه كلمات كالمطر. قال ﷺ لعلي: «انفذ على رســـلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»(٢).

قـــدَّم ﷺ تلك النصائح لأنه لا يأس مع الدعوة إلـــى الله، ولو كنت تخاطب خائناً حاقداً متطوياً كالحية داخل حصون خيبر.

انطلـــق علي حاملاً رايته، وحاملاً أملاً بدخول هؤلاء القوم في دين الله، ولما نزل بساحتهم.. دعاهم إلى الإسلام كما أمر.

لكنه جوبه برفض قاطع، وظن القوم أن هذا الجيش ســيعود كما عاد في اليومين السابقين، بل لقد فتح باب الحصن مرة أخرى فخرج منه ذلك الحتف العنيد، والفارس المرعب (مرحب) الذي يتحدى الجميع بعد أن استشهد عامر بن الأكوع على يديه.

(خرج مرحب مرة أخرى فقال:

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٧١ والزيادة صحيحة السند وهي في ابن حبان ١٥-٣٧٩ إبراهيم بن الحجاج السامي حدثنا حماد بن سلمة عن بقية سند مسلم وإبراهيم وحماد ثقتان.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٠٩٦.

قد علمت خيبر أني مرحب
شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فقال علي:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة
كَلَيثِ غابات كريه المنظرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة

فضرب رأس مرحب فقتله)[1].

وقتل معه ما تبقى من معنويات اليهود الذين أغلقوا حصونهم بعد هلاك ملكهم فقام علي باقتحام حصنهم الأول ثم الذي يليه[2]، وأثناء ذلك سقط بعض الشهداء من المؤمنين والتحقوا بعامر بن الأكوع رضي الله عنه. واشتد القتال والاقتحام، وبدأت أرض خيبر تتحول إلى جديد يكتبه الصحابة بدمائهم.

سلمة بن الأكوع.. فارس بحجم جيش، لكنه أصيب، فأنقذته معجزة ساقها الله على يد رسول الله ﷺ.

معجزة لجراح سلمة

سأل رجل سلمة بعد أن: «رأى أثر ضربة في ساق سلمة: يا أبا مسلم ما هذه الضربة؟ فقال: هذه ضربة أصابتني يوم خيبر. فقال الناس: أصيب سلمة. فأتيت النبي ﷺ، فنفث ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة»[3].

عاد سلمة إلى بقية الفرسان.. عاد إلى ساحة تختنق فيها الخيانة واليهود، وانضم النبي ﷺ إلى جنوده يوجههم، ويؤازرهم، بل ويبتسم أحياناً في وجوههم.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٤٠.
(٢) هناك روايات ضعيفة ومضطربة أن علياً خلع باب خيبر لوحده، فلم يستطع حمله إلا عشرات الرجال وهي من الروايات التي يبدو عليها الوضع.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٤١.

حدث ذلك عندما بدأ اليهود يتخلصون من بعض الأشـياء التي قد يسـتفيد منها المسلمون القادمون لا محالة.

ابتسامة النبي ﷺ في وجه عبد الله بن مغفل

يقول رضي الله عنه: «كنا محاصرين قصر خيبر، فرمى إنسان بجراب فيه شحم، فنزوت لآخذه، فالتفت فإذا النبي ﷺ [متبسماً] فاستحييت»(١).

كان اليهود يحاربون دون مواجهة.. خلف الحصون، إلا من كان في مثل شـجاعة وبأس ملكهم الهالك (مرحب)، أما البقية فمن خلف تجاويف الأسـوار ينفثون سـهاماً كالموت، فبينما كان أحد فرسان المسلمين يطارد خلالها شجعان اليهود، وتطارده كلمات الإعجـاب من المحاربين.. تطـارده كل عبارات الثناء إلا عبارات تصدر أسـفاً عليه.. كلمات أسف من النبي ﷺ على:

بطل آخر إلى النار

فبعـد أن وصل أبو هريرة إلى أرض خيبر قال: «شـهدنا مع رسـول الله ﷺ خيبر فقال لرجل ممن يدعي الإسلام، هذا من أهل النار، فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شـديداً فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله الذي قلت إنه من أهل النار، فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديداً، وقد مات فقال النبي ﷺ: إلى النار. فكاد بعض الناس أن يرتاب»(٢).

أخذ هذا الرجل إلى مكان آخر لمداواته، لذلك سنتركه لنتابع أحداث المعركة على أن نعود إليه لاحقاً، فقصته مثيرة ومؤثرة، لكن السـاحة الآن تشـهد انحسار اليهود، وتساقط أسوارهم.. قتل منهم من قتل، ولاذ من بقي منهم بآخر حصونهم وأمنعها.

يقول الشـاب عبد الله بن عمر: «إن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلـى مقرهم، فغلب علـى الأرض والنخل والزرع»(٣) ولم يبق لليهود سـوى المقاومة أو الاستسلام، فحول هذا السور فرسان كالموت الأحمر أحدهم:

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٩ والزيادة لمسلم ٣-١٣٩٣.

(٢) صحيح البخاري ٣-١١١٤.

(٣) سـنده صحيح رجاله أئمة ثقات رواه أبو داود ٣-١٥٧ وغيره من طريق حماد بن سـلمة عن عبيد الله بن عمر قال أحسبه عن نافع عن ابن عمر . وهو على شرط مسلم.

بريــدة رضي الله عنه توهج ذلك اليوم، لكنه يرى أن توهجه ذلك كان أعظم ذنب ارتكبه في حياته منذ أسلم، أما لماذا؟

فالسؤال لا يعرف الإجابة عليه سوى بريدة الذي يقول: «شهدت مع رسول الله ﷺ فتح خيبر، فكنت فيمن صعد الثلمة، فقاتلت حتى رئي مكاني، وأبليت وعلي ثوب أحمر، فمــا علمت أني ركبت في الإســلام أعظم منه. قال: للشــهرة»[1] فمهما كانت إنجازات المسـلم عظيمة، ومشــاريعه عملاقة في تكريس هذا الديــن، إلا أنها تتوقف على بوابة القبــول حتى تحصــل على بطاقة يقال لها: (النقاء والإخلاص لله) كما أن هذا النقاء لا يكفي إلا إذا كان العمل المصاحب له سليماً من التحريف (بدعة أو نقصاً)

يقول سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وهذا الأخير هو ما جعل بريدة قلقاً على جهاده يوم خيبر. لقد خشي أن يكون شيئاً من الرياء قد تســرب إلى صفاء نيته، فأفسده وأحبط عمله؟ رقابة وضعها الإسلام داخل أعمــاق أتباعه المخلصين، توجه أعمالهم لتبقى نقية بالتوحيد، وكما خشــي بريدة من انهيار عمله بسبب شعوره بالتفوق على الآخرين، فإن رجلاً آخر لم تسعفه نيته عندما لوثها بتصرف لا يليق بمسلم.

إنه ذلك البطل الجريح الذي يعاني آلاماً شديدة من جراحه في المعركة، فعندما جن عليه الليل.. جن جنونه من جرحه وآلامه، فأراد أن يطلق رصاصة العذاب على تلك الآلام.. أراد أن يضع حداً لمعاناته، لكنه أساء العمل فحطم في الليل ما أنجزه في النهار.

يقول أبو هريرة: (شــهدنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر، فقال -يعني لرجل يدعي الإسلام-: هذا من أهل النار.

فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شــديداً، فأصابته جراحة فقيل: يا رســول الله، الرجل الذي قلت له: إنه من أهل النار، فإنه قاتل اليوم قتالاً شــديداً وقد مات. فقال النبي ﷺ: إلى النار.

---

(١) ســنده قوي رواه الروياني ١-٧٩ وابن عدي في الكامل ٢-٣٤ من طريق محمد بن مزاحم حدثنا بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن ابن بريدة عن أبيه. مقاتل صدوق من رجال مسلم: التقريب ٥٤٤ وتلميذه بكيـر صدوق وجرحه غير مفســر. انظر ترجمته في التهذيب. وابن مزاحــم أبو وهب صدوق من رجال التقريب ٥٠٦.

فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراح شديدة. فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح، فقتل نفسه، فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال: الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله. ثم أمر بلالاً، فنادى في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله عز وجل يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1].

هذا الرجل قتل نفسه بسهم، وذلك قتل نفسه بسيفه على أرض المعركة يوم أحد، مع أن كلاً منهما أبلى وتألق وحاز كلمات الإعجاب، لكن النهاية واحدة.. النار.

لأن من خرج للقتال في سبيل الله.. عليه أن ينفذ تعاليم من أخرجه، وإلا فليبحث له عن تبرير آخر لجهاده سوى سبيل الله.

ومن قتل نفسه، فهو كمن قتل بريئاً دون ذنب، فلا مكان في الإسلام لرصاصة الرحمة المزعومة، لأن المعاناة جزء من الجهاد، وهي سبب للتطهير والتكفير والخلاص من الذنوب، وما خرج المجاهد في سبيل الله إلا لذلك، والخروج للجهادج ليس سياحة بين الفنادق والمنتجعات والشواطيء، وليس تجوالا بين القرى والمدن.

إنه أقصر الطرق للجنة، لكنه شاق ومتعب ولذته لا تقاوم، لذا فهو يحتاج إلى عزيمة وانضباط، فقد تتخلله الجراح والأسر والتعذيب.

إذا فعلى من يختار هذا الطريق المختصر.. أن يختاره بكليته.. بحلاوته ومرارته. عندها فقط سيشعر أن أرض الجنة على بعد خطوات منه.

لا بد أن شعوراً بالمرارة خالج من رأى بداية هذا الرجل ونهايته، لكنها ليست كالمرارة التي يشعر بها اليهود الآن والحصار يخنق أنفاسهم. قد يشعر اليهود بالمرارة، لكن من المستبعد أن يشعروا بالندم على خياناتهم، لأن الخيانة جزء من عقيدتهم التي كتبوها وأدرجوها ضمن كتابهم المقدس. حتى الاستسلام الذي يطل من حصونهم الآن، ما هو إلا استسلام يغلف خيانة جديدة.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١١٤.

الاستسلام والخيانة

قرر اليهود أن يستسلموا بعد أن فقدوا كل شيء، لـ (أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الأرض والزرع والنخل، فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم، ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء ويخرجون منها، فاشترط عليهم أن:

لا يكتموا شيئاً.

لا يغيبوا شيئاً.

فإن فعلوا ذلك فلا ذمة لهم ولا عصمة.

فغيبوا مسكاً فيه مال وحلي لحيي بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير.

فقال رسول الله ﷺ لعم حيي: ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟ فقال: أذهبته النفقات والحروب.

فقال ﷺ: العهد قريب، والمال أكثر من ذلك. فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير بن العوام فمسه بعذاب، وقد كان حيي قبل ذلك قد دخل خربة، فقال: قد رأيت حيياً يطوف في خربة هاهنا.

فذهبوا، فطافوا، فوجدوا المسك في خربة. فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي حقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب، وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم، وقسم أموالهم للنكث الذي نكثوه، وأراد أن يجليهم منها فقالوا يا محمد: دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها؟ ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، فكانوا لا يتفرغون أن يقوموا فأعطاهم خيبر)[1] لكن:

كيف يعطي النبي ﷺ خيبر لليهود

لقد قدم اليهود التماساً للنبي ﷺ لم يستعجل برفضه، بل وجده يعود على دولته بالفائدة، لاسيما وأن هناك ما يبرر قبوله، فأرجأ عليه السلام قرار الإجلاء إلى مدة مفتوحة على مصالح الدولة المسلمة.

(١) حديث صحيح رواه ابن حبان ١١-٦٠٧ وأبو داود (٣٠٠٦) وقد مر معنا قبل قليل.

قال عبد الله بن عمر: «كان رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل خيبر أراد أن يخرج اليهود منها، وكانت الأرض لما ظهر عليها لليهود وللرسول وللمسلمين، فسأل اليهود رسول الله ﷺ أن يتركهم على أن يكفوا العمل ولهم نصف الثمر، فقال رسول الله ﷺ نقركم على ذلك ما شئنا»[1].

يصف ابن عمر إن ذلك حدث بعد أن نظر عليه السلام إلى رئيسهم المتحدث باسمهم نظرة تقرأ خارطة الخيانة في عالم اليهود، وألقى إليه بكلمات لا يصدق فيها إلا نبي.

قال له: «رسول الله ﷺ: كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة؟ فقال: كانت هذه هزيلة من أبي القاسم. قال: كذبت يا عدو الله»[2] تلك الكلمات الوقحة التي تلفظ بها ذلك اليهودي ما هي إلا بعض أنفاس اليهود متى ما أمنوا العقوبة، أما المؤمنون، فبعد أن تم لهم النصر.. ذهبوا يلقون عنهم عناء التعب، والبعض أنهكه الجوع، فذهب ليبحث عن لقمة لجوفه الخالي، لكن هؤلاء لم يجدوا سوى بعض الحمير التي وجدوها خارج المدينة، فقاموا بذبح بعضها، وألقوا لحمها في قدورهم. أحد هؤلاء اسمه: عبد الله يتحدث عن:

أكل لحوم الحمر الأهلية

يقول رضي الله عنه: «أصابتنا مجاعة يوم خيبر، ونحن مع رسول الله ﷺ، وقد أصبنا للقوم حمراً خارجة من المدينة، فنحرناها، فإن قدورنا لتغلي إذ نادى منادي رسول الله ﷺ»[3] بشيء أبقى البطون خاوية، فقد جاء فقال: «يا رسول الله أكلت الحمر. ثم جاء آخر فقال: يا رسول الله أفنيت الحمر.

فأمر رسول الله ﷺ أبا طلحة فنادى: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس أو نجس. فأكفئت القدور بما فيها»[4].

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٩.

(٢) صحيح البخاري ٢-٩٧٣ والقلوص هي الناقة.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٥٣٨.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٥٤٠.

امتثل الصحابة لرسول الله ﷺ، فقلبوا قدورهم واتجهوا إلى الخيل والبغال - وهي قليلة- علها تسد ما بهم من مجاعة.

يقول جابر بن عبد الله: «ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل»[1] لم يقتصر النهي على هذين النوعين من الحيوانات. لقد نهى ﷺ عن لحوم حيوانات أخرى، ونهى عن ممارسات أخرى.

فبعد أن قال عليه السلام إثر غزوة الخندق: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» وبعد صلح الحديبية ونزول سورة الفتح، وبعد فتح خيبر.

بدأ عملياً توجه الإسلام نحو العالمية

بعد أن ولد في مكة، ونهض من مهد المدينة.. ها هو الإسلام يتهادى نحو العالم.. نحو جهات الدنيا الفسيحة كلها. لم يعد الإسلام مقتصراً على المهاجرين والأنصار، ولا على المدينة فقط، ولا حتى على القرن الهجري الأول.

إنه للعالم.. للدنيا بأسرها، ولكل القرون. وما دام الإسلام بهذه المقاييس، فلا بد أن يقدم مشروعاً يتضمن حلول الحاضر والمستقبل مهما بلغت البشرية من المدنية أو التحضر والرقي.

خيبر اليوم هي إحدى نقاط الانطلاق نحو العالم.. نحو مشاكل العالم والإنسانية.. في خيبر لم يعد الإسلام مأخوذاً بالتطهير الفكري والعقائدي فقط.. في خيبر أبحر الإسلام إلى جزر عذراء، وأراض جديدة.. يقدم للبشرية مشروعه الجميل، ليكون للحياة طعم جميل ونظيف، ليكون للإنسان غذاء نقي ونظيف.

في خيبر قدم ﷺ قائمة ببعض الممنوعات من الأطعمة والممارسات.. ممنوعات تجعل صحة المسلم وحياته أكثر إشراقاً ونظافة وتحضرا.

يقول جابر: «لما كان يوم خيبر أصاب الناس مجاعة، فأخذوا الحمر الإنسية فذبحوها وملؤوا منها القدور، فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فأمرنا رسول الله ﷺ فكفأنا

---

(١) حديث حسن رواه أبو داود ٣-٣٥١ وغيره من طريق أبي الزبير عن جابر. أبو الزبير تابعي ثقة مدلس، لكنه لم ينفرد فقد توبع، تابعه التابعي الثقة أبو سلمة بن عبد الرحمن.

القدور فقال: إن الله عز وجل سيأتيكم برزق هو أحل لكم من ذا وأطيب من ذا، فكفأنا يومئذ القدور وهي تغلي، فحرم رسول الله ﷺ يومئذ الحمر الإنسية ولحوم البغال، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطيور، وحرم المجثمة والخلسة والنهبة»(١).

وقال الصحابي أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه: «غزونا مع رسول الله ﷺ خيبر والناس جياع، فوجدنا منها حمراً من حمر الأنس، فذبح الناس منها، فحدث رسول الله ﷺ، فأمر عبد الرحمن بن عوف فأذن في الناس: إن لحوم الحمر الإنسية لا تحل لمن شهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله،

فكفأوا القدور بما فيها، ووجدوا في جوانبها بصلاً وثوماً، فقال رسول الله ﷺ: من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنا، وقال رسول الله ﷺ: لا تحل النهبة ولا كل ذي ناب من السباع، ولا تحل المجثمة»(٢).

من تأمل قائمة الممنوعات تلك يجدها بوابة لكثير من المتاعب الصحية، لا سيما مع تمدن البشرية القادم، وتكاثرها المتصاعد، مما يجعل التأكيد على جودة الطعام وسلامته أمراً لا يقبل التهاون، بل إن الطب ينصح بالاستغناء عن قائمة طويلة من الأطعمة الطيبة إرضاءً للصحة، فكيف إذا كانت هذه الأطعمة تشتمل على الحمار والبغل اللذين لا يباليان بما يدخل جوفيهما من المزابل وغيرها، أو الحيوانات المفترسة التي لا تفرق عندما تجوع بين الجيفة وغيرها، مما يجعلها جميعاً مستودعاً للأوبئة المجهولة والخطيرة، أما المجثمة ففي تحريم أكلها احترام لحقوق الحيوان.. في وقت كان العالم لا يرى للحيوان حقوقاً.. حرم الإسلام المجثمة التي يتسلى الجهلة بربطها، وجعلها هدفاً للتدريب على الرماية حتى الموت، ولو كانوا يدعون أنهم سيأكلونها في النهاية. ويدخل في المجثمة تلك الثيران التي يتسلى النصارى بتعذيبها ومصارعتها، وتمزيق أجسادها بالرماح والسيوف، فالغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام.

---

(١) حديث حسن ورجاله ثقات: رواه أحمد ٣-٣٢٣ حدثنا هاشم بن القاسم ثنا عكرمة يعني ابن عمار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وسنده ضعيف لاضطراب رواية عكرمة عن يحيى، التقريب ٣٩٦ وللحديث طرق عنده ٤-١٩٤ والطبراني في الكبير ٢٢-٢١٦ ومسند الشاميين ٢-١٨٣ وهو التالي: عن بقية عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن أبي ثعلبة ولألفاظ الحديث شواهد صحيحة متفرقة.

(٢) انظر ما قبله.

أما النهب والسلب فمن الجرائم الكبيرة التي تنتهك خصوصيات الناس وأموالهم، وهي أشياء لا يجوز المساس بها مهما كانت الأسباب.

امتثل الصحابة لأن الذي يتحدث نبي مرسل، ولأنه لا ينطق عن هوى أو رؤية شخصية، ثم قاموا بالبحث عن أي شيء يطفئ لهب الجوع وسعيره، فلم يجدوا سوى الأرض.. سوى النبات.

قال أبو سعيد: « فتحت خيبر، فوقعنا أصحاب رسول الله ﷺ في تلك البقلة الثوم، والناس جياع فأكلنا منها أكلاً شديداً، ثم رحنا إلى المسجد، فوجد رسول الله ﷺ الريح فقال: من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئاً فلا يقربنا في المسجد.

فقال الناس: حرمت، حرمت.

فبلغ ذاك النبي ﷺ فقال: أيها الناس إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي، ولكنها شجرة أكره ريحها»[1] «فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[2] إذاً فالزينة في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[3] ليست مقتصرة على اللباس فقط، فالرائحة الزكية من أجمل الأشياء التي يفضل اصطحابها إلى المسجد، ومن أسرار عظمة الإسلام تسليطه الأضواء على الجمال مهما كانت الأجواء معتمة، والعقول مشغولة والنفوس مشحونة. فالإنسان في ظرف كظرف الحرب والاجتلاد أو الحماس تمنحه نفسه، ويمنحه حماسه مسوغات عديدة للقيام بممارسات قد تؤلم غيره، فيتجاوز أهداف خروجه.

هنا يتميز الإسلام عن غيره من الأديان، فلا مذابح جماعية.. لا انتقام.. لا تهور.. لا سلب، ولا نهب، بل انضباط والتزام وإلا فإنه ليس بجهاد. إنه في هذه الحالة اعتداء والموت فيه ليس شهادة.

هاهو الجوع مرة أخرى يرغم بعض الصحابة على البحث المرير بعد نفاذ الصلح، لكن النتيجة كانت أكثر مرارة.

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١/٣٩٥ .
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١/٣٩٥.
(٣) الأعراف: ٣١.

صحابي اسمه: ثعلبة بن الحكم قال: «أصبنا يوم خيبر غنماً فانتهبها الناس، فجاء النبي ﷺ وقدورهم تغلي فقال: ما هذا..؟

فقالوا: نهبة يا رسـول الله. قال: اكفؤوها، فإن النهبة لا تحل. فكفؤوا ما بقي»[1] لأنها ليست لهم، والجوع ليس مبررا لنهب أموال الغير.

ترى لو كان هؤلاء القوم من غير المسلمين.. هل يمكن السيطرة عليهم..؟ هل يمكن ردعهم عن السـلب والنهب والاغتصاب.. اسـألوا التاريخ والحاضر عن المحاربين من غير المسلمين، فالإجابة فواجع.

كان اليهود غير بعيدين عن تلك المشـاهد، فتحركت النخوة داخل نفوسـهم. كان كرماً، لكنه:

كرم بنكهة يهودية

تحركت عواطفهم، ورشَّـحوا لإثبات تلك العواطف امرأة قامت بشـوي شـاة، ثم قدمتها للنبي ﷺ. الغريب في الأمر والمحير كذلك هو حرص المرأة على أن تلك الشاة هـي مجـرد هدية.. لا صدقة، حتى تتأكد من عدم رفـض النبي ﷺ لها، لأن الله قد حرم عليه الصدقة.

يقـول كعب ابن مالك: «إن امرأة يهودية أهدت إلى رسـول الله ﷺ شـاة مصلية بخيبـر، فقـال لها: ما هذه؟ قالت هديـة وحذرت أن تقول مـن الصدقة، فأكل وأكل أصحابه ثم قال لهم: أمسكوا»[2]

أما لماذا أمرهم بالتوقف عن الأكل..؟ فتلك معجزة إلهية، فبعد أن «أكل رسول الله ﷺ منها وأكل القوم فقال: ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة»[3]

---

(١) سنده قوي رواه عبد الرزاق ١٠-٢٠٥ وغيره من طريق سماك بن حرب عن ثعلبة بن الحكم قال: وسماك تابعي صدوق من رجال مسلم.

(٢) المعجم الكبير ١٩/٧٠-١٣٧ ومعمر بن راشد في الجامع ١١-٢٨ طريق الزهري عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه والزهري تابعي ثقة وإمام معروف.

(٣) سـنده صحيح رواه أبو داود٤-١٧٣ وغيره من طريق يونس وشـعيب ابن أبي حمزة وغيرهما عن الزهري كان جابر يحدث. الزهري ثقة وروايته عن جابر على شرط البخاري.

خيانتان لليهود في اليوم نفسه الذي عاهدوا فيه النبي ﷺ.. في الأيام نفسها التي ناشدوا فيها هذا النبي أن يبقي على أرواحهم، وأن يقبل شراكتهم الاقتصادية تلك، ويبدو من سلسلة الغدر اليهودي التي حدثت بعد وصول النبي عليه السلام إلى المدينة أنها تشكل نسبة مرتفعة من دمائهم، ومع هذا فقد حاول ﷺ استثمار حالة التوجس والخوف من انكشاف جريمتهم.. حاول استثمارها لصالحهم هم، فهم وإن صدئ معدنهم، إلا أنهم لا يزالون بشراً أحياء. وهاتان الصفتان تفتحان للمسلم فرصاً للدعوة.

حاول ﷺ من خلالها أن يثبت لعنادهم أنه نبي مرسل، وأنه لا عذر لهم في رفض الإسلام سوى العناد والمكابرة.

يقول أبو هريرة: «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيه سم، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود.

فجمعوا له فقال لهم رسول الله ﷺ: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا أبونا فلان.

فقال رسول الله ﷺ كذبتم بل أبوكم فلان. فقالوا: صدقت وبررت. فقال: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. قال لهم رسول الله ﷺ: مَنْ أهل النار؟

فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً.

ثم قال لهم: فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم. فقال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ فقالوا: نعم. فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كذاباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك»(١).

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.

ها قد تبين أنه نبي وأنه ليس بكذاب.. ثم ماذا؟

لا شـــيء.. لم يسلم أولئك اليهود.. لم يتركوا عنادهم وتكذيبهم، لكن النبي ﷺ لم يتركهم.. هناك جريمة، وهناك مجرمون، وهناك صحابة تغلغل الســـم في أحشـــائهم، وهم الآن على فراش المرض، وهناك تشريع جنائي عادل.

طلب ﷺ إحضار الجاني، فأحضرت المرأة المجرمة، وتمت مساءلتها علنياً من قبل النبي ﷺ، «فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك فقالت: أردت لأقتلك. قال: ما كان الله ليسلطك على ذاك أو قال عليَّ. قالوا: ألا نقتلها؟ قال: لا»[١].

لأنـــه لم يمت أحد من الصحابـــة حتى الآن من ذلك الســـم، وإن كان له أثر على لهوات النبي ﷺ لدرجة أن أنس رضي الله عنه كان يقول: «فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ»[٢].

لكن، وبعد أيام تمكن السم من أحد الصحابة واسمه (بشر) «فمات بشر بن البراء بن معرور الأنصاري، فأرسل إلى اليهودية:

ما حملك على الذي صنعت؟ قالت: إن كنت نبياً لم يضرك الذي صنعت، وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك.

فأمـــر بها رســـول اللـــه ﷺ فقتلت»[٣] بعـــد أن عفا عنها رغم شـــروعها في قتل رأس الدولة الإســـلامية، لكن وبعد موت بشـــر رضي الله عنه أصبحت قاتلة متعمدة، فاســـتحقت عقابها في القرآن، بل وفي كتاب التوراة التي تؤمن به، ولم يشمل العقاب أولئـــك المتآمرين معها، علَّ العفو يجدي في محو ثقافة الحقد والكراهية لديهم، ومن أجل ذلك قام ﷺ بعمل حاول به جمع قلوب اليهود حوله.. حينما اســـتقر قمراً وعزاءً بين يدي إحدى فتياتهم الحزينات.

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٤-١٧٢١).

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود -٤٥١٢ وأحمد (٣-٢٤٢) والدارمي (١-٦٤) والطبراني (٢-٣٤) والبيهقي (٨-٤٦) من طريق حماد بن سـلمة وجعفر بن عون وغيرهما من الثقات عن محمد بن عمرو بن علقمة الليثي وهو حسـن الحديث من رجال الشيخين.. التقريب (٢-١٩٦) وشيخه هو التابعي الثقة.. أبو سلمة بن عبد الرحمن الزهري وهو إمام مكثر التقريب (٢-٤٣٠) وقد صحح الإمام الألباني رحمه الله هذا الحديث.

القمر يستقر في حجر الفتاة

تلـك الفتاة التي رأت تلـك الرؤيا فلكمها زوجها الغبي بعدمـا أخبرته بما رأت.. هي اليوم حزينة جداً، فقد قتل زوجها قبل الصلح، لأنه عاهد النبي عليه السـلام على قول الحقيقة أو الموت والسـلب. كانت الفرصة أمامه لينجو بنفسه، لكن الخيانة داخله كانت أكبر من أن يخفيها.. كذب على رسـول الله ﷺ، فأطلعه الوحي على ذلك.. هذه الفتاة تشعر بحزن شديد وذل أشد، فهي الآن سبية وهبها النبي عليه السلام لصاحبه دحية الكلبي، وهي تشـعر ببغض شـديد لهذا النبي، فهو لم يقتل زوجها فقط، بل إنها تقول لمن يسـمعها: «كان رسـول الله ﷺ مـن أبغض الناس إلي، قتـل زوجي وأبي»[1] لعلكم تذكرون هذه الفتاة عندما كانت طفلة مدللة.. تلك التي كانت تحدثنا عن وصول النبي عليه السـلام إلى المدينة، وكيف خسـرت ذلك الدلال مـن أبيها وعمها في ذلك اليوم.. عندما شـاهدا النبي ﷺ، فعادا كسلانين ثقيلين من الهم على خروج النبوة من بني إسـرائيل، وانتقالها إلى بني إسماعيل، وهاهي اليوم تحصد أحقاد والدها وعمها وزوجهـا ومؤامراتهـم المتكررة. فقد (جـاء دحية فقال يا نبي اللـه أعطني جارية من السبي، قال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير! لا تصلح إلا لك. قال: ادعوه بها. فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: خذ جارية من السبي غيرها)[2]

أراد ﷺ اعتاق هذه الأميرة، أو مصاهرة اليهود في آخر محاولة لاستمالتهم إلى الإسلام، لكن يبدو أن دحية يشـعر بأنها ليسـت كأي فتاة من السبي، فقد جمعت المجد من أطرافه. فهي سـيدة بني النضير، وهي سـيدة قريظة أيضاً، وهي قبل ذلك ابنة نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام، وقد حظيت إلى ذلك بجمال أخاذ. فأراد ﷺ إرضاء صاحبه دحية.

---

(١) سـنده صحيح رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤-٦٧) والبيهقي (٩-١٣٧) وابن حبان (١١-٦٠٧) من طريق أبي الزرقاء وابن غياث وعفان قالوا حدثنا حماد بن سـلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال وهذا سند صحيح مر معنا في أول هذا الجزء..

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١-٤٥).

يقــول أنس بن مالك رضي الله عنه: «صارت صفية لدحية في مقســمه، وجعلوا يمدحونها عند رســول الله ﷺ ويقولون: ما رأينا في الســبي مثلها. فبعث إلى دحية فأعطاه بها ما أراد»[1] لقد «اشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس»[2].

فقد عرف عليه الصلاة والسلام لهذه المرأة الشريفة قدرها، وقدر حزنها وشعورها بالمرارة، فتوجه إليها كالمواســاة.. يســليها.. يقنعها بنبوته.. يعتذر إليها ويكشــف عن عقليتها ذلك الضباب اليهودي الأســود، حتى تلاشــى وتلاشى معه حزنها وكراهيتها، فإذا الدنيا صباح بالإســلام، وربيع بمحمد عليه الســلام، فباحت صفية بذلك النور الــذي انبجس في أعماقها وقالت: «وكان رســول الله ﷺ مــن أبغض الناس إلي، قتل زوجــي وأبي وأخي، فما زال يعتذر إلي ويقــول: إن أباك ألَّبَ علي العرب، وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفســي»[3] «واصطفى رســول الله ﷺ صفية بنت حيي، فاتخذها لنفســه وخيَّرها أن يعتقها وتكون زوجته، أو تلحــق بأهلها. فاختارت أن يعتقها وتكون زوجتــه»[4] دون أن يكرههــا، أو يغصبها، بل لقد رفضت العودة إلى أهلها وديارها رغم حبها وشــوقها لهم، لأنها أفاقت في عالم هذا النبي على شيء أذهلها عنهم، فتوجهت معــه مأخوذة بهــذا الاعتذار النبوي الجميل، الذي لم يصادر مشــاعرها.. لم يصادر إحساسها نحو من أحبتهم وعاشت معهم، ولم يجبرها باسم النبوة على التنكر لآلامها، فهــو الحب الذي يذيب الحرقــة والآلام، لكن النبي ﷺ لم يــزف إليها، لأن لها زوجاً ســابقاً لا بد من احترام نســبه، وعدة لا بد أن تمضيها حتى يتم التأكد من خلوها من حمل من زوجها السابق.. احتراماً لحق ذلك الزوج مهما كان دينه وحفظاً لنسب الطفل البــريء. لكن أحد الصحابة رضي الله عنهم لم يعبأ في علاقته بإحدى النســاء بهذه العدة، فارتكب أمراً أغضب النبي ﷺ غضباً شديداً.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢-١٠٤٧).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم.

(٣) ســنده على شرط مسلم رواه أحمد ٣-١٣٨ وابن حبان ٦-١٩٤ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر قال سمعت ثابتاً يحدث عن أنس. عبد الرزاق ومعمر من الثقات المعروفين من رجال الشيخين التقريب ٣٥٤ و٥٠٤ وثابت البناني تابعي ثقة. التقريب ١٣٢.

(٤) سنده على شرط مسلم رواه الإمام أحمد (٣-١٣٨) وهو الحديث السابق.

احترام السبايا

يقول أحد الصحابة وهو أبو الدرداء «إن النبي ﷺ مر على امرأة مجح، وهي على باب خباء أو فسطاط فقال: لمن هذه..؟

فقالوا: لفلان. قال: أيلم بها؟ قالوا: نعم.

قال: لقد هممت أن ألعنه لعنة تدخل معه قبره، فكيف يستخدمه وهو يعدوه في بصره وسمعه؟ كيف يرثه وهو لا يحل له»[1].

أما عن العلاقة مع المرأة فقد حدث تطور في أحكامها، لتتناسب مع القادم والجديد من حياة البشر، مما يجعل من هذا التشريع منهجاً يضمن للأسرة استقراراً أفضل.

هـا هو علي بن أبي طالب.. فارس خيبر، يعود من قرية قريبة تدعى (فدك) بعد أن فتحها وصالح أهلها.. هاهو يخبرنا عن

حكم جديد لزواج المتعة

يقول علي رضي الله عنه: «إن رسـول الله ﷺ نهى عن متعة النسـاء يوم خيبر»[2] وهـو زواج مؤقت يختلف عن الزواج المعروف، لأنه زواج محدد بمدة يتفق عليها الزوج والزوجـة، بعكس الزواج الطبيعي والـذي لا يجوز فيه تحديد المدة، وقد نهى ﷺ عنه لأنـه زواج لا يرصد حسـاباً للأولاد، ولا للتربية، وليس له أي هدف اجتماعي سـوى إشـباع الغريزة. مما قد يمسـخ المرأة مستقبلاً إلى جهاز اسـتمتاع رخيص للرجل.. يستعمله ثم يبحث عن أقرب سلة مهملات ليرميه فيها، والمرأة في الإسلام أَجَلُّ وأكرم مـن ذلك، لذلك جاء النهي عـن المتعة، وقد نهى عليه السـلام عنها على أرض خيبر بشكل غير حاسم، أي نهي كراهية لا تحريم، نظراً لحاجة الأنفس إلى التدرج.

مـادام الأمـر قد امتد إلى الحديث عـن الزواج، فيبدو أن الأمور قد اسـتقرت، والنفوس قد اطمأنت على أرض خيبر، وهذا ما يتضح في بعض الممارسات المالية التي يقوم بها بعض الصحابة الآن مع بعض اليهود، حيث يمارسون:

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢-١٠٦٥) وابن أبي شيبة (٤-٢٩) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.

هاهــو الصحابي فضالة بن عبيد يشــتري قلادة من خــرز وذهب، فيقوم بفصل الذهب عن الخرز، ليعلم مقدار الذهب فيها، وبعد فصلها توجه إلى النبي ﷺ فسأله وقال: «اشتريت يوم خيبر قلادة باثني عشر ديناراً فيها ذهب وخرز، ففصلتها فوجدت فيها أكثر من اثني عشر ديناراً؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: لا تباع حتى تفصل»[1]

فشــراء الذهب بالذهب لا يجوز إلا وزناً بوزن، ويداً بيد، وإلا تحول البيع إلى ربا يسحق الفقراء والاقتصاد، ويجر للفقر والرذيلة والاستغلال في المجتمع، وأرض خيبر قلعة من قلاع الربا، فاليهود زعماء الربا وعرابو الاستغلال للفقراء على وجه الأرض، وحتى لا يتلوث المتوضئون بأخلاق اليهود المرابين، وحتى يبقى للجهاد مشروعه النقي.. يكمــل فضالة بن عبيد ويقول: «كنا مع رســول الله ﷺ يوم خيبــر نبايع اليهود الوقية الذهب بالدينارين والثلاثة.

فقــال رســول الله ﷺ: لا تبيعوا الذهــب بالذهب إلا وزناً بــوزن»[2]. وأثناء فترة الاسترخاء تلك قسم ﷺ الغنائم على المجاهدين.

يقــول أحد الصحابة: «افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهبــاً ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبــل والمتاع والحوائط»[3]عدا ما أخرجه النبي ﷺ من كنز حيي بن أخطب المدفون، وأثناء توزيع الغنائم وصلت سرية من المجاهدين كانت تقوم بمهمة عسكرية على أرض نجد.. حددها ﷺ لأصحابه، وكان قائد تلك السرية يدعى (أبان بن سعيد بن العاص) وقد هدى الله أبان للإسلام بعد أن خاض معركة ضد المؤمنين، وقد استشهد في تلك المعركة صحابي كريم يدعى (ابن قوقل).

لكن ما علاقة ابن قوقل رضي الله عنه بغنائم خيبر..؟

أبو هريرة كان هناك.. يطلب من النبي ﷺ شــيئاً من الغنائم لحظة وصول أبان، وقد وصف وصول تلك السرية بقوله: «بعث رسول الله ﷺ أبان على سرية من المدينة

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٢١٣.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٢١٤.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٧.

قِبَلَ نجد، فقدم أبان وأصحابه على النبي ﷺ بخيبر بعد ما افتتحها، وإن حزم خيلهم لليف»[1] وكان لأبي هريرة مع أبان حديث طغت فيه العاطفة على العقل قليلاً، لكن الأمر حسم، لأنه بحضرة النبي ﷺ.

يتحدث أبو هريرة فيقول: إنه «أتى النبي ﷺ فسأله، قال له بعض بني سعيد بن العاص: لا تعطه. فقال أبو هريرة: هذا قاتل بن قوقل؟ فقال: واعجباه لوبر تدلى من قدوم الضأن»[2]

وكان لأبان رد يفيض بالاعتذار الجميل عن أخطاء الماضي المؤسف.

يقول أبان: إنه «أقبل إلى النبي ﷺ فسلم عليه فقال أبو هريرة: يا رسول الله هذا قاتل بن قوقل. فقال أبان لأبي هريرة: واعجباً لك وبر تدأدأ من قدوم ضأن، ينعى على امرئ أكرمه الله بيدي، ومنعه أن يهينني بيده!»[3] «فقال النبي ﷺ: يا أبان اجلس. فلم يقسم لهم»[4].

ثم بدأ ﷺ بتوزيع الغنائم بنسبة واحد إلى ثلاثة.. يعطى صاحب الفرس ثلاثة دراهم، والذي لا يملك فرساً درهماً واحداً، نظراً لما بذله صاحب الفرس من جهد ومال.

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين وللراجل سهماً»[5].

أما الأرقاء، فهذا أحدهم واسمه (عمير) يحدثنا حول رقة نبيه في تعامله معه، بعد أن علم أنه رقيق فيقول: «شهدت مع سادتي خيبر، فأمر بي رسول الله ﷺ فقلدت سيفاً، فإذا أنا أجره، فقيل له: إنه عبد مملوك. فأمر لي بشيء من خرثى المتاع[6]، وعرضت عليه رقية كنت أرقى بها المجانين في الجاهلية قال: اطرح منها كذا وكذا وارق بما بقي»[7] فالرقية علاج، والعلاج لا يجوز إلا بأشياء مباحة، وقد حرم

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٩.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨. ومسلم (١٧٦٢).
(٦) أي أثاث البيت.
(٧) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٢٢٣ وغيره من طرق عن محمد بن زيد بن المهاجر ومداره عليه عن عمير مولى أبي اللحم. وابن زيد ثقة من رجال مسلم ٤٧٩ وشيخه صحابي.

الإســـلام أي علاج يؤدي إلى ضرر في العقيـــدة أو في الصحة، وفي حالة كون الرقية أدعية وتعاويذ فقط.. يكون الأمر أخطر على العقيدة، التي من أجلها بعث كل الأنبياء والرســـل، لأن تأثير تلك الرقيـــة غير منظور، ولا يخضع لتجـــارب المعامل، ولا يتكون نتيجة تفاعل كيميائي مدروس.

فـــي هذه الحالة يكون الشـــفاء أشـــبه بالمعجزة.. عندها يتعلـــق المريض الجاهل بصاحب الرقية، مثل تعلق الغريق بأي شـــيء مهمـــا كان ضعيفاً، وعندما تصل الأمور إلـــى هذه المســـافة.. تنفتح بوابات الجهل للخيال المريض، ويبدأ التعلق بالأســـباب، لا بخالق الأســـباب ســـبحانه، ويجد الساحر والمشـــعوذ ألف طريق للتعشيش في مخيلة السذج والبسطاء، فتنصب خيام الشرك من جديد باسم الرقية والعلاج.

ذلك الرقيق الجميل لم يمنعه رقه أن يحتاط لدينه، وأن يسأل عن كل درهم يدخل جيبه، وكل كلمة يتفوه بها.

رقيق آخر غفل عن هذا المنهج للحظات، فماذا كانت النتيجة..؟

حدث ذلك أثناء توزيع الغنائم، حيث امتدت يد خادم جديد لرسول الله ﷺ يدعى (مدعم) إلى قطعة قماش من الغنائم، فاســـتلها، ثم أخفاها مع أمتعته الشخصية. أي أنه غلها دون إذن من قائده النبي ﷺ... أما نتيجة هذا العمل اليســـير في نظر أناس فسنعرفها بعد قليل.

ماذا عن النساء..؟

النساء لم يكنَّ بعيدات عن الرجال تكريماً وتقديراً، فقد «قسم رسـول الله ﷺ يوم خيبر لسهلة بنت عاصم بن عدي، ولابنة لها ولدت»[1].

تم الانتهـــاء قبل قليل من توزيع الغنائم، وبدأ التجهيـــز لأمور عديدة منها: تعيين أمير يتولى إدارة شؤون خيبر.

---

(١) ســـنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ٢-٨٢ حدثنا علي بن عبد العزيز ثنا الحســـن ابن الربيع الكوفي ثـــا بـــن المبارك عن ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن ثابت بن الحارث الأنصاري. وقد حدد النقـــاد رجالاً احتفظوا بوثائق بن لهيعة الصحيحة قبـــل اختلاطه منهم الإمام الثقة عبد الله بن المبارك. أما شـــيخه الحارث فتابعي ثقة ثبت عابد. التقريب ١٤٥ وشـــيخ الطبراني وشـــيخ شيخه ثقتان التقريب ١٦٦ والبلغة ٢٢٨.

يقول أبو سعيد الخدري وأبو هريرة: «إن رسول الله ﷺ بعث أخا بني عدي الأنصاري واستعمله على خيبر»[1]

ومنها: التوجه نحو (وادي القرى) لكن وقبل أن يغادر ﷺ أرض خيبر نوى أحد الصحابة مفارقته والعودة إلى مكة، ولم يكتف بذلك بل قرر أن ينتقص من النبي ﷺ، ولم يكتف أيضاً بذلك، بل ذهب إلى النبي نفسه واستأذنه. فما رده ﷺ على ذلك؟

صحابي يعود إلى قريش

وشروط صلح الحديبية تمنحه هذا الحق، أما النبي ﷺ فيشجعه على ذلك ويؤيده. أنس بن مالك كان حاضراً.. يتحدث عن ذلك ويقول: «لما فتح رسول الله ﷺ خيبر قال (الحجاج بن علاط): يا رسول الله، إن لي بمكة مالاً، وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن آتيهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئاً..؟

فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء، فأتى امرأته حين قدم فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد ﷺ وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم.

ففشا ذلك في مكة، وانقمع المسلمون، وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، وبلغ الخبر العباس فعقر وجعل لا يستطيع أن يقوم»[2] «ثم أرسل غلاماً إلى الحجاج بن علاط: ويلك ما جئت به، وما تقول فما وعد الله خير مما جئت به..؟

قال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فليخل لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره.

فجاء غلامه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، فوثب العباس فرحاً حتى قبل بين عينيه، فأخبره ما قال الحجاج فأعتقه، ثم جاءه الحجاج فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر وغنم أموالهم، وجرت سهام الله عز وجل في أموالهم،

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٦-٢٦٧٥.

(٢) وضعت القوس لوجود فاصل مرسل.

واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي، فاتخذها لنفسه، وخيرها أن يعتقها وتكون زوجته، أو تلحق بأهلها..؟ فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته، ولكني جئت لمال كان لي ههنا أردت أن أجمعه فأذهب به، فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي أن أقول ما شئت فأخف عني ثلاثاً، ثم اذكر ما بدا لك.

فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع، فجمعته فدفعته إليه ثم استمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فقال: ما فعل زوجك فأخبرته أنه قد ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا الذي بلغك. قال: أجل لا يخزني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ وجرت فيها سهام الله واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي لنفسه، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به. قالت: أظنك والله صادقاً. قال: فإني صادق، الأمر على ما أخبرتك.

فذهب حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل. قال لهم: لم يصبني إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً، وإنما جاء ليأخذ ما له وما كان له من شيء ههنا ثم يذهب.

فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر فسر المسلمون، ورد الله ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين»[1] بعدما علموا بانتصارات جيش الإسلام على أرض خيبر وفدك. وهاهو ذلك الجيش المؤمن يستعد لـ:

---

(١) على شرط مسلم رواه عبد الرزاق ٥-٤٦٦ ومن طريقه أحمد ٣-١٣٨ وغيره من طريق معمر قال سمعت ثابتاً يحدث عن أنس. يقول ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية ٤-٢١٧: هذا الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة سوى النسائي. ولي ملاحظة على هذا القول: صحيح أن رجاله رجال الشيخين، لكن من خلال الاستقراء يبدو أنه على شرط مسلم فقط، ويبدو أن الإسناد ليس بصحيح وإن كان على شرط مسلم، لأن رواية معمر عن ثابت فيها شيء، وللتفصيل راجع صحيح الموسوعة.

الرحيل..وقصة النوم عن الصلاة

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «إن رســول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليلــة، حتى إذا أدركه الكرى عرس وقال لبــلال: أكلأ لنا الليل. فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً، ففزع رسول الله ﷺ فقال: أي بلال. فقال بلال: أخذ بنفســي الذي أخذ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، بنفسك. قال: اقتادوا. فاقتادوا رواحلهم شيئاً، ثم توضأ رسول الله ﷺ وأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة قال: من نســي الصلاة فليصلها إذا ذكرهــا، فــإن الله قال: أقم الصلاة لذكري»(1) وقد ذكــر الفارس أبو قتادة تفاصيل أخرى ربما كانت أثناء تلك الرحلة في

قصة النوم والعطش والمعجزات

يقول أبو قتادة: «خطبنا رســول الله ﷺ فقال إنكم تســيرون عشــيتكم وليلتكم، وتأتون الماء إن شاء الله غداً.

فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد.

قال أبو قتادة: فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى إبهار الليل وأنا إلى جنبه، فنعس رســول الله ﷺ فمال على راحلته، فأتيته فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، ثم ســار حتى تهور الليــل مال عن راحلته، فدعمته مــن غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلة هي أشد من الميلتين الأوليين حتى كاد ينجفل، فأتيته فدعمته فرفع رأســه فقال: من هذا؟ قلت: أبو قتادة. قال: متى كان هذا مسيرك مني؟ قلت: مازال هذا مسيري منذ الليلة.

قــال: حفظــك الله بما حفظت به نبيه. ثم قال: هــل ترانا نخفى على الناس؟ ثم قــال: هل ترى من أحد؟ قلت: هذا راكب، ثم قلت: هذا راكب آخر، حتى اجتمعنا فكنا

(1) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٧١.

سبعة ركب، فمال رسول الله ﷺ عن الطريق فوضع رأسه، ثم قال: احفظوا علينا صلاتنا. فكان أول من استيقظ رسول الله ﷺ والشمس في ظهره، فقمنا فزعين، ثم قال: اركبوا. فركبنا، فسرنا حتى إذا ارتفعت الشمس نزل، ثم دعا بميضأة كانت معي، فيها شيء من ماء فتوضأ منها وضوءاً دون وضوء.

وبقي فيها شيء من ماء، ثم قال لأبي قتادة: احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ. ثم أذن بلال بالصلاة، فصلى رسول الله ﷺ ركعتين، ثم صلى الغداة، فصنع كما كان يصنع كل يوم.

وركب رسول الله ﷺ وركبنا معه، فجعل بعضنا يهمس إلى بعض ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟ ثم قال: أما لكم فيَّ أسوة؟ ثم قال: أما إنه ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى، فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها. فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها، ثم قال: ما ترون الناس صنعوا؟

ثم قال ﷺ: أصبح الناس فقدوا نبيهم فقال أبو بكر وعمر: رسول الله ﷺ بعدكم لم يكن ليخلفكم، وقال الناس: إن رسول الله ﷺ بين أيديكم، فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا. فانتهينا إلى الناس حين امتد النهار وحمي كل شيء، وهم يقولون: يا رسول الله هلكنا عطشنا..؟ فقال: لا هلك عليكم. ثم قال: أطلقوا لي غمري[1]. ودعا بالميضأة فجعل رسول الله ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم، فلم يعد أن رأى الناس ماء في الميضأة تكابوا عليها، فقال رسول الله ﷺ: أحسنوا الملأ كلكم سيروى. ففعلوا. فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ، ثم صب رسول الله ﷺ فقال لي: اشرب. فقلت: لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله. قال: إن ساقي القوم آخرهم شرباً. فشربت وشرب رسول الله ﷺ، فأتى الناس الماء جامين رواء»[2] ثم ارتحلوا متوجهين:

---

(١) أي اتركوا لي إنائي أو أعطوني إياه.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٧٣

وهو مكان قريب من مدائن صالح، وله اسم آخر هو (قرح)، ويبدو أن هذا الوادي مليء بالحدائق والنخيل واليهود.

وصل النبي ﷺ وأصحابه، ووصل معه صاحبه سلمان الفارسي وذكرياته المريرة على أرض هذا الوادي، فقد وصل إليها منذ سنين مكبلاً بالرق والمرارة، بعد أن غدر به تجار من بني كلب.. سرقوا بقراته، وباعوه إلى أحد اليهود الذين يسكنون هذا الوادي المليء بالنخل.. انتظاراً لنبي تبشر به التوراة.

يقول سلمان رضي الله عنه وهو يتحدث عن مغادرته لأرض عمورية بعد موت كاهنها الصالح: «لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي. فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، ثم نزل به أمر الله، فلما حضر[1] قلت له: يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟

قال أي بني، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

ثم مات وغيب ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من (كلب) تجار فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه. قالوا: نعم.

فأعطيتهموها، وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي، فكنت عنده عبداً، ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ولم يحق في نفسي، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة»[2] حيث تتوافر النخل واليهود هناك أيضاً، فالنخل في جزيرة العرب، والنخل في التوراة.. تبشر اليهود بالنبي.

---

(١) حضره الموت.

(٢) السيرة النبوية ٢-٤٤ بسند صحيح وقد مر تخريجه عند الحديث عن إسلام سلمان.

وهاهو النبي، وهاهي النخيل، وتحت كل نخلة في جزيرة العرب تجد يهودياً.. كان ذلك في الماضي قبل أن يعرف اليهود أن هذا النبي من سلالة إسماعيل لا من سلالة إسحاق، أما اليوم فتحت كل نخلة خيانة، ووادي القرى ممتلئ باليهود.

توقف فيه النبي ﷺ فلم يجد مقاومة تذكر إلا سهماً طائشاً أصاب خادمه مدعم، فكان موت مدعم درساً لهذا الجيش المؤمن.. رغم أنه سهم طائش لا يُعرف من أرسله.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القرى، ومعه عبد له يقال له (مدعم) أهداه له أحد بني الضباب، فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد. فقال الناس: هنيئاً له الشهادة. فقال رسول الله ﷺ: بل والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً.

فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراك أو بشراكين، فقال: هذا شيء كنت أصبته[1] فقال رسول الله ﷺ: شراك أو شراكان من نار»[2]

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد. حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد.

فقال رسول الله ﷺ: كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة. ثم قال رسول الله ﷺ: يابن الخطاب اذهب فناد في الناس: أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون،

فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»[3]

هذا هو الغلول.. أخذ شيء من مال الدولة المسلمة، أو ميزانيتها دون إذن مهما كانت المبررات.. فحتى هذا الرجل الفقير المجاهد لم يسلم من نار الغلول، وهو المجاهد الذي خرج لبذل روحه لله، فكيف بمن يأخذ شيئاً وقت السلم..؟ وكيف بمن يأخذ شيئاً لا لحاجة، بل لمجرد زيادة ثروته..؟ سواء كان بالسرقة أو النهبة أو السلطة أو القوة،

---

(١) أي أخذته من الغنائم دون إذن.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٧.

(٣) صحيح مسلم ١-١٠٧.

أو حتى على شكل هدايا يتلقاها بصفته موظفاً في الدولة؟! فالنبي ﷺ يقول: «هدايا العمال غلول»[1]

الإسـلام جاء لإنصاف الفقراء، لكنه لم يأت للمزايدة بقضاياهم وأزماتهم، فعلى الفقراء كغيرهم مسؤولية، وعليهم النهوض بها، فالجنة مفتوحة للجميع، وكذلك جهنم.. جهنم ترحب بمن يريدها.. وبهذا المنهج يتحول الفقير إلى طاقة فاعلة ومنضبطة.. لا طاقة هائجة ثائرة تحطم كل شيء، وتحرق اليابس والأخضر باسم الفقر والفقراء.

هذا هو جيش محمد ﷺ معظمه من الفقراء والمحتاجين وأهل الصفة، ومع ذلك فهـو قمة في الانضباط وتحمل المسـؤولية، ولا أدل على ذلـك من قول إحدى أمهات المؤمنين وزوجة قائد هذه الأمة الطاهرة عائشة رضي الله عنها: «لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشـبع من التمر»[2] يا الله!! إنها لم تقل: نشـبع من اللحم أو الفاكهة ولا العسل.. قالت: التمر.

بل إنها تحدث ابن أختها عن موائد رئيس الدولة الإسلامية فتقول: يا «ابن أختي إن كنـا لننظر إلى الهـلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شـهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار.

فقلت يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا»[3].

وما دمنا نتحدث عن أمهات المؤمنين والموائد.. يتهادى سـؤال لطيف: ماذا عن أم المؤمنين الجديدة.. ماذا عن عرسها ومائدة ذلك العرس..؟

زفاف صفية

لـم يكن ذلك الزفاف على أرض خيبر، ولا على أرض واد القرى المفتوحة، والذي جرى عليه من الأحكام ما جرى على أرض خيبر دون سفك دماء.

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد ٥-٤٢٤.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٠.
(٣) صحيح البخاري ٢ - ٩٠٧.

صفية مازالت في عدتها، والنبي ﷺ يهم بمغادرة الوادي، وفي الطريق انتهت عدة صفية، وحلت للنبي عليه السلام، وكان عليه السلام قد أوصى أم أنس بن مالك بصفية للعناية بها وتسليتها، وعندما وصل الركب إلى مكان يقال له (سد الصهباء) زفت صفية للنبي ﷺ، وأقيمت مائدة بسيطة كبساطة الصحابة.. كسماحة الإسلام، حيث لم تغل القدور، ولم يتوافر فيها لحم ولا خبز.. حتى الماء فيها كان من بقايا المطر.

يقول أنس: «لقد رأيت لرسول الله ﷺ وليمة ما فيها خبز ولا لحم»[1] وحتى القدور لم تستخدم.. كانت وليمة متواضعة جداً، فقد حفر الصحابة حفراً في الأرض، ثم ألقوا عليها الجلود المدبوغة النظيفة، ثم سكب فيها السمن، ووضع الإقط والتمر.

هذا ما ذكره أنس ابن مالك في حديثه حيث يقول إن النبي ﷺ «دفعها إلى أم سليم تصنعها له وتهيئها وتعتد في بيتها، وهي صفية بنت حيي ثم خرج رسول الله ﷺ من خيبر حتى إذا جعلها في ظهره، نزل ثم ضرب عليها القبة، فلما أصبح قال رسول الله ﷺ: من كان عنده فضل زاد فليأتنا به.

فجعل الرجل يجيء بفضل التمر، وفضل السويق، حتى جعلوا من ذلك سواداً حيساً[2]، فجعلوا يأكلون من ذلك الحيس، ويشربون من حياض إلى جنبهم من ماء السماء، فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ وجعل رسول الله ﷺ وليمتها التمر والأقط والسمن، فحصت الأرض أفاحيص، وجيء بالأنطاع، فوضعت فيها، وجيء بالأقط والسمن، فشبع الناس.

وقال الناس: لا ندري أتزوجها، أم اتخذها أم ولد؟ قالوا: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أم ولد.

فلما أراد أن يركب حجبها، فقعدت على عجز البعير، فعرفوا أنه قد تزوجها»[3] وكانت طريقة إركاب رسول الله ﷺ لصفية على البعير تنم عن منتهى الذوق والرقة والمواساة.

---

(١) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ٣٨٣ وغيره من طرق عن عمر بن معدان وثابت عن أنس وثابت تابعي ثقة سمع أنس بن مالك وقد مر معنا.

(٢) الحيس هو خليط من التمر دون نوى والإقط المطحون.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٥ والزوائد له أيضاً ٢-١٠٤٧.

يقـــول أنس: « .. ثم خرجنا إلى المدينة، فرأيت رســـول اللـــه ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته، فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب»[1] شـــعرت صفية بعاطفة غامرة.. شـــعرت بعزاء يهطل مطراً على قيظ حزنها، فتحول البغــض إلى حب، وعاد الحزن مـــن حيث أتى. أما النبي ﷺ فقـــد تحول إلى غمامة تظللها، وقـــدم اعتذارات أذابت كل كلس اليهود في فؤادها، حتى أصبح مرتعاً لمحمد، وملكاً لرب محمد.

تذكر صفية تلك الأيام وأمواجها الغريبة المتلاطمة.. تتذكر حبيبها ﷺ وهو:

يسأل عن الكدمة حول عين حبيبته

وذلـــك عندما «رأى رســـول الله ﷺ بعيني صفية خضرة فقـــال يا صفية ما هذه الخضرة؟ فقالت كان رأسي في حجر ابن أبي حقيق وأنا نائمة، فرأيت كأن قمراً وقع في حجري، فأخبرته بذلك فلطمني وقال: تمنين ملك يثرب؟

قالت: وكان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إلي، قتل زوجي وأبي وأخي، فما زال يعتذر إلي ويقول: إن أباك ألب علي العرب وفعل وفعل، حتى ذهب ذلك من نفسي»[2]

تلك الاعتذارات والمشـــاعر بينت لها مدى الفـــارق بين هذا النبي الكريم وبين زوجها الســـابق العنيف الذي كان يقودها إلى جهنم، بينت مدى الفارق بين والدها اللئيم الخائن، ونبيها الوفي.. تلك الكلمات أيقظتها على عالم النبوة والتوحيد لا المتاجرة بهما.

بعدهـــا «أقام النبـــي ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنـــى عليه بصفية»[3]، ثم واصل ﷺ مســـيره عائداً إلى المدينة.. محاطاً بجيش كالمشـــاعر.. ســـلمة ابن الأكوع يتذكـــر في طريق العودة الشـــهيد علـــى أرض خيبر عامر بن الأكـــوع، ويتذكر حداءه الجميل على هذا الطريق، فتهيج مشـــاعره فلا يجد ألطف من النبي ﷺ كي يشاركه تلك المشاعر. فبم رد عليه وماذا فعل سلمة..؟

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٧٧٨.

(٢) حديث صحيح مر معنا في بداية الكتاب.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٣.

يقول رضي الله عنه «قفل رسول الله ﷺ من خيبر، فقلت: يا رسول الله ائذن لي أن أرجز لك. فأذن له رسول الله ﷺ، فقال عمر ابن الخطاب: أعلم ما تقول. فقلت:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فقال رسول الله ﷺ: صدقت

وثبت الأقدام إن لاقينا وأنزلن سكينة علينا

والمشركون قد بغوا علينا

ثم يقول سلمة: يا رسول الله، إن ناساً ليهابون الصلاة عليه يقولون: رجل مات بسلاحه. فقال رسول الله ﷺ: مات جاهداً مجاهداً، فله أجره مرتين وأشار بإصبعيه»[1].

وفي طريق العودة أيضاً لم يكن التعبير عن المشاعر شعراً فقط، بل سلوكاً يفيض بالعطف والرحمة. يقول أبو أمامة رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ أقبل من خيبر ومعه غلامان، فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله، أخدمنا. فقال: خذ أيهما شئت. فقال: خر لي. قال: خذ هذا ولا تضربه، فإني قد رأيته يصلي مقبلنا من خيبر، وإني قد نهيت عن ضرب أهل الصلاة، وأعطى أبا ذر الغلام الآخر، فقال: استوص به خيراً.» ويمر وقت فيشاهد عليه السلام أبا ذر فيقول له: «يا أبا ذر، ما فعل الغلام الذي أعطيتك؟ قال: أمرتني أن أستوصي به خيراً فأعتقته»[2]

واصل الركب مسيره، وعندما اقترب من المدينة تدفقت العواطف في كل اتجاه، ولاح للنبي ﷺ جبل أحد من جديد، فباح الجبل بحبه لمن حوله. أنس كان ممن حوله.. يحدثنا عن تلك اللحظات فيقول: «فسرنا حتى إذا أشرفنا على المدينة نظر إلى أحد، فقال: هذا جبل يحبنا ونحبه»[3].

باح الجبل بحبه، وتحركت القلوب والمطايا عندما أشرقت بيوتات المدينة كالعاشقات.. في تلك اللحظات أسرع كل شيء نحوها، وأسرع أنس وقال: «فلما دنوا

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٢٩.

(٢) سنده حسن رواه أحمد ٥-٢٥٨ حدثنا عبد الله حدثنا أبي ثنا عفان ثنا حماد بن سلمة أنا أبو غالب عن أبي أمامة. أبو غالب حسن الحديث. التقريب٤٦٠ وبقية الرواة أئمة ثقات.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٥٩.

من المدينة دفع رسول الله ﷺ ودفعنا»[1] «فانطلقنا حتى إذا رأينا جدر المدينة هششنا إليها، فرفعنا مطينا ورفع رســول الله ﷺ مطيته، و(صفية) خلفه وقد أردفها رســول الله ﷺ»[2] لكن يبدو أن بعض القلوب المؤمنة لم تكن مشــتاقة جداً لمقدم صفية خلف رسول الله ﷺ...

أقصد قلوب حبيباته إمهات المؤمنين.. المشــتاقات إلى كل شيء تحمله الناقة، إلا إلى هذه الجميلة التي تزاحمهن على بعيره وقلبه، لكن شيئاً حدث لصفية شفى بعض غليلهن وغليل خدمهن فـ:

ما الذي حدث لصفية على أبواب المدينة

يقول أنس رضي الله عنه: «أقبلنا من خيبر أنا وأبو طلحة ورســول الله ﷺ، وصفية رديفته... فعثرت ناقة رسول الله ﷺ [العضباء وندر رسول الله ﷺ وندرت، فقام فسترها، وقد أشرفت النساء فقلن: أبعد الله اليهودية. قلت: يا أبا حمزة أوقع رسول الله ﷺ؟ قال: إي والله لقد وقع]، فصرع رســول الله ﷺ وصرعت صفية، فاقتحم أبو طلحة فقال: يا رسول الله جعلني الله فداك أضررت؟ قال: لا عليك المرأة [إنها أمكم].

فألقى أبو طلحــة على وجهه الثوب، فانطلق إليها فمد ثوبها عليها، ثم أصلح لها رحلها [فليس أحد من الناس ينظر إليه ولا إليها، حتى قام رسول الله ﷺ فسترها.

فأتيناه فقال: لم نضر]، فركبنا ثم اكتنفناه أحدنا عن يمينه والآخر عن شــماله، فلما أشرفنا على المدينة، أو كنا بظهر الحرة قال رسول الله ﷺ: آيبون عابدون تائبون، لربنا حامدون.. فلم يزل يقولهن حتى دخلنا المدينة»[3]

«فدخلنا المدينة فخرج جواري نسائه يتراءينها ويشمتن بصرعتها»[4] «ثم نظر إلى المدينة فقال: اللهم إني أحرم ما بين لابتيها بمثل ما حرم إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم»[5].

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٥.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٧.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٥-٢٢٢٤ وأحمد ٣- ١٨٧ من طريق البخاري واللفظ لأحمد والزيادة الأولى لمسلم ٢-١٠٤٥ والثانية للبخاري والثالثة لمسلم ٢-١٠٤٧.
(٤) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٧.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٥٩.

كان الجميع بانتظار هؤلاء الفرســان وفتوحاتهم المجيدة وكان ﷺ يبادلهم ويبادل مدينتهم الجميلة شوقاً وعاطفة، أما المدينة فـ:

المدينة تعد مفاجأة للنبي ﷺ

فــي المدينة فتح النبي ﷺ عينيــه على فرحة كفرحة خيبــر، فالذي يقف أمامه الآن حبيــب طالما انتظر قدومه.. إنه ابن عمه جعفر بن أبي طالب، ومعه من تبقى من المهاجرين.. قدموا من الحبشة قبل أيام، ومعهم من هاجر من اليمن إلى الحبشة. أبو موســى الأشعري كان أحدهم.. كانت مفاجأة ســارة جداً للنبي ﷺ عبر عنها بكلمات من مشاعر «جابر بن عبد الله قال: لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة قال رسول الله ﷺ: ما أدري بأيهما أنا أفرح، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر»(١).

الصحابة كلهم فرحوا بمقــدم إخوانهم من بلاد الغربة والمعاناة والكرم، وقد قدر عليه السلام تلك المعاناة، وأحب أن يرحب بهم بطريقة تخفف شيئاً من فقرهم وآلامهم، فميزهم عن غيرهم.

يقول أحدهم وهو أبو موســى الأشــعري رضي الله عنه: «بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، إما قال بضعاً وإما قال ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي. فركبنا ســفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشــة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده. فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا ههنا وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا.

فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا رســول الله ﷺ حين افتتح خيبر فأسهم لنا أو قال: أعطانا منها، وما قســم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شــيئاً إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب ســفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم، فكان ناس من الناس يقولون لنا، يعني لأهل السفينة: نحن سبقناكم بالهجرة»(٢) إلى المدينة.

---

(١) حديث حســن رواه الحاكم ٢-٦٨١ و٣-٢٢٣ من طريق أجلح عن الشــعبي عن جابر وقد جاء من مرســل الشعبي عند غيره بسند صحيح إلى الشعبي وله شواهد لا تخلو من ضعف وعند الطبراني بسند لا بأس به ٢٢-١٠٠ عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه وروي بسند ضعيف عن عائشة في الإخوان ١٧٩ وقد فصلت تخريجه في صحيح الموسوعة.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٤-١٩٤٦.

وكأنهم يعنون أنهم أولى بالنبي ﷺ من هؤلاء المبحرين من أرض إفريقيا السخية، وكان أبــرز من قال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قالها مُرحَّباً ومُمازحاً زوجة جعفر بن أبي طالب المهاجرة العظيمة الشابة (أسماء بنت عميس) التي تزور الآن ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، لكن تلك المداعبة حركت داخل أسماء آمالاً بتثمين مرارة الغربة ومعاناة التشــرد في ســبيل الله، فليس هناك من تشــكو إليه عمر سوى النبي عليه السلام، وليس هناك من يشفي غليلاً داخلها سوى النبي ﷺ.

توجهت إليه فكانت هذه القصة المنسوجة بالشكوى والسفر

مهاجرة تشكو عمر

يقول أبو موســى الأشعري: «دخلت أسماء بنت عميس، وهي ممن قدم معنا، على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر. فدخل عمر على حفصة وأســماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: آلحبشية هذه، آلبحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم.

قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم.

فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار، أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشــة، وذلك في الله وفي رســوله ﷺ. وأيم الله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلمــا جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي اللــه، إن عمر قال كذا وكذا قال: فما قلت له؟ قالت: قلت له كذا وكذا.

قال: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان.

قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ.

قالت أســماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني»[1] والبشرى تملأ قلبه وروحه، فالإسلام لا يغفل دور مسلم مهما كان هذا المسلم ضعيفاً مغلوباً على

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٦.

أمره.. مادامت معاناته في الله. فقد «رأى سعد رضي الله عنه أن له فضلاً على من دونه فقال النبي ﷺ: هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»[1]

أما عمر رضي الله عنه فلم يكن يتحدث عن نفسه فقط.. كان يتحدث عن أبي بكر وعثمان وعلي وطلحة وبلال، وغيرهم من المهاجرين الذين كابدوا ما كابدوا في سبيل الله، وبذلوا ما بذلوا في بدر وأحد والخندق وخيبر.. كان عمر يتحدث عن أهل بيعة الرضوان، أما سعد رضي الله عنه فقد رأى في قتاله وهجرته تفوقاً على ذلك الصحابي الضعيف، فكان للإسلام ميزان أدق لا يغفل فيه أي شيء، ولاسيما تلك الأشياء التي يفضل البعض أن يحولها إلى أسرار حميمة فيما بينهم وبين الله فقط، ويرفضون أن يفسد أحد تمتعهم بتلك الأجواء الحميمة مع الله.

ذات يوم «مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع. ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع.

فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[2].

كان عليه السلام يقدم درساً مجانياً لمن كلف نفسه توجيه النقد للناس محاولاً التسلل بينهم وبين الله.. جاعلاً من البغض في الله نوافذ يخرج من خلالها نشازاً داخل نفسه.

أحد الصحابة يتحدث عن ذلك فيقول: «إن رجلاً مر على قوم فسلم عليهم فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم: والله إني لأبغض هذا في الله. فقال أهل المجلس: بئس والله ما قلت، أما والله لتنبئنه. قم يا فلان (رجلاً منهم) فخبره.

فأدركه رسولهم، فأخبره بما قال. فانصرف الرجل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، مررت بمجلس من المسلمين فيهم فلان، فسلمت عليهم فردوا السلام، فلما جاوزتهم أدركني رجل منهم فأخبرني أن فلاناً قال: والله أني لأبغض هذا الرجل في الله. فادعه فسله على ما يبغضني.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٦١.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٥-١٩٥٨.

فدعاه رسول الله ﷺ فسأله عما أخبره الرجل، فاعترف بذلك وقال: قد قلت له ذلك يا رسـول الله. فقال رسـول الله ﷺ: فلم تبغضه..؟ قال: أنا جاره، وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه الصلاة المكتوبة التي يصليها البر والفاجر.

قال الرجل: سله يا رسول الله هل رآني قط أخرتها عن وقتها، أو أسأت الوضوء لها، أو أسأت الركوع والسجود فيها..؟

فسأله رسـول الله ﷺ عن ذلك فقال: لا. ثم قال: والله ما رأيته يصوم قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر. قال: فسله يا رسول الله هل رآني قط أفطرت فيه، أو انتقصت من حقه شيئاً؟ فسأله رسول الله ﷺ فقال: لا. ثم قال: والله ما رأيته يعطي سائلاً قط، ولا رأيته ينفق من ماله شيئاً في شيء من سبيل الله بخير إلا هذه الصدقة التي يؤديها البر والفاجر. قال: فسله يا رسول الله هل كتمت من تلك الزكاة شيئاً قط، أو ماكست فيها طالبها..؟

فسأله رسـول الله ﷺ عن ذلك فقال: لا. فقال له رسـول الله ﷺ: قم إن أدري لعله خير منك»[1]

إن الشعور بالتفوق على الآخرين مهما كان رصيده من الظاهر والباطن.. لا يجيز لصاحبه التطاول على الآخرين، وانتقاصهم تحت أي مبرر، فالحكم على الآخرين من خلال ظواهرهم غير دقيق إلا في حالة فساد الظاهر فساداً ينم عن عفن الباطن، وهناك فرقٌ بين الحكم على الشخص، والحكم على سلوك صادر عنه، والشعور بالتفوق يدخل في الكبر، فالكبر (بطر الحق وغمط الناس)[2] أي رد الدليل والنظر بدونية للناس، والكبر شيء خطير، فذات يوم س(يحشر المتكبرون يوم القيمة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، يساقون إلى سجن في النار يقال له بولس، يعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال، عصارة أهل النار)[3] فأي ذلة سيجنيها المتكبر وهامته تداس بالأقدام، وأي كرامة له وشرابه من إفرازات أهل النار النتنة.

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٥- ٤٥٥ عن مظفر بن مدرك ثنا إبراهيم ابن سعد ثنا بن شهاب عن أبي الطفيل مظفر وشيخه ثقات من رجال التقريب.

(٢) صحيح مسلم ١-٩٣.

(٣) سنده حسن مشهور رواه الحميدي ٢-٢٧٢ عن سفيان الثقة داود بن شابور والصدوق محمد بن عجلان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

لو اكتفى هذا المتكبر بشكر الله على ما منحه الله من مال وجاه ونسب وجمال، لكان في مصاف الشاكرين الذين يحبهم الله، ويكرمهم الله فوق كرامتهم، فالشكر لله من أولويات ما يطلب من الأنبياء، فالله يخاطب نبيه موسى قائلا: (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)

المتكبر جحد نعمة الله ونسبها لنفسه، كما فعل قارون الذي خسر الدنيا والآخرة.. قارون الذي شح على ربه بكلمة شكر.

كان النبي ﷺ يحاول المحافظة على ما أنجزه الإسلام من مساواة وتلاحم، وكان المهاجرون والأنصار هم النموذج البشري الصرف الذي قدمه النبي ﷺ للعالم.. لقد قدم الأنصار الكثير، فماذا فعل أخوتهم المهاجرون بعد غزوة خيبر؟

المهاجرون يردون الجميل بالوفاء

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما قدم المهاجرون من مكة المدينة؛ قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام، ويكفونهم العمل والمؤونة، وكانت أم أنس بن مالك وهي تدعى أم سليم أعطت رسول الله ﷺ عذاقاً لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته)[1] وهي أم أسامة بن زيد.

قال أنس ابن مالك (أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم، فرد رسول الله ﷺ إلى أمي عذاقها، وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه)[2] وقد حسن فتح خيبر من مستوى التغذية لدى المسلمين، فأصبحوا كما يقول ابن عمر رضي الله عنهما «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر»[3]

أي ما شبعنا من التمر فقط، ومع هذه الحاجة والفقر كان الإسلام يقدم ثقافة متحضرة لأتباعه، حتى لا تزعزع المادة توازن الإنسان، فالفتوح قادمة، والوعود كشمس

(١) صحيح مسلم ٣-١٢٩١.
(٢) صحيح مسلم ٣-١٣٩١.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٥٠.

الغد مشـــرقة لا محالة، وإذا لم يتهيأ المســـلم بثقافة التوازن فسوف يجد نفسه مجرد رقم على سطح الأرض.

يقول أبو سعيد الخدري وأبو هريرة رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله ﷺ: أكل تمر خيبر هكذا؟ فقال: لا، والله يا رسول الله إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، بالثلاثة.

فقـــال: لا تفعل، بع الجمع بالدراهـــم، ثم ابتع بالدراهم جنيبـــاً»[1] لأن التمر من الأمـــوال التي يحدث فيها الربا، وقد «قال رســـول اللـــه ﷺ الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشـــعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، سواء بسواء، يداً بيد. فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»[2] وإلا وقع المسلم بالربا.

الربا ممر يعبر من خلاله الاســـتغلال والفقر، وانهيـــار الأخلاق والاقتصاد، وهو جشـــع قديم يتجدد كلما غفت الأخلاق ونهضت الغرائز العمياء داخل الإنسان، والنبي عليه السلام يريد ردم هذا الممر الخطير على دولته وشعبه، كما يريد ردم أي ممر يعبر منه خطر إلى دولته الجديدة بالتوحيد. لذلك عاد ﷺ إلى:

بث السرايا من جديد

فأمام النبي ﷺ قائمة طويلة بالمهمات الملحة، والمخاطر والأزمات التي يتحتم عليه علاجها أوالقضاء عليها، بعد كســـر شـــوكة التآمر اليهودي، وتحييد قريش وحلفائها. ففـــي الجزيرة العربية بـــؤر للإرهاب لا تخضع لدولة ولا لنظام قائم، ولا لمفاوضات أو شـــروط، ولا حتى لعرف أو شـــرف. هناك جماعات إرهابية تعيش خارج التاريخ الذي بدأ ﷺ يكتبه بالتوحيد والإســـلام، وقد حان الوقت لتأديبها والقضاء عليها، وهي وإن كانـــت صغيرة، إلا أنها مزعجـــة ومؤلمة ومعيقة للمد الإســـلامي، وهي تلوث الجزيرة والدنيا بالشرك وقطع الطريق، ووأد البنات والنهب والسلب، والقتل والفوضى وإرعاب القوافل والمدن. وهذا هو أنسب وقت للتخلص منها أو من معظمها.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٥٠.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٢١١.

لذلــك يتحتم عدم إهدار فرصة الســلام مع قريش، لتأمين ممرات المســافرين والتجار والحجاج، وتأمين حدود المدينة وفرض هيبتها ووجودها في ظل هذه الأوضاع المتدهورة في الجزيرة العربية، لذلك نظم النبي ﷺ ســرايا للقيام بتلك المهمات، وقد لخص ﷺ مطالبه من أولئك الأعراب برســالة حملها أعرابي إلى من تســول له نفسه إعادة الجزيرة إلى همجية الجاهلية، وقد بقيت تلك الرســالة في خرج ذلك الأعرابي زمناً طويلاً.

رجل اسمه (يزيد بن الشخير) يتحدث عن تلك الرسالة فيقول: «كنا جلوساً بهذا المريــد بالبصرة، فجاء أعرابي معه قطعــة أديم أو قطعة من جراب، فقال: هذا كتاب كتبه لي النبي ﷺ.

فأخذته فقرأته على القوم فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

مــن محمد رســول الله ﷺ لبني زهير بن أقيش، إنكــم إن أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم الخمس، وســهم النبي والصفــي، فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله»[1].

ولعل من أهم تلك السرايا سرية مهمتها تأديب (فزارة) الذين أغاروا على المدينة وسرقوا ما سرقوا.. مستغلين تواجد النبي ﷺ على أرض الحديبية، لكن وصول سلمة بن الأكوع ساهم في إفشال ذلك السطو المسلح على المدينة، وقد أرجأ ﷺ تأديبهم إلى حين عودته من خيبر، ثم كلف صاحبه أبا بكر الصديق رضي الله عنه بقيادة وتنفيذ:

غزوة فزارة

وقد شــارك في هذه الغزوة ســلمة بن الأكوع فارس تلك الغزوة السابقة المسماة (ذات قرد أو الغابة).. سلمة فارس بمقاييس جيش، وهو الآن يتحدث عن تأديب قطاع الطرق للمرة الثانية، بعد أن أدب طلائعهم في الغابة.

---

(١) ســنده صحيح رواه ابن أبي شــيبة ٧-٣٤٩ وغيره من طريق عن قرة بن خالد عن يزيد. قرة ثقة ضابط – التقريب ٤٥٥ ويزيد تابعي ثقة ولد في عهد عمر رضي الله عنه.

يقول رضي الله عنه: «غزونا فزارة وعلينا أبو بكر، أَمَّرَهُ رسول الله ﷺ علينا، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا أبو بكر فعرسنا، ثم شن الغارة فورد الماء فقتل من قتل عليه وسبى، وأنظر إلى عنق من الناس فيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع من آدم (القشع النطع) معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال: يا سلمة هب لي المرأة.

فقلت يا رسول الله والله لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوباً. ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق، فقال لي: يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك. فقلت: هي لك يا رسول الله، فوالله ما كشفت لها ثوباً. فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة»(١)

وهو لا يعني بكلمة أسروا، أن أسرهم كان عن طريق الحرب، إنما يقصد أولئك المسلمين المستضعفين، الذين منعوا قهراً من الهجرة إلى نبيهم ﷺ، وقد استحقت فزارة ما أصابها من جيش أبي بكر، فقد شاركوا قريشاً في معركة الخندق كجزء من غطفان، ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا بالإغارة على المدينة، وسرقوا وقتلوا، وهذا النوع من الإرهاب وقطع الطريق خارج عن نطاق العقل، ولا تجدي مع هذه الهمجية أساليب الحوار، ولا ينقاد صاحبها لحق إلا بعد كسر شوكته، أما من لم يتعرض لدولة الإسلام بشر فلن يتعرض له أحد، بل سيجد من دولة التوحيد وجيشها صدوراً مفتوحة وأخلاقاً رفيعة آسرة، كما حدث في هذه السرية التي قادها عليه السلام بنفسه وكانت:

سرية من أربعين رجلاً وامرأة تقود قومها إلى الإسلام

سرية مثيرة.. كلها دعوة ومعجزات.. أحد فرسانها صحابي جليل اسمه (عمران بن حصين) وهو يقول: «كنت مع نبي الله ﷺ في مسير له، فأدلجنا ليلتنا حتى إذا كان في وجه الصبح عرسنا، فغلبتنا أعيننا حتى بزغت الشمس، فكان أول من استيقظ منا أبو بكر، وكنا لا نوقظ نبي الله ﷺ من منامه إذا نام حتى يستيقظ، ثم استيقظ

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٧٥.

عمر، فقام عند نبي الله ﷺ [فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس، وكان رجلاً جليداً، فكبر ورفع صوته بالتكبير، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير] حتى استيقظ رسول الله ﷺ، فلما رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت قال: ارتحلوا. [فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، فاتتنا الصلاة. فقال: لم تفتكم.

ثم أمرهم رسول الله ﷺ فركبوا] فسار بنا حتى إذا ابيضت الشمس نزل [ونزلوا معه، وكأنه كره أن يصلي في المكان الذي نام فيه عن الصلاة، ثم قال رسول الله ﷺ: ائتوني بماء.

فأتوه بجريعة من ماء في مطهرة، فصبها رسول الله ﷺ في إناء، ثم وضع يده في الماء، ثم قال لأصحابه: توضؤوا] [ثم أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بالصلاة، فنودي بها ثم قام] فصلى بنا الغداة، فاعتزل رجل من القوم لم يصل معنا، فلما انصرف قال له رسول الله ﷺ: يا فلان ما منعك أن تصلي معنا؟ قال: يا نبي الله أصابتني جنابة.

فأمره رسول الله ﷺ فتيمم بالصعيد فصلى، ثم عجلني في ركب بين يديه نطلب الماء، وقد عطشنا عطشاً شديداً [فأقبل رجلان من أصحابه، أحسبه علياً والزبير أو غيرهما، قال: إنكما ستجدان بمكان كذا وكذا امرأة معها بعير عليه مزادتان، فأتياني بها.] فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين، فقلنا لها: أين الماء..؟ قالت: أيهاه، أيهاه، لا ماء لكم.

قلنا: فكم بين أهلك وبين الماء..؟ قالت: مسيرة يوم وليلة. قلنا: انطلقي إلى رسول الله ﷺ قالت: وما رسول الله [ومن رسول الله؟ هذا الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين، وهو رسول الله ﷺ.]

فلم نملكها من أمرها شيئاً حتى انطلقنا بها، فاستقبلنا بها رسول الله ﷺ، فسألها فأخبرته مثل الذي أخبرتنا، وأخبرته أنها موتمة لها صبيان أيتام. [فقال علي: يا رسول الله بأبي وأمي، إنا وجدنا هذه بمكان كذا وكذا، فسألتها عن الماء، فزعمت أن بينها وبين الماء مسيرة ليلة، أو زيادة، فظننا أن لم نبلغه حتى يهلك منا من هلك.

فقال رسول الله ﷺ: أنيخوا لها بعيرها.

فأناخوا لها بعيرها. فأقبلت عليهم، فقالت: استقيت لأيتام، وقد احتبست عليهم جداً. فقال رسول الله ﷺ: ائتوني بإناء.

فجاؤوا بإناء]، فأمر براويتها فأنيخت. [فقال: افتحوا عزلاء هذه، فخذوا منها ماءً يسيراً، ثم افتحوا عزلاء[1] هذه فخذوا منها ماءً يسيراً أيضاً. ففعلوا، ثم إن الرسول ﷺ دعا فيه وغمس يده فيه، فقال: افتحوا لي أفواه المزادتين.

ففتحوا، فحثا في هذه قليلاً، وفي هذه قليلاً]، فمج في العزلاوين العلياوين، ثم بعث براويتها فشربنا ونحن أربعون رجلاً عطاشاً حتى روينا، وملأنا كل قربة معنا وإداوة وغسلنا صاحبنا، غير أنا لم نسق بعيراً وهي تكاد تتضرج من الماء (يعني المزادتين) [ثم قال: أسقوا ظهركم.

فسقوا الظهر حتى روي، ثم قال رسول الله ﷺ: هاتوا ما كان لكم من قربة أو مطهرة فاملؤوها. فجاؤوا بقربهم ومطاهرهم فملؤوها، ثم قال رسول الله ﷺ: شدوا عزلاء هذه، وعزلاء هذه. ثم قال: ابعثوا البعير.

فبعثوها فنهضت وإن المزادتين لتكادان تفطان من ملئهما ثم اتخذ رسول الله ﷺ كساء المرأة] ثم قال: هاتوا ما كان عندكم.

فجمعنا لها من كسر وتمر وصر لها صرة، فقال لها: اذهبي فأطعمي هذا عيالك، واعلمي أنا لم نرزأ من مائك، [خذي هذا لأيتامك، وهذا ماءك وافراً.

فجعلت تعجب مما رأت، ثم انطلقت حتى أتت أهلها فقالوا: قد احتبست علينا فما حبسك] فلما أتت أهلها قالت: لقد لقيت أسحر البشر أو إنه لنبي كما زعم، كان من أمره ذيت وذيت، [أرأيتم مزادتي هاتين.. فوالله لقد شرب منهما] [وأخذوا من القرب والمزاد والمطاهر ما لا أحصي، ثم إنهما الآن أوفر منهما يومئذ فلبثت شهراً أو نحواً من ذلك]، فهدى الله ذاك الصرم بتلك المرأة، فأسلمت وأسلموا [ثم أقبلت في ثلاثين راكباً إلى رسول الله ﷺ]»[2] فاستقبلها بالقلب الذي يستقبل به كل حبيب

---

(١) فم الربة من أسفل.

(٢) مسلم ١-٤٧٤ والزيادة الأولى عند البخاري ١-١٣١ والثانية والثالثة والسادسة وما بعدها في دلائل البيهقي ٤-٢٧٩ وهي قوية الإسناد والرابعة والخامسة في سنن البيهقي ١-٣٢ وقد رواها من طريقين قويين عن عبد الرزاق حدثنا معمر عن عوف عن أبي رجاء عن عمران وعبد الرزاق عن معمر سند صحيح وباقي السند: سند الشيخين.

مهاجر إلى مدينة التوحيد، وقدم لأصحابه طرازاً نسـوياً رفيع المستوى.. امرأة تتسلل إبداعـاً فـي عقول قومها، وتمحو ذاكـرة وثنية متخثرة موغلة في القـدم، ثم تقنعهم بالمسـير معها في رحلة ممتعة نحو مدينة الوعي الجديد، بعد شـهر من نشر التوحيد في بيوتات قومها.

إنجاز غير مسـبوق للمرأة.. في زمن قياسـي مدهش لم ينجزه سوى النبي ﷺ، والمـرأة قادرة على أكثر وأعظم، لكن ذلك مشـروط بقدرتها علـى التخلص من عقد القصـور والاضطهاد والأنوثة، التي تتـذرع بها للتفلت من مسـؤولياتها.. حيث يأتي الوعي والتحرر بالإسلام في مقدمة تلك المسؤليات.

في تلك الغزوة لم تؤخذ تلك المرأة سبية، ولم تجد من ذلك الجيش إلا ما يسرها ويفرح أيتامها، لأنها لم تمارس أي شـيء ضد الدولة الإسلامية.. حتى ذلك الماء الذي كانـت تحمله.. لم يؤخذ منه قطرة واحـدة، بل لقد كان النبي ﷺ نهر كرم عندما أمر صحابتـه بتزويدها بالطعام، وهـم في أمس الحاجة إليه.. تعبيراً عن مواسـاته لها، وابتهاجا بما تنجزه تجاه أولئك الأيتام.

وإذا كانت تلك السرية تعود محملة بالمشاعر والعطايا والإيمان، فإن هناك سرايا عادت ببعض الكدر رغم تنفيذها لمهماتها المناطة بها، وتلك طبيعة البشر التي يفترض فيها الصواب والخطأ، لكن تلك الأخطاء قدمت دروساً في العقيدة والفكر.

درس في حدود طاعة الأمراء

سرية بعثها ﷺ وعيَّن أحد الأنصار أميراً عليها.

يقول «علي رضي الله عنه: بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطباً. فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً. فأوقدوها. فقال: ادخلوها.

فهموا، وجعل بعضهم يمسـك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار. فسـكن غضبه. فبلغ النبـي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف»[1].

وقد كرر هذه الأوامر أحد المهاجرين ممازحاً فرقته.. في:

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٧.

هذا المهاجر يدعى (عبد الله بن حذافة السـهمي) وهو الآن في سرية تحت إمرة صحابي اسمه (علقمة بن مجزز)

يقول أحد المشاركين فيها وهو «أبو سعيد الخدري: إن رسول الله ﷺ بعث علقمة بـن مجزز على بعث أنـا فيهم، فلما انتهى إلـى رأس عرانـة، أو كان ببعض الطريق اسـتأذنته طائفة من الجيش، فـأذن لهم، وأمر عليهم عبد اللـه ابن حذافة بن قيس السـهمي، فكنت فيمن غزا معه، فلما كان ببعض الطريق أوقد القوم ناراً ليصطلوا، أو ليصنعـوا عليها صنيعاً، وقال عبدالله (وكان من أهل بدر وكانت فيه دعابة): أليس لي عليكم السمع والطاعة؟ قالوا: بلى. قال: فما أنا آمركم بشيء إلا صنعتموه؟ قالوا: نعم. قـال: فإني أعزم عليكم إلا تواثبتم في هذه النار. فقام ناس فتحجزوا، فلما ظن أنهم واثبون قال: أمسكوا على أنفسكم فإنما أمزح معكم.

فلمـا قدمنا ذكروا ذلك لرسـول اللـه ﷺ فقال: من أمركم منهـم بمعصية فلا تطيعوه»[1].

في الإسـلام.. الحاكم أو الأمير أو القائد ليس نائباً عن الله، ولا متحدثاً باسمه، وليـس له من صلاحيات التشـريع والتحليـل والتحريم ما يحلل بـه حراماً أو يحرم حـلالاً.. حتى في بيت المال المنثور بين يديه.. ليس من حقه وحق أهله أكثر من حقوق غيره من الأمة.

يقول ﷺ لعلي بن أبي طالب شـيئاً خطيراً.. ها هو علي يحدث به رجلاً يطالبه بشيء من الرفاهية في المائدة على الأقل.

اسـم هذا الرجل (عبد الله بن زرير) وهو يقول: «دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الأضحى، فقرب إلينا خزيزة[2]، فقلت: أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط يعني الوز، فإن الله عز وجل قد أكثر الخير..؟

(١) سنده حسن رواه ابن أبي شيبة ٦-٥٤٤ وغيره من طريق محمد بن عمرو عن عمر بن الحكم بن ثوبان عن أبي سـعيد الخدري وعمر بن الحكم تابعي صدوق. التقريب ٤١١ وتلميذه حسـن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال الشيخين. التقريب ٤٩٩.

(٢) الخزيز طعام متواضع كالعصيدة.

فقال: يا ابن زرير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يضعها بين يدي الناس»(١)

إذا فالأمير أو الحاكم ليس إلها، ولا نصف إله.. إنه مجرد مفوض من قبل الأمة لإدارة شئونها.. لا أكثر، والله أنزل ضمن كلامه – القرآن – آية تطالب بطاعة الأمراء أمثال ابن حذافة وذاك الأنصاري، وكل الأمراء إلى يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾

وكم يحلوا لبعض خصوم الإسلام التوقف عند هذا القدر من الآية حتى يتهموا الإسلام بدعم الاستبداد، لأن بقيتها تزعجهم، فالله يقول: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، ومن كثرة ترديدهم لهذه الآية يخيل لمن لا يعرف القرآن أن الرعية ليس لها وظيفة سوى طاعة الراعي، وتقديسه والتسبيح بحمده.. متناسين أن القرآن يحتوي على آيات كثيرة تجعل العمود الفقري للحكم الإسلامي هو (العدل) فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾

العدل أحد أهم رسائل القرآن: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾

العدل هو رسالة محمد ﷺ التي ألقاها القرآن على عاتقه فقام بها خير قيام عندما خاطبه القرآن قائلا: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾

ويقول لنبيه: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا

(١) سنده قوي رواه أحمد ١-٧٨ من طريق ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الله بن زرير عن علي. وكلهم ثقات إلا ابن لهيعة ولم ينفرد، فقد تابعه في مسند الشاميين ١-١٤٩ عبد الرحمن بن ثابت العنسي وهو صدوق يخطىء التقريب ٣٣٧ .

تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

العدل رسـالة كل الأنبياء بعد التوحيـد ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ويقـول تعالـى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾

العدل كان محور رسـالة نبي لقوم فشا بينهم الظلم والغش والفساد المالي، حيث يحكي القـرآن قول ذلك النبـي ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

العدل رسـالة النخبة من مثقفي وعلماء الأمة.. لا تزيين الظلم للحاكم: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

العـدل واجب على الحاكم حتـى مع الخارجين عن القانـون ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

العـدل واجب حتى مع مـن يبغضهم الحاكم ويبغضونه أو مـن يعاديهم ويعادونه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

العدل واجب حتى مع من يكذبون ويسرقون ويلفقون للحاكم التهم ويشوهون دينه ممن هم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

العدل واجب في تعاملاتنا مع غير المسلمين ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

العدل شـــيء مقدس ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾

لدرجـــة أن جعل اللـــه لذنب الكفر، وذنـــب قاتل النبي، وذنب من يقتل شـــخصا يأمر بالعدل عقابا شـــنيعا واحـــدا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وآيات أخرى أكثر تحرم الظلم وتتوعد الظلمة.

كان عليه الســـلام يؤسس بكلام ربه وبسنته مفهوما طمسته الطواغيت.. مفهوما عظيماً يقول: الأمير لخدمة الأمة لا العكس، أما طاعة الأمير فليست خدمة له.. إنها باختصار طاعة للتشريع الذي أمر الحاكم بتنفيذه.

وإذا كانت تلك السرايا قد بينت حدود نفوذ القائد فإن هناك:

سرايا تحدد صلاحيات المجاهد المسلم

فالمجاهد لم يخرج من بيته وبلاده ليملأ بطنه أو جيبه، ولم يخرج ليرضي غروراً تراقص في رأسه.. هو محارب مميز بين كل المحاربين، لم يخرجه من بيته سوى شيء واحـــد: أن تكون كلمة الله هي العليا، ولكي يكـــون هذا الهدف نقياً بين جوانحه عليه، قبل أن يخرج، أن يدفن تحت بوابة مدينته أشياء كثيرة منها:

المال، والشـهرة، والهوى، والرغبة في الانتقام، للنفس و.. و.. لكي يتفرغ لشـيء واحد هو: إعلاء التوحيد لا فرضه بالقوة، فإذا لم يتمكن من دفن تلك الأشـياء، فإنها ستنغص عليه جهده وجهاده.. إن لم تحوله إلى رماد لا قيمة له.

أخطاء كثيرة وقع فيها بعض الصحابة رضي الله عنهم، لكن فعلهم ذلك لا يحسب على الإسـلام، إنما يحسـب عليهم أنفسـهم، لأن النبي ﷺ كان حياً آنذاك، وقد قام بتصحيح تلك الأخطاء حتى لا يبرر من بعدهم لنفسه ممارستها بحجة أن أحد الصحابة فعلها.. متجاهلا حكم الإسلام فيها.. متجاهلا تصحيح النبي ﷺ لتلك الأخطاء.

بعض هذه الأخطاء تبين بعد معجزة حدثت بعد إحدى السرايا.. معجزة مزلزلة.

الأرض تلفظ جسد أحد المجاهدين

قصة تعيـد الصواب للمتهورين الوالغين بدماء الأبرياء.. قصة يرويها «جندب بن سـفيان رجل من بجيلة قال: إني عند رسـول الله ﷺ إذ جاءه بشـير من سرية بعثها، فأخبره بنصر الله الذي نصر سـريته، وبفتح الله الذي فتح لهم. قال: يا رسـول الله، بينمـا نحـن بطلب العدو وقد هزمهـم الله، إذ لحقت رجلاً بالسـيف، فلما أحس أن السيف قد واقعه التفت وهو يسعى، فقال: إني مسلم، إني مسلم..

فقتلته، وإنما كان يا نبي الله متعوذاً..؟

قال ﷺ: فهلاّ شـققت عن قلبه، فنظرت صادق هو أو كاذب؟ قال: لو شققت عن قلبه ما كان يعلمني القلب، هل قلبه إلا مضغة من لحم؟ قال: فأنت قتلته، لا ما في قلبه علمت، ولا لسانه صدقت! قال: يا رسول الله، استغفر لي. قال: لا أستغفر لك.

فدفنـوه، فأصبح على وجـه الأرض ثلاث مرات، فلما رأى ذلك قومه اسـتحيوا وخزوا مما لقي، فحملوه فألقوه في شعب من تلك الشعاب»(١).

---

(١) حديـث صحيح رواه أبو يعلـى ٣-١ حدثنا عبيد الله بن عمر القواريـري حدثنا عبد الرحمن ابن مهدي حدثني عبد الحميد بن بهرام حدثنا شـهر بن حوشـب حدثني جندب. شهر كثير الأوهام، لكن رواه عبد الرزاق ١٠-١٧٣ عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن موهب عن قبيصة. وعبد الله ثقة. التقريب ٤٥٥ وقبيصة وله رؤية وله شاهد يأتي بعده

لكن النبي ﷺ علم فيما بعد.. أخبره أحدهم بما حدث، فكان في تفسير النبي ﷺ وتوجيهه شيئاً يستعيد الأمل لذلك الفارس الذي رفضته أحضان الأرض.

صحابي شهد ما حدث اسمه (عمران بن حصين) يحدثنا فيقول: «بعث رسول الله ﷺ سرية فحمل رجل على رجل من المشركين، فلما غشيه بالرمح قال: إني مسلم. فقتله، ثم أتى النبي ﷺ فقال: إني أذنبت فاستغفر لي. قال: وما ذاك؟ قال: حملت على رجل من المشركين، فلما غشيته بالرمح قال: إني مسلم. فظننت أنه متعوذ، فقتلته. فقال: هلا شققت عن قلبه حتى يستبين لك؟ قال ويستبين لي يا رسول الله؟ قال: قد قال لك بلسانه فلم تصدقه على ما في قلبه.

فمات الرجل فدفناه، فأصبح على وجه الأرض، فأمرنا غلماننا فحرسوه فأصبح على وجه الأرض. فقلنا: غفلوا.

فحرسناه، فأصبح على وجه الأرض. فأتينا النبي ﷺ فأخبرناه، فقال: أما إنها تقبل من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعلمكم تعظيم الدم. ثم قال: اذهبوا به إلى سفح هذا الجبل، فانضدوا عليه من الحجارة ففعلنا»[1].

وهذه سرية أخرى يأذن ﷺ لحبه أسامة بن زيد بالانضمام إليها بعد بلوغه، لكن حماس أسامة والشباب المتقد تحت ثيابه جعله يتمادى في إعطاء فروسيته ما ليس لها، فكانت زلة عمره التي لم يستطع نسيانها طوال حياته، وندمه الذي لم يقو على الهروب منه.

في سرية (الحرقات) أسامة يقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله

ولما عاد إلى المدينة أحس بتأنيب الضمير، وزاحم أنفاسه شعور بالذنب، فلم يكن له ملاذ سوى النبي ﷺ يفصح له بما في نفسه، ويصحح به سلوكه ذلك إن كان مخطئاً.

(١) سنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ١٨-٢٢٦ حدثنا بشر بن موسى ثنا محمد بن سعيد الأصبهاني ثنا حفص بن غياث عن عاصم الأحول عن السميط بن سمير عن عمران بن حصين. السميط صدوق من رجال مسلم وتلميذه تابعي ثقة وحفص ثقة فقيه وابن سعيد الملقب بـ (حمدان) ثقة ثبت: التقريب (٥٦ و١٧٣ و٤٨٠) أما شيخ الطبراني فثقة نبيل انظر البلغة (١١١) والحديث شاهد لما سبق.

يقـول رضي الله عنه: «بعثنا رسـول الله ﷺ في سـرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله فطعنته.

فوقع في نفسـي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت: يا رسـول الله، إنما قالها خوفاً من السـلاح. قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا..؟

فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»[1] لهول ما ارتكبه.

أسـامة هو حبيب النبي ﷺ الذي كان يحمله بين يديه إلى المسـجد.. أسامة هو الذي كان ﷺ يطهر جرحه بفمه العطر، ويوصي به عائشـة رضي الله عنها قائلاً «يا عائشة أحبيه فإني أحبه»[2].. أسامة الذي يتحدث بنفسه عن مساحته داخل النبي ﷺ فيقول: «كان رسـول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: اللهم ارحمهما فإني أرحمهما»[3]. كل هذا الحب لا يبرر لأسـامة ذلك الخطأ، ولا يمنحه حق التحدث عن أسـرار القلـوب والنوايا، فالفاضح الوحيـد للقلوب هو الوحي والوحي فقـط، فإذا لم يكن ثم وحي فالقلب هو ما أمامك من مشهد لا ما تسافر بك الظنون إليه.

هاهو أحد الصحابة واسمه عتبان بن مالك يعاني من أمرين:

الأول: مرض يكبل جسده عن الوصول إلى المسجد.

والآخـر: رجـل كثرت مضايقتـه للصحابـة لدرجة جـزم بها بعضهـم أنه من المنافقين.

فـكان لا بد من تسـليم هذه الحيرة الغامضة إلى النبـي ﷺ، فماذا فعل عتبان، وماذا فعل أصحابه الذين يتمنون؟

---

(١) صحيح مسلم ١-٩٦.
(٢) حديث حسن، وقد سبق انظر صحيح الترمذي للإمام الألباني أسكنه الله فسيح جناته ٤٠٩٨.
(٣) صحيح البخاري ٥-٢٢٣٦.

يتمنون اغتيال المنافقين

يقول رضي الله عنه: (أصابني في بصري بعض الشيء، فبعثت إلى رسول الله ﷺ: أنـــي أحب أن تأتيني فتصلي في منزلي فأتخذه مصلى، فأتى النبي ﷺ ومن شـــاء الله من أصحابه، فجعل يصلي في منزلي وأصحابه يتحدثون بينهم، ثم أسندوا عظم ذلك وكبره إلى (مالك بن دخشـــم) قالوا: ودوا أنه دعا عليه فهلك، وودوا أنه أصابه شـــر. فقضى رسول الله الصلاة وقال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟ قالوا: إنه يقول ذلك وما هو في قلبه.

قال ﷺ: لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله فيدخل النار أو تطعمه)[1] وإذا كان هنـــاك من الصحابة مـــن ألجمه الحلم عن التهور، فاكتفى بطلب الدعاء على مالك بن دخشـــم، فإن الحماس حمل أحد الصحابة على امتشاق سيفه نحو النبي ﷺ كي يأذن له بالإجهاز على رجل يجزم بنفاقه.

شـــاهده صحابي اســـمه (عبيد الله بن عدي) وتحدث عنه فقال: «إن رجلاً سارَّ رسول الله ﷺ فلم ندر ما ساره به، حتى جهر رسول الله ﷺ، فإذا هو يستأمر في قتل رجل من المنافقين، فقال رســـول الله ﷺ: أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى. ولا شهادة له. قال: أليس يصلي؟ قال: بلى ولا صلاة له.

فقال النبي ﷺ: أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»[2]

وماذا بعد أولئك الذين تتفوه أعمالهم بأشياء فظيعة..؟

لا شـــيء ســـوى أن المســـلم غير معني باقتفاء مواطئ القلـــوب ولا مراميها، فهي مسافات طويلة ومفاوز مهلكة، وهدر للجهود والطاقات.

المســـلم معني بتجديد الحياة بالإســـلام.. بالبحث عن الخصوبة وإثراء ســـهولها بالجديد، لا بالوقوف أمام العقم وإهدار العمر في التحسر عليه، أما النتائج فهو أكبر مـــن أن يصـــر على أن تمثل بين عينيه قبل أن يمثل أجلـــه. إن جاءت فيالها من نتائج، وإن تأخرت فقد ســـبقها إلى ما هو أبهى وأبقى، كما ســـبق هؤلاء الفرسان غيرهم من الأحياء.. فرسان:

---

(١) صحيح مسلم ١-٦١.

(٢) صحيح مسلم ١-٦١.

ففي المدينة، وبينما كانت إحدى النســاء مسافرة في منامها.. شاهدت في طريق الأحلام رحلة هؤلاء الشهداء إلى الجنة.

يقول أنس رضي الله عنه «كان رســول الله ﷺ تعجبه الرؤيا الحسنة، فربما قال: هــل رأى أحد منكم رؤيا؟ فإذا رأى الرجل رؤيا ســأل عنه، فإن كان ليس به بأس كان أعجب لرؤياه إليه.

فجاءت امرأة فقالت: يا رســول الله، رأيت كأني دخلت الجنة، فسمعت بها وجبة ارتجت لها الجنة، فنظرت، فإذا قد جيء بفلان بن فلان، وفلان بن فلان، حتى عدَّتْ اثنى عشــر رجلاً -وقد بعث رسول الله ﷺ ســرية قبل ذلك- فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشــخب أوداجهم فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر الســدخ أو قــال: إلى نهر البيدج. فغمســوا فيــه فخرجوا منه وجوههــم كالقمر ليلة البدر، ثم أتوا بكراســي من ذهب، فقعدوا عليها، وأتى بصحفة أو كلمة نحوها فيها بسرة فأكلوا منها، فما يقلبونها لشق إلا أكلوا من فاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم.

فجاء البشير من تلك السرية فقال: يا رسول الله، كان من أمرنا كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان حتى عد الاثني عشر الذين عدتهم المرأة. قال رسول الله ﷺ: عليَّ بالمرأة. فجاءت.

قال: قُصِّي على هذا رؤياك. فقصت. قال: هو كما قالت لرسول الله ﷺ»(١).

هذا هو الهدف والنتيجة الأســمى، والأهم في حركــة المؤمن حتى الموت، أما في الحياة فمشروع أبيض قد يرى نتائجه وقد يموت دونها.

ســافر أولئك الشــهداء إلى النعيم، وبقي من بقي من رفاقهم ينتظرون الحصول على مقعد في تلك الرحلة الحلم، ولعل من أكثرهم شوقاً أولئك الذين عبروا الصحاري والبحار مهاجرين من الحبشة واليمن.. حيث كانت إحدى السرايا تنتظرهم.. في رحلة لا تقل عن معاناتهم السابقة.. سرية لدى أبي موسى سر تسميتها بـ:

---

(١) ســنده صحيح رواه أحمد ٣-١٣٥ ثنا بهز ثنا ســليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس وحدثنا أبو النضر ثنا سليمان المغني. سليمان ثقة وشيخه البناني تابعي ثقة سمع من أنس.

غزوة ذات الرقاع الثانية

يقول رضي الله عنه: «خرجنا مع رسـول الله ﷺ في غزاة ونحن سـتة نفر، بيننا بعير نعتقبه. فنقبت أقدامنا، فنقبت قدماي وسـقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة (ذات الرقاع) لما كنا نعصب على أرجلنا من الخرق»[1]

لكن أبا موسى ندم على ذكر معاناته خشية أن يعكر ذلك الحديث صفاء نيته، حيث يقـول ابنه أبو بردة: «فحدث أبو موسـى بهذا الحديث ثم كـره ذلك. كأنه كره أن يكون شـيئاً من عمله أفشـاه»[2] وذات الرقاع هذه تختلف عن غزوة ذات الرقاع السابقة، لأن تلك الغزوة سميت هكذا لمرور الجيش بمكان يقال له ذات الرقاع، ومن سياق تلك الغزوة يتبين أن العدد كان أكثر من سـتة بكثير، كما أن الجمال هناك كانت متوفرة، لأن جابراً كان طوال الرحلة يركب جمله الهزيل الذي اشـتراه منه النبي ﷺ، كما أن جابراً رضي اللـه عنـه كان قد تزوج حديثاً، أي بعيد وفاة والده رضـي الله عنه، ولم يعلم النبي ﷺ بذلك إلا بعد أن أخبره جابر.

أما هذا الغزوة فسماها أبو موسى والستة الذين معه رضي الله عنهم بهذا الاسم لقلـة الأحذية والخفاف، وهي سـرية صغيرة ولم يحدد أبو موسـى وجهتها، لكن أبا هريرة يحدد وجهة جيش شارك فيها، بل لقد سماها بـ:

غزوة نجد

وقـد جرت في هذه الغزوة أحداثٌ أثارت تسـاؤل أحد الرجال الذين سـألوا أبا هريرة فقالوا له: «هل صليت مع النبي ﷺ صلاة الخوف؟ فقال أبو هريرة: نعم. قال: متى؟ قال: كان عام غزوة نجد: فقام رسول الله ﷺ لصلاة العصر، وقامت معه طائفة وطائفة أخرى مقابل العدو ظهورهم إلى القبلة.

فكبر رسول الله ﷺ وكبروا معه جميعاً، الذين معه والذين يقابلون العدو، ثم ركع رسـول الله ﷺ ركعة واحدة، وركع معه الطائفة التي تليه. ثم سجد وسجدت الطائفة التي تليه، والآخرون قيام مما يلي العدو.

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٤٩ والبخاري ٤-١٥١٣.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٤٩ والبخاري ٤-١٥١٣.

ثــم قام رســول الله ﷺ وقامت الطائفــة التي تليه، فذهبوا إلــى العدو فقابلوهم، وأقبلت الطائفة التي كانت مقابل العدو فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قائم كما هو.

ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أخرى، فركعوا معه وسجدوا معه.

ثم أقبلت الطائفة التي كانت مقابل العدو، فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قاعد ومن معه، ثم كان الســلام، فسلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعاً. فكان لرسول الله ﷺ ركعتان، ولكل رجل من الطائفتين ركعتان ركعتان»[1]

كانــت تلك الغزوات تأديباً للمعتدين، وتأميناً لطرق التجار والحجاج وحدود دولة الإســلام، التي تريد فرض هيبتها على من لا يؤمنــون بأخلاقيات الجوار، ولا رصيد عندهم لمفهــوم العهود والمواثيق، فبدأ الجميع ينعمون بأمن الطرق بعد تلك الســرايا الناجحة إلا قوافل قريش؟ فهل كان عليه السلام يعترضها؟

أبداً، فهذه ليست أخلاقه وقد وقع صلح الحديبية.

إذا فمن أقلق أرواح وقوافل قريش؟ من حول طريق الشام إلى جحيم؟

أبو جندل وأبو بصير كانا هناك، ورفاقهما المشــردون في البراري الممنوعون من حــق العيش بأمان في دولتهم وبين أحبتهم في المدينة، والذين مارســت قريش أقصى حالات التوحش والتطرف في مصادرة حرياتهم.. كان هؤلاء يمارســون عنفاً مضاداً، لكنه كان منضبطاً وموجهاً بدقة نحو ســبب معاناتهم فقــط دون غيره.. هذا الهدف المحــدد هو قريش وقوافلها. فقد أغلقت قريش أبواب الأرض دونهم، حتى منعتهم من دخــول المدنية، وهذا العنف يبرأ منه النبي ﷺ، وتبــرأ منه دولته، لكنها لا تمنعه لأنه صــراع من أجل البقاء والكرامة.. هو دفاع عن النفس، وجزاء من جنس العمل لا أكثر ولا أقل، كما أنه يجري خارج حدودها.

(١) ســنده قوي رواه النســائي ٣-١٧٣ وابــن خزيمة ٢-٣٠١ من طريق عبد الله بــن يزيد المقري قال حدثنا حيوة وذكر آخر قالا حدثنا أبو الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يحدث عن مروان بن الحكم أنه سأل أبا هريرة. عبد الله ثقة فاضل معروف وحيوة ثقة التقريب ١٥٨ وأبو الأســود هو محمد بن عبد الرحمن بن نوفل ثقة التقريب ٤٩٣.

تجري هذه الأحداث وغيرها وتمر الأيام والشــهور فــإذا عام كامل يكاد ينصرم، وهــذا يعني اقتراب نهاية عــام على تاريخ عمرة الحديبية، التي لم يتمكن المؤمنون من أدائهــا بعد أن منعتهم قريــش، وطلبت منهم العودة بعد عــام، وهاهو الموعد يقترب، والنبي ﷺ يأمر أصحابه بالتهيؤ للتوجه لأداء:

عمرة القضاء

أي العمرة البديلة لعمرة الحديبية حســب اتفاق الطرفين، ولها اســتعد المسلمون وســط ظروف معنوية مرتفعة بفتح خيبر وعودة المهاجرين من الحبشة، أما المشركون فيعانون من الإحباط الشــديد، فمحمد يســتولي على خيبر، ودولته تتعاظم كل ثانية، وســمعته ســحابة عطر تطوف الجزيرة، وأبو جندل ومن معه يقضون مضاجع قريش وقوافلهــا، وقوائــم ضحايا أبي بصير وأبــي جندل تصل إلى قريــش محملة بالنواح والعويل، والندم على ذلك الشــرط المكتوب بالغطرســة الوثنية، وتسير قافلة المؤمنين ملتزمة بشــروط قريش التي تقول: «لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب، وأن لا يخــرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعــه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها»[١]

تســير قافلة المؤمنين ملتزمة بالسكينة والهدوء حسب الشروط والاتفاقية الموقعة بين الطرفين، وتقترب من مكة الحبيبة، فتشرع نوافذ الأرواح وأبوابها للذكريات، وأيام الطفولة والمعاناة...

آه ما أجمل مكة وأطيب ريحها، ما أجمل ذكريات الصبا فيها، لكن أصدقاء الفشل وأعداء النجاح يمارسون دوماً السخرية من المتفوقين عليهم.. ردماً لهوة الإحباط التي يعانون منها، وهو ما تتلفظ به قريش الآن، بعد رؤيتها لمحمد وأصحابه في طرقات مكة ودروبها، لكن النبي ﷺ يجيد وأد السخرية في مهدها.. يحشو جوفها بجمر التفوق.

عبــد الله بــن العباس بن عبد المطلــب طفل يعيش في مكة مــع والده العباس.. كان هناك.. شــاهد ما حدث، وتحدث فقال: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥١.

وهنتهـم حمى يثرب، قال المشـركون: إنــه يقدم عليكم غداً قوم قــد وهنتهم الحمى، ولقوا منها شدة، فجلسوا مما يلي الحجر، وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط، ويمشوا ما بين الركنين ليرى المشركون جلدهم.

فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

قال ابن عباس: ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم»[١] و«إنما سعى رسـول الله ﷺ ورمل بالبيت ليري المشركين قوته»[٢] والرمل هو الإسراع في المشي، وهي حالة وسط بين الركض والمشي.

وإذا كان الرمل يغيض المشـركين، فإن الشعر كان يطوف حول الكعبة.. (عبد الله بن رواحة) أحد شـعراء العصر والإسلام.. كان لسـاناً من اللهب يطوف حول الكعبة، ويحرق ما تبقى من معنويات لقريش.

أغمدت السيوف، لكن عبد الله بن رواحة لم يغمد شعره، يقول «أنس: إن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبي ﷺ: خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل»[٣]

وتحسباً لأي مكروه يقول أحد الصحابة وهو (ابن أبي أوفى): «لما اعتمر رسول ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم، أن يؤذوا رسول الله ﷺ»[٤]

أتم ﷺ وأصحابه عمرتهم، وعطروا أرواحهم بأجواء مكة الحلم، ومكثوا حسب الاتفاق المبرم ثلاثة أيام.. تمتعوا بقرب بيت الله الحرام، وخلال هذه الأيام طلب ﷺ يد امرأة اسمها ميمونة بنت الحارث.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٩٢٣.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٢٩٣.
(٣) سنده صحيح رواه الترمذي ٥-١٣٩ وغيره من طريق عبد الرزاق أخبرنا جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن أنس، وجعفر بن سليمان صدوق زاهد من رجال مسلم وثابت تابعي ثقة سمع أنسا انظر النسائي ٥-٢٠٢ وفي الكبرى أيضاً ٢-٣٨٣.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٢.

الزواج بميمونة

وميمونة هذه، هي أخت زوجة العباس عم النبي ﷺ، وابن عباس رضي الله عنهما يتحدث عن زواج خالته فيقول: «تزوج النبي ﷺ ميمونة في عمرة القضاء»[١]

ويقـــول «تزوج النبي ﷺ ميمونـــة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال»[٢] لكن يبدو أن ابـــن عباس قد أخطأ لصغر ســـنة، فقد كان طفلاً آنذاك، لذلـــك توجهنا إلى ميمونة رضي الله عنها، وســـألناها فقالت: «رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ تزوجها حلالاً، وبنى بها حلالاً بنى بها بسرف»[٣] وهو مكان قريب من مكة.

وقـــال ابن أختها الآخر يزيد الأصم: «حدثتني ميمونة بنت الحارث: أن رســـول الله ﷺ تزوجها وهو حلال.

قال: وكانت خالتـــي وخالة ابن عباس»[٤] و«كان الذي زوجه إياها العباس بن عبد المطلب، فأقام رســـول الله ﷺ بمكة»[٥] ثلاثة أيام هو وأصحابه يســـتمتعون بأجوائها الطيبة.. بمراتع الطفولة وذكريات الشـــباب.. بطرقاتها وبيوتاتها التي أرغمهم الكفر على مغادرتها، وبعد اليوم الثالث اضطروا إلى مغادرتها..

كان فراقـــاً مؤلماً يتحدث عنه البراء بن عازب فيقول: «أقام رســـول الله ﷺ ثلاثة أيـــام في عمـــرة القضاء، فلما كان يوم الثالث قالوا لعلي: إن هذا آخر يوم من شـــرط صاحبك، فمره فليخرج.

فحدثه بذلك قال: نعم، فلنخرج»[٦]. فالنبي ﷺ خير من يفي بالعهود، لكن:

---

(١) صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٣.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٥٣.

(٣) سنده صحيح رواه الحاكم ٤-٣٣ حدثنا محمد بن يعقوب ثنا محمد بن إسحاق الصغاني ثنا وهب بن جرير ابن حازم ثنا أبي قال سمعت أبا فزارة يحدث عن يزيد بن الأصم عن ميمونة. يزيد تابعي ثقة - التقريب ٥٩٩ وتلميذه راشد بن كيسان تابعي ثقة التقريب ٢٠٤ ووهب ووالده ثقتان التقريب ٥٨٥.

(٤) صحيح رواه مسلم ٢-١٠٣٢.

(٥) ســـنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ١١-١٧٣ والطبري. التاريخ ٢-١٤٣ ثنا أبان بن صالح وعبد الله بن أبي نجيح عن عطاء بن أبي رباح عن مجاهد عن ابن عباس. عطاء ومجاهد تابعيان إمامان ثقتان وأبان وعبد الله ثقتان التقريب ٣٩١ و٥٢٠.

(٦) حديث حســـن رواه أبو عوانة ٤-٢٩٥ حدثنا الربيع بن ســـليمان قال ثنا أسد بن موسى ثنا يحيى بن زكريا ابن أبي زائدة قال حدثني أبي عن أبي إســـحاق عن البراء.. أســـد السنة صدوق وشيخه ثقة متقن ووالده ثقة لكنه سمع من أبي إسحاق متأخراً ويشهد له ما بعده.

يلتمس منهم السماح له بتمديد فترة بقائه وأصحابه في مكة أياماً، كما طلب منهم مشاركته أفراح عرسه ووليمته.

عن هذا الالتماس، وعن رد قريش يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، وأقام بمكة ثلاثاً فأتاه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش في اليوم الثالث، فقالوا له: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا. قال: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، فصنعت لكم طعاماً فحضرتموه؟ قالوا لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا. فخرج بميمونة بنت الحارث رضي الله عنها حتى أعرس بها بسرف»[1] وعندما هم ﷺ بمغادرة أحب البلاد إلى قلبه لحقت به ابنة عمه وحبيبه سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه، ورغبت في مصاحبته إلى تلك المدينة الطيبة، التي آوت والدها واحتضنته إلى يوم القيامة.. «خرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فتناولها علي، فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك احمليها.

فاختصم فيها علي وزيد وجعفر. قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي. وقال زيد: ابنة أخي. فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: الخالة بمنزلة الأم.

وقال لعلي: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا»[2]

نسيج متناغم وخلاب من العلاقات والحب حوله ﷺ.. كل يرى أنه أحق برعاية يتيمة حمزة، وكلمات تواسي تلك القلوب المفعمة: أنت مني وأنا منك.. أشبهت خلقي

---

(١) سنده قوي وقد ضعفه الإمام الألباني في تعليقه على فقه السيرة للشيخ الغزالي رحمهما الله حيث قال رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون سند فقه السيرة (٣٦٤) لكني وجدت له سنداً في المستدرك ٤-٣٣ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدثني بن أبي نجيح عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس والسند من الحاكم إلى ابن إسحاق سند صحيح موثق في السيرة خاصة دون غيرها و بقية السند قوي مر معنا وهو الحديث قبل السابق.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥١.

وخلقي.. أنت أخونا ومولانا.. وقافلة رضي الله عنها تحت الشـجرة، والمطايا والقلوب تتفطر بين مكة وطيبة..

وصل ﷺ إلى المدينة، لكن حياة من نذروا أنفسهم لإزالة تجاعيد الأرض وأحزان القلـوب بالإيمان والتوحيد لا تعرف الهدوء ما دام هناك شـبر يئن من وخز الأصنام والأوثان والظلم، فالقضية ليسـت بحثا عن الغنائم، أو سـعياً وراء دفع حدود الدولة الجديد إلى الأقصى الممكن.. هي النبوة والتوحيد، ومن حق كل البشر الحصول عليها، وليس من حق من يحملونها الاسـتئثار بها وحرمان الآخرين من التمتع بها، وليس من حق أحد مهما كان منع صوت التوحيد من الوصول إلى القلوب.

بعـد عودة النبي ﷺ من مكة قرر القيـام بالتخاطب مع الدول العظمى المجاورة، لكـن قبل ذلك وصلت أخبار، ووصلت شـخصيات، وحدثت أحـداث اهتزت لها مكة والمدينة.. حتى الحبشة هزها ما هز مكة والمدينة، ولم لا تهتز المدينتان وآخر داهيتين من قريش ينتزعان قلبيهما وروحيهما من مخلفات العادات والوثنية الموروثة، ويتجهان بها نحو مدينة الفجر والتوحيد:

خالد بن الوليد وعمرو بن العاص يهاجران

وإسـلام أمثالهما يفقد قريشـاً توازنها، ويصيبها في ما تبقى لها من عزم، فأين لقريش بقائد ميداني في مثل دهاء خالد، الذي يقرأ جيش خصمه كما يقرأ اسمه..؟

وأين لها بمثل عمرو بن العاص داهية يزحزح دهاؤه الجبال..؟

كان لهذيـن العظيمين عنـاد العظماء وثقتهم بقدراتهم علـى حل معضلة محمد عاجلاً أو آجلاً، وهذا ما يغري أمثالهما ممن حباهم الله بعقول وقدرات ذات مواصفات قياسية.. تجد لديهم الفرح بما عندهم، وحب الاستقلال والترفع عما يؤمن به ويسلكه البسطاء، لكن الميزة في الإسلام هو أنه بسيط ومدهش ومعجز في الوقت نفسه، وتلك حقيقـة لا مفر منها، وقدرته على تطويع الجبابرة والمفكرين تماماً هي كنعومته ورقته في الإمساك بأيدي البسطاء والمساكين، وأخذهم إلى حيث ينعمون. لكن عنصر العناد والاعتداد بالنفس والحسد أحياناً لدى العظماء يحرمهم من البوح بالحقيقة الصارخة داخل أعماقهم، وقد كان إسلام خالد وعمرو هو الخلاص من معاناة العناد، والاعتداد

بالذات، وفي قصة إسلامهما تفاصيل تلك التعرجات التي سلكتها الروح والعقل بعيداً عن الصراط المستقيم، حتى وجدا نفسيهما يوماً في صحاري أبي جهل، حيث لا مكان لغير الضياع والعطش والموت.

يقول عمرو رضي الله عنه: «إني قد كنت على أطباق ثلاث: لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار فلما»[1] فلما.. لما ماذا يابن العاص..؟

«لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون مكاني ويسمعون مني فقلت لهم: تعلمون والله إني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً كبيراً منكراً، وأني قد رأيت رأياً فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرف، فلن يأتينا منهم إلا خير.

فقالوا: إن هذا الرأي. فقلت لهم: فاجمعوا له ما نهدي له.

وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدماً كثيراً، فخرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لنعده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه. قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده

فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه، فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش إني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال: مرحباً بصديقي، أهديت لي من بلادك شيئاً؟ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدماً كثيراً، ثم قدمت إليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-١١٢.

فغضب، ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه.

فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟

فقال: ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قلت: فبايعني له على الإسلام. قال: نعم.

فبسط يده، وبايعته على الإسلام ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة. فقلت: أين يا أبا سليمان؟

قال: والله لقد استقام المنسم، وإن الرجل لنبي، أذهب والله أسلم، فحتى متى..؟

قلت: والله ما جئت إلا لأسلم.

فقدمنا على رسول الله ﷺ، فقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله»[1] «ابسط يمينك لأبايعك فبسط يمينه.

فقبضت يدي. قال: ما لك يا عمرو؟ قلت: أردت أن أشترط. قال: تشترط..؟ بماذا؟

قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله.

وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة»[2]

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٤-١٩٨ والحارث (زوائد الهيثمي) ٢-٩٣٣ حدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي عن أبي حبيب بن أبي أوس حدثني عمرو. شيخ ابن إسحاق تابعي ثقة فقيه، وراشد قال عنه يحيى بن معين ثقة يروى عنه المصريون - الجرح والتعديل ٣-٤٨٦، وحبيب قال الحافظ في الإصابة ٢-١٥: ذكره ابن يونس فيمن شهد فتح مصر فدل على أن له إدراكاً ولم يبق من ثقيف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم وشهدها فيكون هذا صحابياً.

(٢) صحيح مسلم ١-١١٢.

تلك العبارات التي تئن من أعماق عمرو بن العاص تكشف ما يتقد داخله.. كم كان اتخاذ القرار الشجاع في اعتناق الحقيقة مؤلم حقاً، لكن ذلك الألم لم يدم أمام سعادة العيش في واحة الإيمان وراحته، وأمام العيش بين تلك المشـاعر الفياضة، التي تتدفق من كلمات وأحضان إخوته الجدد، الذين يبتهجون به وبخالد الآن.

شمس جديدة تطلع على خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وحياة جديدة بالتوحيد تشـرق عليهما.. تغمرهما نشاطاً وحيوية، وأهدافاً أسمى، وآفاقاً كانت الوثنية تعصب عينيهما وروحيهما عنها، وإذا كانت كلمات النجاشـي العظيم هي الشعلة التي تغلغلت في ضمير عمرو لتنيره، فإن هذا النجاشـي لا يكف عن تحريك الحب والمشاعر، لكنه اليوم يمارس اسـتمطار الدمـوع والذكريات، ويضفي على أجواء المدينة سـحاباً من الحزن والوجوم. ما الذي فعله النجاشي بقلوب المؤمنين..؟.

مات النجاشي رحمه الله ورضي عنه

خبر تكدرت له الحبشـة، وتكدر له جعفر وأصحاب السفينة والنبي ﷺ والمؤمنون جميعاً.. خبر يجعل اليوم ثقيلاً تحسب ساعاته بالدموع. لم يأت الخبر فوق سفينة أو بعير.. جاء الخبر من السـماء، فتكدر له أهل الأرض، ولا أدري كم من الدموع سفحت على ذلك الملك الإنسان.. العادل الصالح، الذي كان خير معين عندما عز المعين، وكان خير مجير عندما ضاقت الديار والأهل بمن يقول: لا إله إلا الله.

أصحمة النجاشي تحت الثرى، لتنزل من السماء سنة جديدة مع خبر وفاته. سنة يقول عنها أبو هريرة رضي الله عنه: «نعى لنا رسول الله ﷺ صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه، فقال استغفروا لأخيكم»(١) وقال: «مات اليوم رجل صالح»(٢) «مات اليوم عبد لله صالح»(٣). ثم قال: «صلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم. قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أصحمة النجاشي»(٤) ثم دعا النبي ﷺ أصحابه «فخرج بهم إلى المصلى»(٥).

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٤٠٧.

(٣) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٤) سـنده على شرط الشـيخين رواه أحمد ٤-٧ من طرق عن قتادة عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد أن رسول الله ﷺ. أبو الطفيل وحذيفة صحابيان.

(٥) صحيح مسلم ٢-٦٥٦.

والمصلى غير المسـجد، فالمصلى في الصحراء وليس له جدران. ثم «إن رسول الله ﷺ صف بهم بالمصلى فصلى فكبر عليه أربع تكبيرات»[1] ليس فيها ركوع أو سجود.

يقول جابر: «إن رسـول الله ﷺ صلى على النجاشـي فكنت في الصف الثاني أو الثالث»[2] استغرب بعض المصلين تلك الصلاة، وذلك الاستغفار لرجل لم ير النبي ﷺ، ولم يره النبي ولم يهاجر إليه، ولم يبايعه، بل ظنوه مازال علجاً نصرانياً.

يقول أنس: «لما توفي النجاشي قال النبي ﷺ: استغفروا لأخيكم. فقال بعض القوم: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة..؟ فنزلت ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾»[3]

علم أولئك المتسائلون مكانة النجاشي عند ربه، وشهادته له التي أنزلها من فوق سبع سـماوات.. الحبشي الكريم الذي كان ذات يوم يلتقط عوداً من الأرض ويرفعه، ليخاطب من حوله من النصارى والوثنيين، ويخاطب المؤمنين الذين لاذوا بعدله وطمعوا في حمايته مـن بطـش طواغيت قريش.. تحدث حينها فاضحاً شـوقه الجـارف للنبي ﷺ: «تناول النجاشـي عوداً من الأرض فقال: يا معشـر القسيسين والرهبان ما يزيد ما يقول هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه رسـول الله. والذي بشـر به عيسى ابن مريم ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه.. امكثوا في أرضي ما شـئتم، وأمر لنا بطعام وكسوة»[4] ما أجمل هذا الأسمر وما أجمل صفاته، وما أفسح صدره وأرضه عندما ضاقت صدور الأهل والأقارب.

---

(١) صحيح البخاري ١-٤٤٣.　　(٢) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٣) حديث صحيح رواه ابن أبي حاتم في التفسير ٣-٣١٨ وابن مردويه - تفسير ابن كثير ١-٤٤٤ من حديث حماد بن سـلمة عـن ثابت عن أنس ورواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم مـن طريق أخرى عن حماد عن ثابت عن الحسـن عن النبي ﷺ وابن مردويه من طرق عن حميد عن أنس نحوه وهذه أسـانيد صحيحة إلا مرسل الحسن لكنه قوي بها.

(٤) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٥٠ حدثنا عبيد الله بن موسى قال أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى وقد ضعفه الإمام الألباني رحمه الله هذا السند في ضعيف أبي داود (٣٢٥) ولا أدري على أي شـيء اسـتند غفر الله له، فلا يوجد تفصيل في صحيح سـنن أبي داود والصواب أنه صحيح لأن إسـرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة سـند صحيح وهو من أسانيد البخاري، وأبو إسحاق عن أبي بردة من أسـانيد مسـلم أما تلميذ إسـرائيل فثقة ثبت - التقريب ١-٦٨ وهو لم ينفرد بل تابعه عند ابن أبي شـيبة ٧-٣٥٠ شـيخه: عبيد الله بن موسى وهو ثقة وأثبت في إسرائيل من أبي نعيم انظر التقريب، فالسـند صحيح، وللحديث شاهد حسن عند أحمد ١-٤٦١ حدثنا حسن بن موسى قال سمعت حديجاً أخا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود. وحديج حسن الحديث إذا لم يخالف الثقات.

يتذكر جعفر ورفاقه الهاربين من البطش لذة طعام النجاشي وجمال تلك الكسوة، وعطف الملك الحبيب الذي جاءت الأخبار من أهل الحبشة بعد دفنه بـ:

كرامة على قبر النجاشي

تقول عائشة رضي الله عنها: «لما مات النجاشي كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور»[1].

ودع الصحابة أخاهم بالدعاء وطلب الرحمة له من الله، وتولى بعده ملك آخر، ونجاشي آخر على الحبشة، وكان هذا الملك كغيره من البشر له عقل وروح، وهما بحاجة إلى من يأخذهما إلى حيث أجواء الإسلام الرحبة، لأن في إطلاقهما إطلاقاً للشعوب والأتباع. لقد قرر ﷺ مكاتبته ودعوته للإسلام هو وغيره من الملوك والأكاسرة، فالإسلام لا يعرف الطبقات في نظرته للبشر، ولا يعرف الألوان ولا الأحساب ولا الأنساب.. هو رسالة توحيد من الخالق إلى المخلوق، ويجب على من يحملون هموم الرسالة تسليمها إلى أهلها.. إلى كل البشر دون استثناء أو تمييز، وإذا كان الإسلام يمنح الضعفاء والمستضعفين أهمية قصوى، فإنه يوظف الأقوياء لنشر الحق والعدل على وجه الأرض، ويسير معهم في ذلك إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه، وليس هناك أنسب من هذه الأيام التي أعقبت فتح خيبر، فهي أيام سلام غل فيها النبي ﷺ قريشاً عن الاعتداء والحرب، وتمكن من السيطرة على اليهود واحتواء خياناتهم داخل دوائر ضيقة يمكن مراقبتها، وهؤلاء في نظر الإسلام عصابات مزعجة، وحفر في طريق دعوة تنظر إلى أبعد من قريش وإلى أبعد اليهود..

دعوة الإسلام عالمية.. تنظر إلى الأرض دون حدود، وإلى ما هو أبعد من الأرض، أما الأقوياء الذين يسعى ﷺ لاستثمار سطوتهم وسلطتهم، فهم قادة الدول الكبرى المحيطة بالجزيرة العربية، والذين تتوزعهم ديانات واتجاهات مختلفة، لذلك قرر:

---

(١) هو ليس بحديث وسنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود ٣-١٦ وغيره حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة. يزيد وعروة تابعيان ثقتان مرا معنا كثيرا.

ومــن المؤكد أن ردود الفعل تجاه تلك الرســائل ســتكون متباينة، كما أن من غير المستســاغ لــدى هؤلاء الجبابرة أن يــروا عربياً كان يرعى الغنم فــي الصحاري وبين الجبال يقتحم عليهم ما هم فيه من أبهة وعظمة.. مطالباً إياهم باتباعه وترك ما ألفوه وورثوه هم وشعوبهم.. الأمر صعب ويحتاج إلى نفوس تتفوق على نفسها.

يقول أنس بن مالك: «إن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ»[١]. لكن وقبل أن يبعث ﷺ بتلك الرسائل اضطر إلى أن يأمر بصنع خاتم له.

النبي عليه السلام يأمر بصنع خاتم

يقول «أنس إن النبي ﷺ أراد أن يكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي، فقيل: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم. فصاغ رسول الله ﷺ خاتماً حلقة فضة، ونقش فيها محمد رسول الله»[٢] «كأني أنظر إلى بياضه في يده»[٣] «وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر:

محمد سطر

ورسول سطر

والله سطر»[٤].

ختم ﷺ رســائله، وســلمها لمن ســيقوم بحملها إلى أصحابها، وقد جاءت أقسى ردود الفعل على تلك الرســالة من عباد النار في بــلاد المجوس - فارس، ومن ملكهم المتعجرف (كســرى) وقد حمل هذه الرسالة الصحابي الجليل صاحب الدعابات (عبد الله بن حذافة السهمي) الذي أمر أصحابه يوما بأن يقذفوا أنفسهم في النار (ممازحاً) وكانت مهمة عبد الله مقتصرة على تســليم الرسالة إلى عظيم البحرين، والذي طلب منه النبي ﷺ تسليم الرسالة بدوره إلى كسرى، فما هو:

(١) صحيح مسلم ٣-١٣٩٧.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٦٥٧.
(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٦٥٧.
(٤) صحيح البخاري ج:٣ ص: ١١٣١.

ملـك معتوه لم يكـن يتمتع بلياقة أدبية، ولا حتى دبلوماسـية تؤهلـه لقيادة أمة عظيمة كأمة فارس.. كان كسرى كتلة من الغرور.. لم يُجد خطاب النبي ﷺ في تذكيره ببشـريته، وقدرة الله عليه. قرأ كتاب رسول الله ﷺ فاستشاط غضباً وغروراً.. كيف يبعث عربي إليه رسالة يقدم فيها مطالب، بدلاً من أن يبعث له بفروض الطاعة والولاء مقرونة بالهدايا والضرائب..؟!!

هـذا مـا لا يحتمله رجل وثني يعبـد حطبا محترقاً.. رجل عـديم الاحترام مثل كسـرى. يقول أحد الصحابة: « إن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السـهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه»[1] و«خرقه»[2] غير آبه به ولا بمن كتبه.

أمـا النبي ﷺ فواصل كتابة الرسـائل مبشـراً الدنيا بعـودة التوحيد النقي إلى الأرض من جديد فكتب:

رسالة إلى المقوقس ملك الإسكندرية

وهو أمير القبط، أو الأقباط، وهم سكان مصر، وقد تحول بعضهم من الوثنية إلى المسـيحية، وكان ملكهم أكثر تهذيباً وأكرم خلقاً من ذلك المجوسـي الأرعن.. المقوقس «أمير القبط أهدى إلى رسـول اللـه ﷺ جاريتين وبغلة، وكان يركـب البغلة بالمدينة، وأخذ إحدى الجاريتين لنفسه»[3] فأسلمت وتسراها النبي ﷺ، وقد تردد في المدينة أن قبطياً له قرابة منها رضي الله عنها يزورها ويتردد عليها، فدخل الشك إلى النبي ﷺ «فقال رسـول الله ﷺ لعلي: اذهب فاضرب عنقـه. فأتاه علي فإذا هو في ركي يتبرد

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٠.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٠٧٤.

(٣) حديث حسـن رواه الحارث - زوائد ١-٥١١ حدثنا خالد بن خداش نا حاتم بن إسـماعيل عن بشـير بن مهاجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ورواه في الآحاد والمثاني ٥-٤٤٧ والطبراني في الأوسط ٤-٣٧ من طريقين عن حاتم.. به وهو سند قوي لولا لين في بشير وهو صدوق من رجال مسلم، وله شاهد ضعيف من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن رجل مجهول.. في الآحاد والمثاني ٥-٤٤٧.

فيهـــا. فقال له علي: اخرج. فناوله يده، فأخرجه فإذا هو مجبوب»[1] «فكف علي عنه، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه لمجبوب»[2].

حملـــت تلك الفتاة القبطية، فكانت أول امرأة تحمـــل منه ﷺ بعد زوجته خديجة رضي الله عنها.. تلك هي هدية المقوقس الذي رفض الإسلام، لكنه كان مهذباً في رده. أما أكثر الرسائل إثارة فكانت تلك التي حملها الصحابي دحية الكلبي إلى ملك الروم.

انطلق دحية الكلبي إلى عظيم بصرى في الشـــام، والذي ســـيقوم بدوره بإيصال الرســـالة إلى ملك الروم هرقل، وكان قد ســـبقه إلى أرض الروم - الشـــام زعيم مكة وقريش أبو سفيان، لا لشيء سوى التجارة فقط.

تصادف وجود أبي ســـفيان مع وصول الرســـالة النبوية الكريمة، لن يقص دحية ما حدث.. زعيم قريش أبو ســـفيان الذي كان حاضراً في بلاط الروم هو من سيروي لنا القصة، حيث اســـتدعاه هرقل لطرح بعض الأسئلة عليه حول شخصية النبي ﷺ، بصفته رجلاً من قومه ومن أعرف الناس به.

لكن ســـؤلا ملحاً يتجول على طريق الشـــام هو: كيف يســـافر أبو سفيان وتجارته بأمان..؟ صحيح أنه لن يخرج أحد من المدينة لاعتراضهم، لكن في الطريق أمر مرعب ومخيف.. أسدان جريحان يتلمظان لانتزاع حريتهما وما سلبته قريش منهما، وهما في حـــل من ذلك كله، والنبي ﷺ في حل ممـــا يفعلانه، ومن الظلم إلصاق صفة الإرهاب وقطع الطريق بهما.

هما طريدا الفكرة والعقيدة.. صودرت أموالهما وأولادهما وأوطانهما، وحريتهما، ومنازلهما، وليس لهما على هذه الأرض سوى مساحة بالكاد تتسع لأنفاسهما وسيفيهما، لكنهما ليســـا في أزمة كأزمة قريش، لأنهما يحتســـبان معاناتهما عند الله، أما قريش فتعيش أزمة لا حل لها سوى العار.

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٣٩ والركي هو البئر، والمجبوب هو من لا يستطيع الزواج.
(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٣٩.

تكمن في انهيار اقتصادها، وتعذر تسيير تجارتها، وعزلتها عن العالم. ولا مخرج لها من ذلك كله إلا خلال بوابة العار المخزية، وهي التنازل عن شرطها في منع المؤمنين من اللحاق بدولتهم ونبيهم ﷺ، وهذه هي القصة بالضبط:

انفلت (أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت)[1]. وهاهم اليوم يمحون باطلهم بأيديهم، ويتنازلون عن جورهم الذي ارتد طعنات من أبي جندل وأبي بصير في صدورهم.

لحق أبو جندل وأبو بصير ومن معهما بالمدينة، ليمارسوا حرية الحركة والمعتقد في أجواء نقية.. بعيدة عن الخرافة والظلم والجاهلية، وانطلق الكثير من الممنوعين نحو مهوى الفؤاد محمد ﷺ ومدينته المنورة بالحب والأنصار، وعادت لقريش حرية التنقل نحو الشام واليمن، بعد أن أمنت فتك أبي جندل ورفاقه.

هذا هو سبب انطلاق أبي سفيان في رحلة صيفية نحو الشام ليتزامن وصوله مع وصول:

رسالة النبي ﷺ إلى هرقل الروم

كان ﷺ يريد استثمار فترة التواضع لله التي يمر بها هرقل ملك الروم، بعد انتصار جيشه على جيش فارس، حيث عاد ذلك الملك من مدينة حمص إلى بيت المقدس سيراً على الأقدام شكراً لله.

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٩٧٧.

يقول أحد الصحابة: « إن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكراً لما أبلاه الله، فلما جاء قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا لي ها هنا أحداً من قومه لأسألهم»(١).

وهنا يكمل أبو سفيان القصة فيقول: «انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ... فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل، وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقالوا: نعم.

فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه فقال: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقلت: أنا.

فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه فقال: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه.

قال أبو سفيان: وايم الله لولا أن يؤثروا علي الكذب لكذبت. ثم قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو حسب.

قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: يزيدون أو ينقصون؟

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٧٤.

قلت: لا بل يزيدون.

قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟

قلت: لا.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً يصيب منا ونصيب منه.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال أبو سفيان: والله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه[1].

قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟

قلت: لا.

ثم قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فيكم؟ فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومهم. وسألتك هل كان في آبائه ملك؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو كان من آبائه ملك، قلت رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا. فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله. وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ فزعمت أن لا. وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب. وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون. وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً ينال منكم وتنالون منه. وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك: هل يغدر؟

---

(١) أي أنه لم يستطع أن يقدح فيه ﷺ إلا في قوله: أنه لا يدري هل سيغدر في المستقبل أم لا.

فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: هل قال أحد هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا. فقلت: لو كان قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم[1] بقول قيل قبله.

ثم قال: بم يأمركم؟

قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.

قال: إن يك ما تقول فيه حقاً، فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أك أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم:

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ إلى قوله ﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾

فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط وأمر بنا فأخرجنا.

فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمر أمرُ بن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر»[2]. «والله ما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر»[3]

لكن أبا سفيان مخمور بالزعامة والسلطة التي تخول صاحبها تشويه الحقيقة وتبرير رفضها.

---

(١) يعني قلّد قول أناس قبله.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٥٨ و٣-١٠٧٦.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٥٨ و٣-١٠٧٦.

لم ينتفع هرقل بتلك الرسالة، لكنه يشعر بوخزها المؤلم في ضميره، ولم يكن أبو سفيان أحسن حالاً منه. أما النبي ﷺ فلم يكن يعقد آمالاً على عناد كهذا.. كان يتطلع إلى مساحات خصبة يقف هذان العنيدان حراساً للقحط وتغييب الأخضر عنها. لكن لا يأس مع الدعوة، ولابد للحق أن ينتشر وينتصر ولو متأخراً، فالتأخير مجرد تمحيص للضمائر والأتباع، والتأخير في حقيقة الأمر هو اتجاه نحو الجذور، وسفر خلال الأعماق كي تتعالى شجرته في السماء، بعد أن تتمكن في الضمائر والعقول والوجدان. أما تلك النباتات التي تظهر فجأة وبسرعة، ودون رصيد جذري فما هي إلا ريح واحدة وتختفي.

لم يكن في رسائل النبي التهديد بقوة عسكرية، أو زحف أحمر لا يرحم.. كانت الرسائل موجهة نحو الضمير والعقل.. كانت رسائل تهز من الداخل، وتغزو من العمق، فليس هناك من يستطيع اليوم تهديد هرقل أو كسرى، لكنها رسالة الإسلام التي لا تعرف حدوداً. وقد أدرك هرقل أنه إن لم يستقبل الحق اليوم فسوف يستقبل له غداً، وأدرك أبو سفيان من قول هرقل ما كان يرفض إدراكه منذ سنين، فالقريب دائماً لا يقنع بإبداع القريب منه، إلا بعد أن يرى اعترافات الأبعد والأقوى تنهال على قريبه المبدع، والنبي ﷺ لم يكن ليضيع أوقاته في إقناع المعاند والحاسد، فالإسلام والزمن كفيلان بهما، وبعد أن وصلت تلك الردود إلى مسامع النبي ﷺ قال لأصحابه وحياً صادقاً، وبشرى لن تتخلف..

قال ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»[1].

أما النجاشي فلا أدري ما رده على الرسالة التي وصلته، لكن يبدو أن الرسالة الموجهة إلى هرقل أحدثت تداعيات مزعجة ومقلقة للنبي ﷺ ولدولته، مما جعله يعد جيشاً لملاقاة طموحات الروم بإيقاف النبوة والإسلام وتداعيات الرسالة.. النبي ﷺ يعد الآن جيشاً للتوجه للشام، لكنه قبل ذلك يقوم بـ:

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٣٥.

إرسال عبد الله بن رواحة إلى خيبر

أرسله عليه السلام لكي يقبض نصف المحصول السنوي من زراعة أرض خيبر.. حسب الاتفاق المبرم بين النبي ﷺ واليهود، والذي على أساسه أبقاهم هناك ولم يطردهم منها، وكان عبد الله يقوم بذلك عن طريق الخرص، نظراً لاستحالة الوزن والعد، والخرص هو تقدير الثمر وهو على رؤوس النخل.

وفي هذا العام حاول اليهود رشوة ابن رواحة، حيث «كان عبد الله ابن رواحة يأتيهم كل عام يخرصها عليهم، ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه. فقال: يا أعداء الله أتطعموني السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض»[1] وبهذا العدل قام الإسلام وانتشر، وبغيره تنهار دولته مهما تدين أصحابها وصاموا وصلوا وادعوا أنهم أهل الإسلام وحماته، وإلى العدل أرسل ﷺ أصحابه المعذبين ذات يوم.. إلى رجل في الحبشة يعلق الصليب على صدره، لأنه عادل لا يظلم عنده أحد.

عاد ابن رواحة إلى المدينة محملاً بنصيب دولة الإسلام من التمر، وعاد اليهود إلى بيوتهم بعد أن فشلت رشوتهم في بث الفساد المالي بين رجال دولة محمد.. هذه الدولة التي تزرع رقابة الله قبل أن تزرع الخوف من السلطة والحكومة.. عاد اليهود يخططون لجريمة جديدة ضد رأس الدولة، وأخيراً فكر اليهود بـ:

سحر النبي ﷺ

ولم يجدوا أنسب للقيام بهذه الجريمة من خادم للنبي يدعى «لبيد بن أعصم، رجل من بني زريق حليف لليهود كان منافقاً»[2] وقد كان يخدم النبي عليه السلام ويثق

---

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان ١١-٦٠٨ والطبراني ٢٤- ٦٧ والبيهقي ٩ - ١٣٧ وغيرهم من طرق عن الثقة حماد بن سلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، وعبيد الله ثقة ثبت من أوثق الناس رواية عن نافع - التقريب ٣٧٣.

(٢) صحيح البخاري ٥ - ٢١٧٥.

بـه رغم أنه يهودي، وقد خضع هذا الخادم لإلحاح اليهود، فأحضر لهم مشـطه عليه السـلام وبه شيء من مشاطه، أي الشـعر الذي يعلق بالمشط، ووضعه في وعاء للقاح النخل يسـمونه (جف طلعة)، ثم قرأوا عليه تعاويذ السحر بمساعدة الجن، ثم أخذوه إلـى مكان لا يمكـن لأحد أن يعثر عليه.. مكان غائر كحقـد اليهود. لقد خبأوه تحت صخرة يسـمونها (رعوف) وهـي الصخرة التي توضع في أسـفل البئر، فبدأ مفعول السحر يسري في جسد النبي ﷺ فقط لا غير.

تقول «عائشـة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن»[1] أي أنه أثر على جسده فقط، أما الوحي والتبليغ فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكن هذا السحر أثر على النبي ﷺ جسدياً، حيث إنه حرمه من الاتصال بنسائه أياماً، لكن الله لم يترك نبيه.

تقول عائشة: «كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، فقال: يا عائشـة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما اسـتفتيته فيـه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟

قـال: مطبوب. قال: ومـن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم رجل مـن بني زريق حليف لليهود كان منافقاً. قال: وفيم؟ قال في مشط ومشاقة. قال: وأين؟ قال في جف طلعة ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان.

فأتى النبي ﷺ البئر حتى اسـتخرجه، فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين، فاستخرج فقلت: أفلا - أي تنشرت[2]؟ فقال: أما والله فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»[3].

ويـروي زيد بن أرقم تفاصيل إخراج السـحر فيقول: «سـحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى، فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان، فأرسل علياً فجاء به، فأمره أن يحل العقد وتقرأ آية.

---

(١) صحيح البخاري ٥ - ٢١٧٥.
(٢) أي أفلا استعملت رقية لحل السحر.
(٣) صحيح البخاري ٥-٢١٧٥.

فجعل يقرأ ويحل، حتى قام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال[1]، فما ذكر رسول الله ﷺ لذلك اليهودي شيئاً مما صنع به، ولا أراه في وجهه»[2]. أي أن النبي ﷺ لم يقتل ذلك الرجل، ولم يشعره حتى في تعابير وجهه عليه السلام أنه يضمر له شيئاً، فلم يكن عليه السلام ينتقم لنفسه. فلم يعد لليهود من وزن، وقد تلاشت قواهم فأصبح همه عليه السلام موجهاً للقوى العظمى، التي سيطول الصراع معها في المستقبل، ومنها قوة الروم، لذلك أعد جيشاً لملاقاة الروم الزاحفين نحوه، في مكان شمال المدينة يقال له:

مؤتة

هيأ النبي ﷺ جيشه، وعين له قائداً هو ابنه سابقاً، ومولاه حالياً زيد بن ثابت رضي الله عنه، فهو لن يذهب معهم هذه المرة. لكنه عين بدلا منه أميراً أثار حفيظة بعض الصحابة رضي الله عنهم وتساؤلاتهم: كيف يعين زيد بن حارثة الرقيق أميراً!!

لكن النبي ﷺ الذي قدم لأمته درساً في هدم الجاهلية بتزويج زيد من زينب السليلة.. يقدم درساً آخر.. هاهو يوليه الإمارة على صحابته، وعندما تحركت آثار الجاهلية في بعض النفوس أطفأها عليه السلام بكلمات كالمطر.. حلف بالله أنه أهل للإمارة وإن طعن فيه من طعن، ثم قال لهم: (وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي)[3]

زيد الذي ملأ سمع النبي وبصره وقلبه.. زيد حب النبي ﷺ الذي تقول عنه عائشة: «ما بعث رسول الله زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم، ولو كان حياً بعده لاستخلفه»[4]

---

(١) أي كأنه أطلق من حبل مربوط به.

(٢) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ١-١١٥ وغيره من طرق عن الأعمش عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم. والأعمش معروف وشيخه تابعي ثقة سمع زيد. التقريب ٦٠٠.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٤٤٤.

(٤) سنده قوي رواه ابن أبي شيبة ٦-٣٩٢ وأحمد ٦-٢٨١ عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد عن وائل بن داود سمعت البهي يحدث أن عائشة. ووائل التيمي وشيخه البهي تابعي ثقة انظر التهذيب والبهي عن عائشة على شرط مسلم.

زيــد الذي يقول عنه أحد أفراد هذا الجيش: «ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمد حتى نزل في القرآن ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾»(١).

فمن مثل هذا الأمير وهو يتزين بهذه النياشين، ومن مثله وهو يسكن هذه القصور في قلبه ﷺ.

تلاشت الجاهلية وحضر الإسلام، وفرغ عليه السلام من إعداد الجيش، ثم خرج لتوديعهم مبكراً وهي ســنته ﷺ، وجعل زيد بن حارثة أميراً عليهم، ثم قال لهم «رسول الله ﷺ: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»(٢)

إذاً هذه أول غزوة يشارك فيها جعفر رضي الله عنه بعد قدومه من الحبشة، وهي كذلك أول غزوة يشارك فيها فارس الإسلام الجديد خالد بن الوليد.. يا لها من أسماء تهــز الأرض، ويا له من وداع يأخذ بنياط القلب. كيــف لا وهذا الجيش القليل ذاهب لملاقاة جيش الروم الذي هزم جيش فارس..؟ كيف لا والوداع كان لزيد وجعفر..؟

زيد يودع النبي ﷺ ويودع ابنه أســامة، وينطلق نحو مؤته، أم نحو موته والجنة..؟ وجعفــر الذي عانى الآلام والغربة والبعد يــودع ابنه عبد الله ونبيه ﷺ، وعبد الله بن رواحة.. شــاعر الموت الذي ردد الخندق شــعره، وتغنى به شــهداء خيبر وفرسانها.. الشــاعر الذي قال أحد أفراد هذا الجيش إن النبي ﷺ قال عن شعره «إن أخا لكم لا يقول الرفث، يعني بذاك بن رواحة قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجع»(٣)

وقبــل انطلاق أمراء مؤتــة تقدم جعفر رضي الله عنه بأمنيــة أملتها عليه قرابته من رســول الله ﷺ.. أبو قتادة كان هناك يرى ويســمع «أبو قتادة فارس رســول الله ﷺ قال: بعث رســول الله ﷺ جيش الأمراء، وقال: عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فجعفــر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد اللــه بن رواحة. فوثب جعفر فقال: يا

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٨٤.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٥٤.
(٣) صحيح البخاري ٥-٢٢٧٨.

رسـول الله ما كنت أرهب أن تسـتعمل علي زيداً. فقال: امض فإنك لا تدري أي ذلك خيـر فانطلقوا»[1] حتى وصولوا إلى أرض (مؤتة) وهي قرية من قرى البلقاء بالشـام، وهناك واجهوا أمواجاً بشـرية تدفقت من أرض الروم، واسـتعدت وأعدت، ولا أدري بالضبـط عددهم، لكن الذي أعرفه أن عدد المسـلمين كان قليلاً جداً جداً بالنسـبة لجيش الروم، أما من حيث الاسـتعداد فلا يمكن مقارنة جيش دولة الإسلام التي تبلغ الثامنة من عمرها، بجيش إمبراطورية الروم ذات القرون، والتي تسـيح جيوشـها بين قارتين. وهنا ترد الإشـكاليات العسكرية والسياسـية التي تداعت على دولة الإسلام أثناء أزمة الخندق.

ما القرار في مثل حال مؤتة

جيش رومي أوله في أوروبا وآخره في مؤتة.. أمام جيش مسـلم لا أظن أن عدده يتجاوز الألفين، وهو العدد الـذي حضر الحديبية وخيبر، بالإضافة إلى القادمين من الحبشـة والمؤمنين الجدد. مـع ملاحظة أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمـر وعثمان وعلياً وكثيراً من كبار الصحابة رضي الله عنه لم يشاركوا.

إنها معركة أشبه بالأساطير، لكن القرآن نزل ليطبقه البشر، لا ليدهشهم فقط.. القرآن يتعامل مع مثل هذا الظرف بواقعية تناسب البشر وقدراتهم وعددهم، والأدوات المتاحة بين أيديهم.

نزل قول الله سـبحانه وتعالـى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[2].

و«لمـا نزلت هـذه الآية ثقلت على المسـلمين وأعظموا أن يقاتل عشـرون مئتين، ومئة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسـخها بالآيـة الأخرى فقال: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ٥-٢٩٩ وغيره من طريق الأسود بن شيبان عن خالد بن سمير قال قدم علينا عبد الله بن رباح حدثنا أبو قتادة: عبد الله تابعي ثقة وتلميذه تابعي صدوق يهم قليلاً والأسود وسليمان ثقتان وكلهم من رجال التقريب.

(٢) الأنفال ٦٥.

وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] وكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم ينبغ لهم أن يفروا منهم، وإن كانوا دون ذلك لم يجب عليهم أن يقاتلوا، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم»[2] أي ينسحبوا من مواجهة العدو ويلتحقوا بباقي المسلمين، وهو ليس كالفرار، فالفرار هروب إلى أي جهة، أما التحيز فانسحاب منظم هدفه الإبقاء على قوة الجيش المسلم عند تعذر المقاومة.

جيش المسلمين الآن معذور في التحوز والانسحاب، نظراً لأن عدد الروم يعادل أضعاف أضعاف عدد المسلمين وعدتهم، وهو ما ينبغي ملاحظته عند التحدث عن الجهاد، فالجهاد ليس مجرد حماس وشجاعة فقط، فعندما تأمل أحد الصحابة جيش الروم.. وجد أن الروم لم يكونوا وحدهم.. معهم أبناء جلدتهم وديانتهم الذين لا يتخلون عنهم.. معهم جيوبهم المتغلغلة في أراضي المسلمين في كل زمان ومكان.

نصارى العرب يقاتلون مع الروم

ظروف قاسية للغاية، فالحرب الآن ضد النصارى العرب والروم، ويبدو أن المعارك تقفز نوعياً إلى مرحلة المجابهة مع الدول الكبرى، التي غالباً ما يصيبها الهلع والغضب من انتشار أفكار تخالف أفكارها، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالدين.

كان الصحابة يأخذون قسطاً من الراحة، ويتناولون شيئاً من الطعام. أحد المجاهدين تبرع بذبح ناقته ليطعم بعض أفراد الجيش، وكان ضمن هؤلاء رجل من أهل اليمن لا يملك إلا سيفه وإيمانه.. قدم من بلاده للمساهمة في منازلة الروم.

نهض اليمني إلى صاحب الناقة ولما وقف أمامه تقدم بطلب غريب، وكان بالقرب منه عوف بن مالك الذي يحدثنا عن قصة:

---

(١) الأنفال ٦٦.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري في تفسيره ١٠-٣٩: حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عباس وهذا السند على شرط البخاري في أكثر من خمسة مواضع وابن أبي نجيح ثقة من رجال الشيخين.

صنيع اليمني

يقــول عوف: «كنــت فيمن خرج مع زيد بن حارثة رضي اللــه عنه في بعث مؤتة، فرافقني مددي من أهل اليمن ليس معه إلا ســيفه، فنحر رجل من الجيش جزوراً له، فاســتوهبه المددي من جلده، فوهب له فبسطه في الشــمس على أطرافه، فلما جف اتخذه كهيئة الدرقة وجعل له مقبضاً»[1] أي جعله مثل الترس.

بعد الاستراحة قرر زيد رضي الله عنه حمل الراية وبدء القتال، فكان له ما أراد.. قاتل زيد ومن معه قتالاً أشبه بالأساطير، وبدأ فارس اليمن بتنفيذ مخططه.

يقــول عوف: «مضينا فلقينا جموع الروم وفيهم رجل على فرس له أشــقر، عليه ســرج مذهب، وسلاح مذهب، فجعل الرومي يغري بالمســلمين، فقعد له المددي خلف صخرة، فمر به الرومي فعرقب فرسه فخر، وعلاه فقتله وحاز فرسه وسلاحه»[2]

لكن مهما بلغت شجاعة هؤلاء الأبطال، فهم كقطرة وسط بحر من الروم والنصارى العرب.. قاتل زيد، وقاتل بحماس من يريد اقتحام باب الجنة، لكن حبيب النبي وأمير جيشــه حوصر بالرماح والسيوف حتى خر شــهيداً على أرض المعركة، فالتقط الراية جعفر بن أبي طالب ليقوم بما يشبه المعجزات، وكأنه يسابق زيداً ويزاحمه على دخول باب الجنة.

جعفر

هذا المبحر في المعاناة.. المليء بالأســرار.. الذي يخبئ الكثير للإســلام.. يتفجر علــى أرض مؤتــة، وكأنه يريد تعويــض غيابه المرير عن بدر وأحــد والخندق، وباقي المعارك المجيدة، وكأنه يبحث عن شــهادة كشهادة عمه حمزة ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش، وكأن فرسه تعيقه عن اقتحام الجنة..

قفز جعفر من على ظهرها بعد ســقوط زيد وقــام بعقرها، فهو لن يحتاجها بعد اليوم، فليس أمامه ســوى جحافل الروم والنصارى العــرب والموت، وهو لا يهاب هذه

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٧٤ مختصراً ورواه وأحمد ٦-٢٧ بالسند نفسه.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٧٤ مختصراً ورواه وأحمد ٦-٢٧ بالسند نفسه.

المصطلحات، وليس في ذاكرته حروف للهرب.. عقر فرسه الشقراء وامتطى صهوة الشعر والحماس.. كان موتا يصرخ بالموت.. وشعرا يملأ الأجواء لهيباً..

يقول أحد الصحابة: «وهو أحد بني مرة بن عوف وكان في الغزاة (غزاة مؤتة) قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء، فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها　　طيبة وبارداً شرابها
والروم قد دنا عذابها　　كافرة بعيدة أنسابها

عليَّ إذا لاقيتها ضرابها»(١)

كان يقتحم الشهادة بحرقة خلال دروب لا يعرفها سواه، وعلى طريقته الخاصة والخارقة نحت تفاصيل تلك الشهادة.. لقد عقر الفرس الشقراء، ثم استقبل الروم حاملاً راية رسول الله ﷺ بيده اليمنى.. متلقياً الطعنات والضربات بالرماح والسيوف حتى قطعت يده اليمنى، وانفجر شلال جعفر يروي عطش مؤتة وشوقها للفرسان، فأخذ الراية بيده اليسرى، فهجم عليه أحدهم يريد إسقاط تلك الراية وتمكن من قطع يد جعفر اليسرى، فواصلَ احتفاءه بالطعنات وسط التكبير والدماء حتى خر شهيداً مميزاً ومدهشاً ومذهلاً.. خر جعفر ولم تخر راية رسول الله ﷺ.

وأسدل الستار على حياة هذا الشهيد القصيرة، ليحلق بعدها نحو أحلامه والجنة، ثم أخذ الراية الأمير الثالث عبد الله بن رواحة الذي شاهد تلك المناظر المروعة لأصحابه، وتلك الجموع التي لا يمكن مجابهتها إلا بالموت.

أحس عبد الله بن رواحة بشيء من التردد، لكن الشعر قام بتذكيره، فالشعر في الإسلام يعيد بناء الحياة وضخ الطاقات فيها..

ابن رواحة والشعر والجنة

كان تردده لسان حال المعركة الشرسة، والأطراف المتطايرة، والدماء التي تلون أرض مؤتة، لكن ابن رواحة يقذف مرة أخرى بالخوف وبشعر كالحتف.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - ابن هشام ٥-٢٨ حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده قال حدثني أبي الذي أرضعني وهو أحد بني.. يحيى ثقة ووالده تابعي ثقة كان خليفة والده. التقريب ١-٣٩٢.

كان الشعر على أرض مؤتة صهوة من الأهوال.. كان الشعر وقوداً يؤجج أرض مؤتة التي تحترق بأنفاس المحاربين وتكبيرهم وصياحهم وأنينهم.

يواصل ذلك الصحابي وصفه لما رآه من أمرائه الأشاوس فيقول: «لما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه ... مالي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة ... هل أنت إلا نطفة في شنه

وقال أيضاً:

يا نفس إلا تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلهما هديت
هل أنت إلا نطفة في شنه ... قد طال ما قد كنت مطمئنة

يريد صاحبيه زيداً وجعفراً»[1]

أخذ ابن رواحة الراية والإمارة ووضع قدميه على أبواب الجنة، وفجأة حدث له شيء يفصح عن تمتع المجاهدين بالسياحة عبر الموت.. ابن رواحة يتناول الطعام وكأن القتال والموت والحياة لدى هؤلاء العظماء سياحة جميلة.

يقول أحد الصحابة: «ثم نزل، فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق من لحم، فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت. فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع الحطمة في ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا .!! ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل»[2] واستشهد مع صاحبيه وفعل فعلهما.

اختفى الأمراء الثلاثة، لكن راية الإسلام ما زالت ترفرف، فقد اختطفتها يد أحد الصحابة الذين يحبون الموت في سبيل الله لكنه لا يحب الإمارة «أخذ الراية ثابت بن أقرم، أخو بني العجلان فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد.

---

(١) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق انظر ابن هشام ٥-٢٨ وتاريخ الطبري ٢-١٥١.
(٢) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق انظر ابن هشام ٥-٢٨ وتاريخ الطبري ٢-١٥١.

أين خالد بن الوليد

في وسـط هذه المعمعـة كان ابن الوليد يفتـك بالروم فرداً فـرداً، ويفتك أيضاً بالسيوف.. سيفاً سيفاً.

يقول رضي الله عنه وقد أفنى مجموعة من السـيوف على رقاب النصارى العرب وأسـيادهم: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسـعة أسـياف، فمـا بقي في يدي إلا صفيحة يمانية»[1]

ثم توجه لأخذ الراية بعد الشهيد ابن رواحة. «فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف بالناس»[2] ووقى الله بحسن تصرف خالد جيش الإسلام من انتكاسـة، لأن اسـتمرار الحرب معناها الإبادة لا محالة، فقوة الروم ونصارى العرب لا يمكن هزيمتها بمثل هذا الجيش الصغير الذي يشرب أفراده الموت كما يشربون الماء.

لم ينتصروا على جيش الروم، لكنهم أيضاً لم يهزموا، وقد قنع كل فريق بما حدث له وعليه، لكن بعض المسـلمين تمكنوا من تحقيق أهدافهم الشـخصية التي من أجلها خرجوا، أما بقية الجيش فهم يشعرون بالهزيمة، لأنهم لم يكونوا ضمن موكب أمرائهم الذين تعطروا بجراحهم لدخول الجنة. فقد مال بهم أميرهم الجديد إلى مكان آمن.

خالد بن الوليد واستراحة المحارب

خالد بن الوليد الذي ولد في عالم الإسلام أميراً.. أخذ جيشه بعيداً، وقد أسعد الروم تصرفه ذلك، فلم يقوموا بملاحقته، لأنهم ليسـوا على اسـتعداد لتقديم المزيد من الضحايا على يد جيش لا تخيفه الأرقام ولا الأجسـام، ولو كان النصارى في حالة معنوية مرتفعة لطاردوهم حتى الإبادة، لكن ذلك لم يحدث فهم يحبون الحياة كما يحب المسـلمون الجنة.. في هذه الأثناء كانت المدينة تلهج بالدعاء بالنصر وعودة المحاربين ظافرين، لكن الوحي سبق الجيش بالأخبار والبشائر والأحزان.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-٥٥٥١.

(٢) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق .ابن هشام ٥-٢٨ ومعنى خاشى أي تاركهم.

يقول أحد الصحابة « إن رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفراً قبل أن يجيء خبرهم، نعاهم وعيناه تذرفان»[1] كان النعي مصحوباً بالحزن والدموع والمجد ولقب خالد لخالد ابن الوليد.

خالد بن الوليد سيف من سيوف الله

«نعـى ﷺ زيداً وجعفراً وابـن رواحة للناس قبل أن يأتيهـم خبرهم، فقال: أخذ الرايـة زيد فأصيب، ثم أخذها جعفـر فأصيب، ثم أخذها بن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان[2]، حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[3]

وهذا الفتح يعني ضمن ما يعني قراراً سليماً، أو نصراً على تلك الأرض المميتة.

انتشر الخبر فانتشر الحزن والبكاء واليتم.

أحـد أيتام مؤتة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.. يتحدث عن مرارة ذلك اليوم، فيقول: «بعث رسول الله ﷺ جيشاً واستعمل عليهم زيد بن حارثة، فإن قتل واستشهد فأميركم جعفر بن أبي طالب، فإن قتل واستشهد فأميركم عبد الله بن رواحة.

فانطلقوا فلقوا العدو، فأخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل، ثم أخذ الراية جعفـر بـن أبي طالب، فقاتل حتى قتل، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، فقاتل حتى قتل، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ففتح الله عز وجل عليه.

فأتـى خبرهم النبي ﷺ، فخـرج فحمد الله وأثنى عليه، ثم قـال: أما بعد، فإن إخوانكم لقوا العدو فأخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل أو استشـهد، ثم أخذ الراية جعفر فقاتل حتى قتل أو استشهد، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل أو استشـهد، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه،

---

(١) حديث صحيح رواه النسـائي في الكبرى ١-٦١٥ والطبراني ٢-١٠٥ والبخاري ويأتي لفظ البخاري بعده وطريق النسائي هو طريق البخاري.

(٢) الذي ذرفت عيناه هو النبي ﷺ.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٣٧٢.

ثم أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم»[1] أي ترك زيارتهم ثلاثة أيام، لكنه حرص مشاعر المدينة على العناية والطواف بآلامهم، فقال لمن حوله: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد جاءهم ما يشغلهم»[2] ثم توجه إلى بيته مثقلاً بالحزن الشديد على أحبابه، وكانت عائشة حزينة.. تطل على ذلك المشهد الحزين، لكن حزنها لم يمنعها من الغضب على تصرف أحد الصحابة الذي لم يراع حالة النبي ﷺ.

ما الذي أغضب عائشة في ذلك اليوم الحزين

وبماذا همهمت في نفسها..؟

تقول رضي الله عنها: «لما جاء النبي ﷺ قَتْلُ ابن حارثة وجعفر وابن رواحة جلس يعرف فيه الحزن، وأنا أنظر من صائر الباب (شق الباب)، فأتاه رجل فقال: إن نساء جعفر (وذكر بكاءهن) فأمره أن ينهاهن، فذهب ثم أتاه الثانية فقال: قد نهيتهن. وذكر أنهن لم يطعنه. فقال: انْهَهُنَّ. فأتاه الثالثة قال: والله غلبننا يا رسول الله. فزعمت أنه قال: فاحثُ في أفواههن التراب

فقلت: أرغم الله أنفك، لم تفعل ما أمرك رسول الله ﷺ ولم تترك رسول الله ﷺ من العناء»[3] «ثم أتاهم فقال: لا تبكوا عليه بعد اليوم. ثم قال: ادعوا بني أخي، فجيء بنا كأنا أفرخ فقال: ادعوا لي الحلاق فأمره فحلق رؤوسنا، ثم قال: أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عون فشبيه خلقي وخلقي، ثم أخذ بيدي فشالها، فقال: اللهم أخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه، اللهم أخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه، اللهم أخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه.

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد١-٢٠٤ ومن طريقه الطبراني ٢-١٠٥ حدثنا وهب بن جرير عن أبيه عن محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب عن الحسن بن سعد عن عبد الله بن جعفر. محمد والحسن الهاشمي ثقتان - التقريب ٤٩٠ و١٦١ ووهب ووالده ثقتان ورواية والده عن قتادة ضعيفة وهذه ليست منها التقريب ١٣٨ و٥٨٥.

(٢) سنده ضعيف رواه الحميدي ١-٢٤٧ وغيره عن سفيان ثنا جعفر بن خالد المخزومي أخبرني أبي أنه سمع عبد الله بن جعفر. وظاهر السند الصحة نظراً لقول الحافظ في التقريب عن خالد بن ساره: صدوق والأصح غير ذلك انظرصحيح الموسوعة لكن له ما يشهد له.

(٣) صحيح البخاري ١-٤٣٧.

قالها ثلاث مرات. فجاءت أمنا فذكرت يتمنا؟ فقال رسول الله ﷺ: العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟»[1] كلمات كالبرد على قلوب كالهجير.

لم تكن الحال بأحسن في بيت زيد بن حارثة، حيث زوجته أم أيمن ويتيمه أسامة، الـــذي ملك قلـــب النبي ﷺ وعيونه، والذي قال فيه وفي والـــده الفقيد ذات يوم، وهو يتحـــدث عـــن انتقاص البعض لـ «إمارة أبيه من قبله، وايم الله إن كان لخليقاً لها، وأيم الله إن كان لأحب الناس إلي، وأيم الله إن هذا لها لخليق يريد أسامة بن زيد، وأيم الله إن كان لأحبهم إلي من بعده، فأوصيكم به فإنه من صالحيكم»[2]

أوصى النبي ﷺ صحابته بحبيبه الأسمر، ونظر إليه فلم يملك عينيه.. فقد ذرفتا رحمة به وحزناً على أبيه.. كان أسامة حزناً يتنقل بين عينيه ودموعه وداخل قلبه.. كان منظره يدمي القلب ويوقظ الجروح. فقد « قام أسامة بن زيد بن يدي النبي ﷺ بعد قتل أبيه، فدمعت عينا النبي ﷺ، ثم جاء من الغد فقام مقامه ذلك، فقال له رسول الله ﷺ ألاقي منك اليوم ما لقيت منك بالأمس»[3]

أما بيت عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، فقد شهد حدثاً لعبد الله قبل الرحيل، مما هون من انفعال أخته وخفف فجيعتها، فقبل السفر إلى مؤتة «أغمي على عبد الله بن رواحة، فجعلت أخته عمرة تبكي: واجبلاه.. واكذا.. واكذا.. تعدد عليه.

فقال حين أفاق: ما قلت شـــيئاً إلا قيل لي: أنت كذلك؟»[4] فكيف هي حالها الآن، وقد بلغها أن عبد الله لن يعود بعد اليوم إلى المدينة..؟

---

(١) هو باقي حديث عبد الله بن جعفر السابق.

(٢) صحيح مسلم ٤ - ١٨٨٤.

(٣) سنده مرسل وصحيح رواه أحمد في الفضائل ٢-٨٣٦ وغيره عن عن أئمة ثقات أثبات، عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم، وإسماعيل ثقة ثبت التقريب ١٠٧، وشيخه ثقة من الثانية مخضرم وله رؤية وشـــيوخه كلهم من الصحابة وهو أحد من روى عن العشـــرة. التقريب ٤٥٦، وقد أخطأ الهيثمي في مجمع الزوائد ٩ - ٤٤٧ عندما قال
رواه البزار عن شـــيخه عمر بن إســـماعيل بن مجالد وهو كذاب، فالبزار رواه عن البحر ٧ - ٩٥ عن عبد الله بن محمد المنقري: أخبرنا أبو أسامة ، عن إسماعيل.

(٤) البخاري ٤-١٥٥٥.

يقــول أحــد الصحابة «أغمي على عبــد الله بن رواحة بهــذا، فلما مات لم تبك عليه»[1] بكاء النواح والعويل الذي حدث منها في الســابق، بل بكته بكاء المؤمنة بقضاء الله وقدره، التي تحتسب ما بها من حزن وأسى عند الرؤوف الرحيم بها وبأخيها.

هــذه هي أجــواء المدينة، وتلك هي همومها، أما علــى أرض مؤتة فاليتم له طعم آخر.. الأيتام هناك لم يعودوا صغاراً، وعندما يكون اليتيم رجلاً فصفات الفقيد أعظم من أن تحيط بها جدران المنازل والقلوب.

على أرض مؤتة شعر بعض المساكين بيتم مرير.. أبو هريرة أحدهم، ولعله أكثر من عانى ووصف وباح فقال: «ما احتذى النعال، ولا انتعل ولا ركب المطايا، ولا لبس الكور بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر»[2]

قال أبو هريرة ذلك مأخوذاً بسلوك جعفر وكرمه تجاهه، وتجاه غيره من المساكين، وهو سلوك يرتقى إلى مستوى الإسلام.

أبو هريرة المســكين، الذي نحــت الجوع على وجهه لغــة لا يقرأها إلا النبي ﷺ وجعفــر.. أبو هريرة يبكي على جعفر الممدد أمامه.. يبكي على الجود المســجى على أرض مؤتة.. يبكي على يديه اللتين طالما قدمتا له وأعطتاه وواســتاه، وكأنهما انفصلتا عن جســده لتقــديم المزيد من العطاء.. يتحدث أبو هريرة عــن تلك اللغة التي يعرف تفاصيلها حبيباه محمد وجعفر فيقول: «لقد رأيتني وإني لأخر فيما بين منبر رســول الله ﷺ إلى حجرة عائشــة مغشياً علي، فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ويرى أني مجنون، وما بي من جنون ما بي إلا الجوع»[3]

ويقــول رضي الله عنه: «آلله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشــد الحجر على بطني من الجوع، ولقــد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر فســألته عن آية من كتاب الله، ما ســألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل. ثم مر بي عمر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل.

---

(١) البخاري ٤-١٥٥٥.

(٢) سنده صحيح رواه ابن سعد ٤-٤١ وغيره من طريق خالد الحذاء عن عكرمة عن أبي هريرة وخالد تابعي صغير ثقة وعكرمة إمام ثقة وخالد عن عكرمة على شرط البخاري.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٦-٢٦٧٠.

ثم مر بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: يا أبا هر.

قلت: لبيك يا رسول الله. قال: الْحقْ.

ومضى فتبعته، فدخل فاستأذن، فأذن لي، فدخل، فوجد لبناً في قدح، فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة. قال: أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي (وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال، ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها وأشركهم فيها)

فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة..؟!! كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم[1]، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بد.

فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا، فاستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت. قال ﷺ: يا أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: خذ فأعطهم.

فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح فأعطيه الرجل، فيشرب حتى يروي، ثم يرد علي القدح، فيشرب حتى يروي، ثم يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ، وقد روى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر لي فتبسم، فقال: أبا هر. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بقيت أنا وأنت. قلت: صدقت يا رسول الله. قال: اقعد فاشرب.

فقعدت فشربت. فقال: اشرب. فشربت. فما زال يقول اشرب، حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً.

قال: فأرني. فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة»[2]

أبو بكر الذي تصدق بكل ماله على المساكين، وعمر الذي تصدق بنصف ماله على أمثال أبي هريرة، لم يقرءا ما خلف سؤال أبي هريرة من أنين، لكن النبي ﷺ قرأه، أما جعفر فللحديث عنه عند أبي هريرة مذاق مميز..

---

(١) أي إذا جاء أهل الصفة سأسقيهم وسيشربون ولن يبقى لي شيء.

(٢) صحيح البخاري ٥-٢٣٧٠.

إنه يدافع عن نفسه وعن كثرة رواياته لحديث النبي ﷺ، فيحمله الحديث إلى بيت جعفر حيث تتدفق الرحمة والكرم فيقول: «إن الناس كانوا يقولون: أكثر أبو هريرة. وإني كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطني، حين لا آكل الخمير ولا ألبس الحبير، ولا يخدمني فلان ولا فلانة، وكنت ألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية هي معي كي ينقلب بي فيطعمني، وكان أخير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب.

كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شئ، فنشقها فنلعق ما فيها»[1]

جعفر القادم من الغربة والفقر والحبشة ينجز في عام واحد فقط أضعاف ما ينجزه البعض في أعمارهم الطويلة والعريضة.. الإنسان موقف، وجعفر أكثر من موقف.. هاهو الشاب الصغير عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقلب جسد جعفر الطاهر بعينيه، ويعدد ويحدد تلك الطعنات اللذيذة النازفة، فيدهش لكثرتها، ويدهش لمواقعها، فليس فيها على كثرتها طعنة أو رمية من الخلف.

يقول ابن عمر «أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره، يعني في ظهره»[2] لأنه ليس بحاجة إلى الالتفات إلى الدنيا القابعة خلفه، فقد عقر فرسه وعقر الدنيا معها.. هو بحاجة شديدة إلى هذه الجنة التي يعشقها، ويحاول شق جموع الروم المحتشدة كي يرتمي بين أحضانها، وقد دخل الجنة بطريقة غير مسبوقة، فقد شاهده النبي ﷺ في منامه فقال «رأيت جعفراً ملكاً ذا جناحين»[3] ولما عاد عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إلى المدينة «كان إذا سلم على ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين»[4]

لكن قبل عودة عبد الله بن عمر ومن معه.. حدث خلاف حول مسألة مادية هي: أحقية الفارس بمتاع ضحيته من الأعداء.. كان هناك خلاف:

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٥٩.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٥٣.

(٣) هذا الجزء من الحديث حسن وتخريجه طويل لذلك راجعه في موسوعة السيرة وهو عند الطبراني وابن سعد والحاكم وغيرهم.

(٤) صحيح البخاري ٣-١٣٦٠.

فبينما يطالب اليمني بكل سـلب الفارس الرومي الذي قتله.. من سرجه المذهب، وسـيفه إلى فرسه الشـقراء. يرى ابن الوليد (قائد المعركة الجديد) غير ذلك، فتدخل الصحابي المجاهد عوف بن مالك لحل الخلاف، فلم يغير من الأمر شـيئاً، فكانت هذه القصـة التي يرويها عوف نفسـه، وكان طرفاً فيها فيقـول: «مضينا حتى لقينا الروم، ومعهم من معهم من نصارى العرب، فقاتلونا قتالاً شـديداً، ومعهم رومي على فرس له أشـقر، عليه سيف مذهب وسلاحه مذهب، فيه الجوهر، وسرجه مذهب، فجعل يغري بالنـاس، فتلطـف المددي فجلس له جانب صخرة، فلما مر به ضرب عرقوبي فرسـه، فقعد على رجليه، وخر عنه الرومي، وعلاه المددي بالسيف حتى قتله، وأخذ سلبه، فأتى به خالد بن الوليد، فلما فتح الله علينا أعطاه خالد بن الوليد السلب، وأمسك منه.

فقلت يا خالد أما علمت أن النبي ﷺ قضى بالسـلب للقاتل؟ قال: بلى. فقلت: فلم لم تعطه السلب كله؟ قال: استكثرته. قلت: لتردنه إليه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ. فأبى أن يرد عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسـول الله ﷺ، فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد، فقال رسـول الله ﷺ: يا خالد، ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسـول الله، استكثرته. فقال رسول الله: ﷺ يا خالد، أعطه السلب كله.

فولى خالد ليفعل. فقلت: كيف رأيت يا خالد، ألم أف لك بما قلت لك؟ قال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ فأخبرته.

قال: يا خالد، لا تعطه شيئاً، هل أنتم تاركوا لي أمرائي، لكم صفوته وعليهم كدره؟ قالها مرتين أو ثلاثاً»[١]

لأن من حق الفرد مهما كان أن يشـتكي أميـره عند إمامه، وأن يحتج ويبين وجهة نظره، وأن ينكر الظلم ويحاول إزالته، وهذا ما فعله عوف بن مالك رضي الله عنه، لأن الأمير ليس معصوماً ولا مقدسـاً ولا إطـلاق في صلاحياته، لكن ليس من حق المأمور التشفي والتحدي، ووضع الغرض الشخصي ضمن أهداف تلك الأعمال النبيلة الراقية،

(١) حديث صحيح مر معنا تخريجه وهو عند مسلم مختصر واللفظ لأبي عوانة ١-٤٢٤٠.

وهو ما أفسد جهود عوف رضي الله عنه، لأن الأمور اتخذت منحى آخر يرفضه الإسلام.. اتخذت منحى الانتصار للذات في عمل يهم الأمة كلها ويمس مصلحتها.

تعلم الجميع من النبي ﷺ حريتهم وحدودهم، وسعدوا ببشاشة النبي ﷺ بوجوههم، وبعد أيام رأى النبي ﷺ رؤيا تحمل الفزع والسرور معاً، ورأى فيها قادة مؤتة، فقال لأصحابه: «بينا أنا نائم إذ أتاني رجلان فأخذا بضبعي فأتياني جبلاً وعراً فقالا لي: اصعد.

فقلت: إني لا أطيق. فقالا: إنا سنسهله لك.

فصعدت حتى كنت في سواء الجبل إذا أنا بأصوات شديدة، قلت: ما هذه الأصوات: قالوا: هذا هو عواء أهل النار.

ثم انطلق بي فإذا بقوم معلقين بعراقيبهم مشققة أشداقهم تسيل أشداقهم دماً. فقلت: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلة صومهم.

ثم انطلقا بي فإذا بقوم أشد شيء انتفاخاً وأنتنه ريحاً، وأسوأه منظراً. فقلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزانون والزواني.

ثم انطلق فإذا أنا بنساء تنهش ثديهن الحيات. فقلت: ما بال هؤلاء؟ فقال هؤلاء اللواتي يمنعن أولادهن ألبانهن.

ثم انطلق بي فإذا بغلمان يلعبون بين نهرين. فقلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذراري المؤمنين.

ثم شرف لي شرف فإذا أنا بثلاثة نفر يشربون من خمر لهم.

قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة.

ثم شرف لي شرف آخر فإذا أنا بثلاثة نفر. قلت: من هؤلاء؟ قال: إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ينتظرونك»(١)

---

(١) سنده صحيح رواه الحاكم ٢-٢٢٨ واللفظ له وابن حبان ١٦-٥٣٦ والنسائي في الكبرى ٢-٢٤٦ وابن أبي شيبة ٧ - ٣٣١ من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سليم بن عامر الكلاعي حدثني أبو أمامة الباهلي سمعت رسول الله ﷺ. عبد الرحمن ثقة من رجال الشيخين. التقريب ٣٥٣ وشيخه ثقة من رجال مسلم التقريب ٢٤٩.

هذه البشـــرى لم تمنع الصحابة من الحزن على أولئك الرجال الأفذاذ و«لما اشتد جــزع أصحاب رســول الله ﷺ على مــن قتل يوم مؤتة، قال رســول الله ﷺ: ليدركن الدجال قوماً مثلكم، أو خيراً منكم، ليدركن الدجال قوماً مثلكم، أو خيراً منكم، ليدركن الدجال قوماً مثلكم، أو خيراً منكم.. ثلاث مرات، ولن يخزي الله أمة أنا أولها، وعيسى بن مريم آخرها»(١)

فــي غزوة مؤتة شــهادة ومجد للأموات، ورضى النبي ﷺ عــن أداء الأحياء، أما خالد بن الوليد فتميز بحيازته على شــرف القيادة واللقب، لكن ماذا عن رفيق خالد.. ماذا عن عمرو بن العاص؟

لا بد أنه يتحرق لخدمة الإسلام كما خدمه رفيقه ولم يكن ﷺ بعيداً عن مشاعر عمرو الداهية، ولا عن توظيف دهائه في نشر دين الله.. استدعاه، وعرض عليه قيادة حملة سميت فيما بعد بـ

غزوة ذات السلاسل

فبعد مؤتة، وذات شتاء قارس.. أُستدعي عمرو بن العاص للمثول بين يدي النبي ﷺ، فمثل وتحدث بنفســه عن ذلك الحوار مع نبيه فقال: «بعث إلي رســول الله ﷺ فقال: خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني.

فأتيتــه وهــو يتوضأ، فصعَّد فيَّ النظر ثم طأطأ، فقــال: إني أريد أن أبعثك على جيش، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة. قلت: يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ.

فقــال: يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالــح»(٢) ونعم الجيش الصالح جيش عمرو هذا.

---

(١) ســنده صحيح رواه الحاكم ٣-٤٣ حدثنا أبو بكر بن إســحاق أنبأ محمد بن شاذان الجوهري ثنا زكريا بن عدي ثنا عيسى بن يونس عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير عن أبيه. عبد الرحمن تابعي ثقة التقريب ٣٣٨ وصفوان ثقة التقريب ٢٢٧ وكذلك عيسى التقريب ١-١٠٣ وزكريا بن عدي وابن شاذان ثقتان.

(٢) سنده حسن رواه أحمد ٤-١٩٧ والبخاري في الأدب ١-١١٢ وغيرهم من طرق عدة عن موسى بن علي بن رباح عن أبيه قال سمعت عمرو بن العاص يقول. وعلي تابعي ثقة التقريب ٣٦ وابنه موسى حسن الحديث من رجال مسلم التقريب ١٨٦.

سمع عمرو تلك الكلمات الجميلة، وأطاع قائده وانطلق بجيشه الذي كان ضمنه رجال سبقوا عمراً بالفضل والإسلام.. أمثال أبي بكر وعمر.

يقول أحد الصحابة المشاركين في ذلك الجيش: «رأيت أبا بكر رضي الله عنه في غزوة ذات السلاسل، وكأن لحيته لهب العرفج على ناقة له أدماء، أبيض خفيفاً»(١)

إذا كان أبو بكر وعمر، والعظماء أمثالهما تحت قيادة رجل لم يسلم إلا منذ أشهر، فهناك تميز لهذا الرجل في مثل هذا الموقف. فهل ستشير ذات السلاسل إلى الأفق الذي كان ﷺ يرمي بتصرفاته إليه..؟

كانت المدينة ساعتها في حالة طوارئ.. كان المسجد يموج بالمعنويات والحماس، والرايات السوداء والوداع، وبلال كان في حالة تأهب لحماية النبي ﷺ.

أحد الصحابة قدم لتوه إلى المدينة، وتساءل عما يجري داخلها فقال: «قدمت المدينة فدخلت المسجد، فإذا هو غاص بالناس، وإذا رايات سود تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ، قلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص»(٢)

رفرف الصحابة، ورفرفت الرايات خلف عمرو بن العاص منطلقين شرقاً، حتى أتوا على مشارف بلاد طي.. عندها طلب عمرو بن العاص رجلاً عارفاً بالدروب للاستفادة منه في الوصول إلى الهدف، فأخبره الصحابة أنهم لا يعرفون سوى لص محترف وشهير يدعى (رافع الطائي) وهو أعلم الناس بالصحاري والدروب خاصة في هذه المنطقة.

رافع نفسه يروي قصة انضمامه إلى جيش ذات السلاسل فيقول: «بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، وبعث معه في ذلك الجيش أبا بكر

---

(١) سنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ١-٥٧ وابن سعد من طريق مسعركدام وهو ثقة ثقة ثبت وشيخه ثقة من رجال الشيخين، وله شاهد في الآحاد والمثاني ١-٨٧ حدثني محمد بن عبد الله بن نمير أن عبدة بن سليمان حدثهم عن إسماعيل عن رجل من بني أسد ورجاله ثقات ابن نمير ثقة حافظ فاضل وشيخه ثقة ثبت التقريب ٣٦٩ و٤٩٠ وشيخه إسماعيل ابن أبي خالد تابعي ثقة ثبت من رجال الشيخين التقريب ١٠٧.

(٢) سنده حسن رواه الترمذي ٥-٣٩٢ وغيره من طرق عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث بن يزيد البكري. وهو حسن من أجل الإمام عاصم وإلا فبقية رجاله ثقات: أبو وائل اسمه شقيق بن سلمة الأسدي وهو ثقة مخضرم - التقريب ١-٣٥٤ وشيخه صحابي واسمه الحارث بن حسان.

وعمر رضي الله عنهما وسراة أصحابه، فانطلقوا حتى نزلوا جبل طي، فقال عمرو: انظروا إلى رجل دليل بالطريق. فقالوا: ما نعلمه إلا رافع بن عمرو، فإنه كان ربيلاً في الجاهلية. فسألت طارقاً ما الربيل قال: اللص الذي يغزو القوم وحده فيسرق»[1]

ويذكر أحد الصحابة بعض أساليب رافع الذكية في البقاء حياً في الصحاري بعد أن ينجح في سرقاته، فيقول إنه: «كان لصاً في الجاهلية، وكان يعمد إلى بيض النعام، فيجعل فيه الماء ويضعه في المفازة»[2] للاستفادة منه بعد فراره حيث يدرك العطش من يلاحقه، بينما يرتوي هو من ذلك البيض المفرغ المليء بالماء المفرق في الصحراء.

وافق رافع على مرافقة جيش عمرو بن العاص، لكن الغريب في الأمر أن أحد الصحابة تمكن من سرقة هذا اللص الطائي الشهير، بل وأسره وإجباره على التعلم منه. لكن قبل أن نعرف ذلك دعونا نسير مع هذا الجيش المؤمن الذي أصابه الجوع ولم يستطع رافع أن يقدم له شيئاً من بيض النعام، لكن عوف بن مالك الأشجعي صاحب المجاهد اليماني، وخصم خالد بن الوليد يتبرع للقيام بشيء قد يخفف من جوع بعض رفاقه.

يقول عوف بن مالك رضي الله عنه: «غزونا وعلينا عمرو بن العاص، وفينا عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فأصابتنا مخمصة شديدة فانطلقت ألتمس المعيشة، فألفيت قوماً يريدون ينحرون جزوراً لهم، فقلت: إن شئتم كفيتكم نحرها وعملها وأعطوني منها؟

ففعلت، فأعطوني منها شيئاً، فصنعته ثم أتيت عمر بن الخطاب فسألني: من أين هو؟ فأخبرته. فقال: أسمعك قد تعجلت أجرك وأبى أن يأكله، ثم أتيت أبا عبيد فأخبرته، فقال لي مثلها وأبى أن يأكله، فلما رأيت ذلك تركتها»[3]

---

(١) حديث حسن سيأتي كاملاً بعد قليل وقد رواه الطبراني في الكبير ٥-٢١ ثنا إسرائيل عن إبراهيم بن المهاجر عن طارق بن شهاب عن رافع بن عمرو الطائي وفيه ابن المهاجر صدوق لين الحفظ من رجال مسلم لكن رواه أوثق منه كما سيمر معنا في تتمة القصة.

(٢) سنده قوي رواه الإمام أحمد ٦-٢٤ والبيهقي في الكبرى ٦-١٢٠ والدلائل ٤-٤٠٤ والروياني ١-٣٩٦ وغيرهم من طرق عن سعيد بن أبي أيوب وابن لهيعة جميعاً عن يزيد ابن أبي حبيب عن ربيعة بن لقيط أخبره عن مالك بن هدم يعني عن عوف بن مالك الأشجعي.. ابن لهيعة تابعه سعيد وهو ثقة ثبت: التقريب ١-٢٩٢ وشيخه يزيد تابعي ثقة فقيه وشيخه ربيعة وكذلك مالك تابعيان وثقهما الإمام توثيقاً لفظياً - ١٥٩ و٤١٩.

(٣) سنده قوي رواه الإمام أحمد ٦-٢٤ والبيهقي في الكبرى ٦-١٢٠ والدلائل ٤-٤٠٤ والروياني ١-٣٩٦ وغيرهم من طرق عن سعيد بن أبي أيوب وابن لهيعة جميعاً عن يزيد ابن أبي حبيب عن ربيعة بن لقيط أخبره عن مالك بن هدم يعني عن عوف بن مالك الأشجعي.. ابن لهيعة تابعه سعيد وهو ثقة ثبت - التقريب ١-٢٩٢ وشيخه يزيد تابعي ثقة فقيه وشيخه ربيعة وكذلك مالك تابعيان وثقهما الإمام توثيقاً لفظياً - ١٥٩ و٤١٩.

لــم يبرر الجوع لأبــي بكر وعمر وأبي عبيدة وعوف رضي اللــه عنهم أن يتناولوا لقمة شــكوا في إباحة مصدرها، وكأن الصديق يجعــل من جهالة تحديد أجرة الذبح مبرراً لتركها، وكأنه يقول لعوف: أنه لا بد من تحديد الأجرة قبل القيام بالعمل المتفق عليه، وحكمة الإسلام هي في إقصاء أسباب النزاع بين العامل وصاحب العمل، لاسيما إذا كان الإثنان من المســلمين، فالاقتصاد الإســلامي اقتصاد أخلاقي قبل كل شــيء، وليس كاقتصاد اليهود والمشركين الذين يتسم بالمراباة والاستغلال واللا أخلاقية، لكن المدهش أن أبا بكر الصديق بعد هذا كله يقوم بسلب بعض أشياء رافع الطائي.

أبو بكر الصديق يتمكن من سرقة رافع

الســرقة هنا ليســت على طريقة رافع الطائي، بل على طريقة أبي بكر الصديق، وفي وضح النهار وعلى مرأى من الجميع.

فبين جبال طي، وفي تلك الليالي والأجواء الباردة جداً كان دفء أبي بكر وعطفه يغمران رافعاً، حتى أحس بقلبه ومشاعره بين يدي الصديق.. كان رافع مأخوذاً بصاحب رسول الله ﷺ ورفيق عمره، وكأنه قد هبط عليه من السماء، حيث يقول: «لما كان غزوة ذات السلاسل قلت: اللهم وفق لي رفيقاً صالحاً، فوفق الله عز وجل أبا بكر رضي الله عنه، فكان ينيمني على فراشــه، ويلبســني كساء له من أكسية فدك، فإذا أصبح لبسه ولا يلتقــي طرفه حتى يخله بخلال»[1] أي يجمع طرفي ثوبه بعود أو إبرة، ولذلك صار رافع ينادي أبا بكر باسم مزين بالذكريات.. كان يناديه: (يا ذا الخلال)

ويواصــل رافــع حديثه فيقول «رافقــت أبا بكر في غزوة ذات السلاســل، وعليه كســاء له فدكى يخله عليه إذا ركب، ونلبســه أنا وهو إذا نزلنا»[2] كانت مشــاعر أبي

---

(١) سنده صحيح رواه الضحاك في الآحاد والمثاني ٤-٤٤٢ حدثنا إبراهيم بن حجاج السامي ثنا عبد الوارث بن ســعيد نا محمد بن جحادة عن طلحة بن مصرف عن ســليمان الأحول عن طارق بن شــهاب عن رافع الطائي. سليمان بن أبي مسلم تابعي ثقة وتلميذه طلحة ثقة قارئ فاضل ومحمد بن جحادة ثقة من رجال الشيخين وعبد الوارث العنبري ثقة ثبت وشيخ الضحاك ثقة وكلهم من رجال التقريب..

(٢) سنده صحيح رواه ابن أبي عاصم في الزهد ١-١٠٨ حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا وكيع وأبو معاوية المعنى واحد قالا حدثنا الأعمش عن ســليمان بن ميســرة عن طارق بن شهاب عن رافع.. في هذا السند أرانــي لا أحتاج لترجمة هؤلاء الأئمة ســوى ســليمان وهو ثقة قاله ابن معين. الجــرح والتعديل ٤-١٤٣ وللحديث شواهد مضت أسانيده معنا.

بكر الفياضة تعرف طريقها إلى أحوج الناس إليها، ولم يكن هناك أحوج إلى الرعاية والعطف من هذا الشقي الهائم في البراري والجريمة.

قدم له أبو بكر كرماً وعطفاً وأخلاقاً سحرته فجعلته يتعلق به دون غيره.. مارس أبو بكر دور الداعية الناضج الناضح بالتربية المحمدية السخية. لم يحدثه عن الإسلام.. جعل أخلاق الإسلام تتحدث إليه.. تغطيه وتدفئه وتحنو عليه.. جعل أخلاق الإسلام تقله وتظله، حتى ذهل عن كل شيء سوى الإسلام.. استحضر دفاتره وحسابات عمره، وأحصى ماله وما عليه، فرأى بقلبه الذي ولد اليوم على يد أبي بكر أشياء جميلة ورائعة تمر بين يديه وهو غافل عنها.. رأى بذلك القلب كم هي المسافة بينه وبين هؤلاء القوم، الذي يتولى بنفسه إرشادهم إلى دربهم. كانت كالمسافة بين من يحلق في الأجواء وبين من ينحشر في الجحور.. رايات سوداء، لكن القلوب بيضاء ترفرف في سعادة غامرة. لا خمر.. لا سباب.. لا بغضاء ولا عداوة.. نظافة وطهارة وانتظام وصلاة، وحب لا مثيل له، أما هو فسطو وقتل ونهب وغدر وخمر وفر، وحياة أذل من حياة حيوان تطارده كل وحوش الأرض.

تلك هي حال رافع الطائي وهو يرافق جيش الإسلام، حتى اقتربوا من جيش المشركين، عندها بدأت ملامح الدهشة تحدق بعمرو بن العاص، الذي بدأ يتصرف بغرابة أثارت الكثير من الجيش، مما حدا بعمر بن الخطاب إلى التوجه نحو عمرو بن العاص ليطالبه بتفسير مقنع، أو ليوقفه عند حد يراه عمر ومن معه رضي الله عنهم.

يقول أحد الصحابة: «بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل، وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو أن لا ينوروا ناراً، فغضب عمر وهم أن ينال منه [قال عمر لأبي بكر: لِمَ لَمْ يَدَعْ عمرو الناس أن يوقدوا ناراً؟ ألا ترى إلى هذا الذي منع الناس منافعهم؟ فقال أبو بكر دعه قائماً، ولاه رسول الله ﷺ علينا] فنهاه أبو بكر رضي الله عنه، وأخبره أنه لم يستعمله رسول الله ﷺ عليك إلا لعلمه بالحرب. فهدأ عنه عمر رضي الله عنه»(1) والتزموا

---

(1) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٤٥ عن المنذر بن ثعلبة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه. والزيادة لابن أبي شيبة ٦-٥٣٩ حيث توبع ابن إسحاق تابعه الإمام الثقة وكيع والمنذر ثقة انظر التقريب ٥٤٦ وشيخه تابعي ثقة التقريب ٢٧٩.

طاعة الأمير رغم فضل الكثير منهم عليه، وسبقهم إياه في الدخول إلى الإسلام، وكان أبـو بكر رضي الله عنـه أرفع الصحابة منزلة، وأعلم الناس برسـول الله ﷺ، وأعلم النـاس بمراده الذي خفي على كثير منهم. لذا لجأوا إليه ووسـطوه بينهم وبين عمرو ابن العاص، عله يأذن لهم بإشعال النار وسط هذا الزمهرير الذي لا يخففه سوى أكوام من الحطب واللهب، فتوجه أبو بكر ليشـفع لهم عند أميرهم، فكان رد الأمير أشد من ذلك الزمهرير وأقسى.

لقـد «منع الناس أن يوقدوا بليل ناراً، فكلموا أبا بكر رضي الله عنه فقالوا: كلمه لنا. فأتاه فقال: زملوك إلي، لا يوقد أحد منهم ناراً إلا ألقيته فيها»(١)

إلى هذه المسافة وصلت الصرامة بعمرو بن العاص رضي الله عنه.. لم يأبه لتلك الوسـاطة التي تقدم بها خير الأمة، رغم تقديره الشديد لصاحبها، لكن يبدو أن لدى عمرو من المبررات ما يدفع به إلى هذا المسـتوى من الشـدة، وبالفعل فقد كان العدو على مقربة من جيش المسـلمين الذي تأهب من الغد، وأخذ أوامره وخططه من أميره لينفذهـا كما صدرت. ودارت معركة كانت نهايتها للمؤمنين «فلقوا العدو فهزموهم»(٢) وغنم المسلمون ذلك الجيش وهزموه ورأى عمرو ما بشره به رسول الله ﷺ منثوراً بين يديه، وولت فلول الأعداء منهزمة ذليلة «فأرادوا أن يتبعوهم فمنعهم»(٣) ونهى جيشـه أن يلاحق تلك الفلول المنهزمة رغم هشاشـتها وسـهولة أخذها، مما جعل الأمر أشد غرابة من منع إشعال النار.

لكن الصحابة لم يحتجوا هذه المرة، واكتفوا بموقف أبي بكر المتعقل والملتزم، كما اكتفى عمرو بهذا الانتصار، ثم أمر أتباعه بالعودة فأطاعوه، والجدير بالانتباه أن عمراً لم يكن أميراً حربياً يجب الالتفاف عليه والوقوف عند أوامره العسكرية فقط، بل هو إمـام الجيش في الصلاة، رغم وجود من يحفظ من القرآن أكثر منه، ورغم وجود من

(١) سنده صحيح رواه في الآحاد والمثاني ٢-١٠٣: حدثنا سعيد بن يحيى الأموي نا أبي ثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن عمرو بن العاص وهذا السـند صحيح مر معنا في هذه القصة وسـعيد ثقة ووالده صدوق وهما من رجال الشيخين.
(٢) سنده صحيح وهو جزء من الحديث السابق في الآحاد والمثاني ٢-١٠٣.
(٣) سنده صحيح وهو جزء من الحديث السابق في الآحاد والمثاني ٢-١٠٣.

هـــو أفضل منه، ومع ذلك التزم أبو بكر وعمر ومن معهما الصلاة خلفه، مما يؤكد أنه لا مـــكان في القيادة الإســـلامية للعلمانية النصرانية، فهي قيـــادة لا تفرق بين الدين والدنيا.. هما مفهومان متناغمان، ومهمة القائد تكمن بتنقية الدنيا بالدين، وبإشعالها به، حيث لا مكان للرهبانية وتصوفها، ولا للمادية البحتة التي تجعل الإنســـان رقماً أو كتلة تحتل حيزاً تافها من هذا الكون.

في ضوء هذا المبدأ كان عمرو بن العاص الأمير يؤم الناس في صلاتهم وجهادهم، وذات ليلـــة من تلك الليالي القاتلة البرودة احتلم عمـــرو بن العاص، ولما نهض لصلاة الفجـــر وجد لزاماً عليه أن يســـتحم، لكن الماء بارد والجو أبـــرد، وحتى لو قام بعملية تسخين الماء، فالتسخين لن يزيل ضرر الاستحمام وسط هذا الجو الزمهريري القارس. في مثل هذه الأحوال تتداعى الحلول من كل جهات الأرض والسماء.

يقول عمرو: «احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح»[١] أما ســـبب فعله ذلك فبسيط للغاية. إنه يقول: «إني سمعت الله يقول: ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما»[٢] والله لا يكلف نفساً إلا ما قدر طاقتها.

يقول ﷺ: « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[٣]

وجـــد عمرو في القرآن فقهاً مخرجاً لما هو فيـــه، أما رافع الطائي فقد وجد في صاحـــب الخلال الرائعـــة بوابة يهرب خلالهـــا مما هو فيه من تشـــرد وضياع وحياة وضيعـــة، ففي طريق العودة توجه رافع بقلبه إلـــى صاحب الخلال.. إلى رفيقه الرائع أبـــي بكر الصديق، فكانت كلمات الصديق أجمـــل ما تعلمه، وأغلى ما حصل عليه في حياته كلها.

---

(١) ســـنده صحيح رواه أبو داود ١-٩٢ واللفظ له وأحمـــد ٤-٢٠٣ والحاكم ١-٢٨٥ والبيهقي ١-٢٢ وغيرهم عن يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أبي أنس عن عبد الرحمن بن جبير المصري عن عمرو بن العاص. يزيد تابعي ثقة: التقريب ٦٠٠ وشـــيخه المصري ثقـــة ٤٩٢ وعبد الرحمن تابعي كبير ثقة عالم بالفرائض التقريب ٣٨.

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود ١-٩٢ واللفظ له وهو الحديث السابق

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٦-٢٦٥٨.

يقول رافع «انطلقت معهم، حتى إذا رجعوا من المكان الذي حاجتهم فيه أتيت أبا بكر رضي الله عنه فقلت: يا ذا الخلال توسمتك من بين أصحابك. قال: ولم؟ قال: لتعلمني.

قال: قد اجتهدت. فقلت: أردت أن تخبرني بشيء يسير إذا فعلت كنت معكم ومنكم..؟ قال: تحفظ أصابعك الخمس؟ قلت: نعم.

قال: فذكر شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة الخمس، وتخرج زكاة مالك إن كان عندك، وتحج البيت، وتصوم رمضان. قال: وخير لا تأمرن على اثنين.

فقلت: وهل تكون الإمرة إلا فيكم أهل المدر..؟ قال: لعلها تفشو فتبلغك ومن هو في دونك، إن الله لما بعث نبيه ﷺ دخل الناس في الإسلام، فهم عواذ الله وجيران الله وفي خفرة الله، إن الأمير إذا كان في قوم، فظلموا فلم ينتصر بعضهم من بعض انتقم الله منهم، ولعمر الله إن الرجل منكم يظل ناتياً عضله غضباً لجاره، والله من وراء جاره»[1]

اكتفى رافع بوصية الصديق العظيمة، المزدانة بالتوحيد والعبادة والعدل وإنصاف المظلوم، فاعتنقها وودع أصحابه مؤمناً، بعد أن صاحبهم مشركاً.. ودعهم بغير القلب الذي استقبلهم به، وبقي في أرضه ليبدأ حياة بيضاء بالتوحيد، وغاب الجيش عن ناظريه، لكنه لم يغب عن ذاكرته ووجدانه.

أما جيش ذات السلاسل فسافر كالشوق نحو المدينة، وقد تزامن وصوله مع وصول مسافر حمل معه عجوزاً من بني تميم.. تقيم في بادية يقال لها (الربذة) بين مكة والمدينة، وهي تبحث عن أحد يحملها إلى النبي ﷺ. هذا المسافر هو أحد الصحابة واسمه (الحارث بن حسان) وقد أثارت تساؤله تلك الرايات السوداء، وتلك الاحتفالية بعودة المحاربين منتصرين محملين بالغنائم وأحاديث السفر.

يقول الحارث «خرجت لأشكو (العلاء بن الحضرمي) إلى رسول الله، فمررت بالربذة فإذا عجوز منقطع بها من بني تميم، فقالت: يا عبد الله، إن لي إلى رسول

---

(١) حديث صحيح مر معنا وهو حديث رافع السابق.

الله حاجة، فهل أنت مبلغي إليه..؟ قال: فحملتها فقدمت المدينة»[1] ف «دخلت المسجد فرأيت النبي ﷺ قائماً على المنبر يخطب، وفلان قائم متقلد السـيف فإذا رايات سود تخفق. قلت: ما هذا: قالوا: عمرو بن العاص قدم من جيش ذات السلاسـل»[2] «فلما نزل رسـول الله من على منبره أتيته فاسـتأذنت، فأذن لي، فقلت: يا رسـول الله، إن بالبـاب امرأة من بني تميم، وقد سـألتني أن أحملها إليك؟ قـال: يا بلال، ائذن لها. فدخلت، فلما جلست قال لي رسول الله: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدائرة عليهم، فإن رأيت أن تجعل الدهناء بيننا وبينهم حاجزاً فعلت.

تقول المرأة: فإلى أين يضطر مضطرك يا رسول الله؟

قلـت: إن مثلـي مثل ما قال الأول: معـزى حملت حتفها، وحملتـك تكونين على خصماً، أعوذ بالله أن أكون كوافد عاد.

فقال رسـول الله: وما وافد عاد..؟ قلت: على الخبير سـقطت، إن عاداً قحطت فبعثت من يستسـقي لها، فبعثوا رجالاً فمروا على بكر ابن معاوية، فسـقاهم الخمر وتغنتهم الجرادتان شهراً [جاريتان يقال لهما الجرادتان، فخرج إلى جبال مهرة فنادى: إني لم أجئ لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت مسقيه.

فمرت به سـحابات سـود فنودي منها: خذها رماداً رمدداً لا تبق من عاد أحداً] ثم فصلوا من عنده، حتى أتوا جبال مهرة فدعوا فجاءت سحابات، وكلما جاءت سحابة قال: اذهبي إلى كذا حتى جاءت سحابة فنودي: خذها رماداً رمدداً، لا تدع من عاد أحداً.

فسمعه وكلمهم حتى جاءهم العذاب [فكانت المرأة تقول لا تكن كوافد عاد]»[3]

بعد ذلك نظر ﷺ في حاجة التميمية وحاجة حسان، ثم قابل الأمير المظفر عمرو ابن العاص بعد أن قام بعض أفراد جيشه بتقديم شكوى ضده لدى النبي ﷺ.

---

(١) حديث حسـن رواه البخاري في التاريخ الكبير ٢-٢٦٠ والطبري في التفسـير: ٨-٢٢٠ و٢٢١ من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث. وهذا السـند حسـن من أجل الإمام عاصم وقد سـبق الحديث عن السند عند الحديث عن الرايات السود.

(٢) حديث حسـن رواه البخاري في التاريخ الكبير ٢-٢٦٠ والطبري في التفسـير: ٨-٢٢٠ و٢٢١ من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث.. قال: وهذا السـند حسـن من أجل الإمام عاصم وقد سبق الحديث عن السند عند الحديث عن الرايات السود.

(٣) جزء من الحديث السابق.

شكوى ضد عمرو بن العاص

تقبلها ﷺ كما قبل تلك الشكوى ضد خالد بن الوليد بعد معركة مؤتة، لكن هذه الشكوى لا تحمل شيئاً من التشفي أو الانتصار للذات.. كانت شكوى ضد الأمير هدفها الصالح العام، وهي مشروعة ومبررة، ولم يشفع انتصار عمرو بن العاص له برفض الدعوى، فقد قام النبي ﷺ باستدعاء عمرو بن العاص للتحقيق معه والنظر في الشكوى، بل الشكاوى المقدمة ضده وتتلخص في ثلاثة أمور:

الأول: منعه للجيش من إيقاد النار والأجواء شديدة البرودة.

الثاني: حرمانه الجيش من غنائم مؤكدة برفضه ملاحقة فلول الأعداء الهاربة من المعركة.

الثالث: صلاته بالجيش وهو جنب دون اغتسال.

يقول عمرو رضي الله عنه: «لما رجعوا إلى رسول الله ﷺ أخبروه بالخبر وشكوا إليه. فقال عمرو: كانوا قليلاً فكرهت أن يوقدوا، فيستبين للعدو قلتهم.

وكرهت أن يتبعوا العدو، وخفت أن يكون لهم مادة فيعطفوا على الناس. فحمد رسول الله ﷺ أمره»(١) وتبين للجميع بعد نظر النبي ﷺ في اختياره لقادة جيشه، ودهاء عمرو العسكري مع مساحة الحرية الشاسعة في طرح المشاكل والشكاوى دون قمع أو مصادرة للرأي الآخر.

بعد ذلك طرح النبي ﷺ سؤالاً حول اجتهاده عندما صلى بأصحابه وهو جنب، واكتفائه بالتيمم فقط..؟

يقول عمرو: «احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ؟

فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً»(٢)

---

(١) حديث صحيح مر معنا قبل قليل.

(٢) حديث صحيح مر معنا قبل قليل.

انتصارات لعمرو بن العاص في الحرب والســلم.. خرج عمرو منها بأشياء كثيرة، لكن نفسه كانت تحدثه بنصر أكثر اتساعاً، وأعمق غوراً.

عمرو بن العاص يبحث عن مكانه في قلب النبي ﷺ

فقد قام بأعمال قياســية في فترة قصيــرة، وهو أمر لم يكن يحلم به، بل هو من المستحيلات لو ظل عمرو قابعاً متخثراً بشركه تحت أخشابه وحجارته المطروحة فوق الكعبــة.. ولاه ﷺ على صاحبيه أبي بكر وعمر، وهو أمر لم يكن عمرو يتوقعه، ثم إنه انتصر في المعركة وأبدع في قراراته وأصاب في اجتهاده، فماذا بقي ســوى أن ينتصر على من حوله في احتلال الجزء الأكبر من قلب النبي ﷺ.

توجه عمرو بن العاص نحو النبي ﷺ بقلب يحلم بالكثير.. الكثير.

فبعد «بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها. قلت: ثم من؟ قال: عمر.

فعد رجالاً، فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم»[(١)]

عندها أدرك عمرو فضل الســابقين عليه، وأدرك أيضاً تثمين النبي ﷺ لقدراته، وأن عليه حسب عدالة هذا النبي وإنصافه أن يبذل الكثير للَّحاق بمن سبقوه بإنجازاتهم العظيمة، وذلك لأن عمْراً ليس رجلاً عادياً يقنع باعتناق الإســلام فقط، دون أن يكون له دور في حياته الجديدة.

عمرو بن العاص ليس كهذا الرجل الذي جاء «إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام؟

فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة.

فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٨٤.

وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع، فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. قال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق»[1]

أما عمرو فيبحث عن دور يخدم به هذا الإسلام، ليعوض ذلك الفرق الذي قطعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية المهاجرين والأنصار، وهو ممن ينطبق عليه مفهوم الخيرية التي قدمها ﷺ لبعض الصحابة عندما قالوا «للنبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: أكرمهم أتقاهم. قالوا: يا نبي الله: ليس عن هذا نسألك.

قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألونني؟

قالوا: نعم. قال فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[2] وعمرو وخالد وأمثالهما أصحاب قرار وأدوار بارزة في الجاهلية، فليس من المتوقع أن يخبو وهجهم بعد إسلامهم، ولا أن تذبل حياتهم، لأن الإسلام مأخوذ بتفجير الطاقات واستثمارها، ولكن نحو الأجمل والأسمى. وهل هناك تفجير واستثمار كهذا الذي حصل عليه عمرو وخالد.. هل هناك من قطع بلمح البصر تلك المسافة التي قطعاها أو اعتلى قمة كالتي يقفان عليها، والمستقبل بالإسلام يعد لطاقات عمرو بن العاص الكثير والكثير مما لا يحلم به لو كان منبطحاً تحت أقدام هبل وبقية الأخشاب والأحجار.

هاهو بعد أن ترك تلك الأصنام التي حجمته في دائرة مساحتها لا تتجاوز مساحة دائرة الطواف بصنم.. ها هو يتبختر على مشارف أعظم دولتين في العالم فارس والروم بكل ثقة. هذا بالضبط ما كان الإسلام يعده لأبي جهل وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط لو أسلموا.

هذا ما تنبأ أبو سفيان بحدوثه وهو واقف على بلاط هرقل الروم ينصت إلى زعيم الروم، وهو يتأهب للرحيل عن بلاطه وأرضه وسلطانه وملكه لمحمد البسيط الذي «يخصف نعله ويخيط ثوبه ويرقع دلوه»[3] لمحمد الذي يقول عن نفسه «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد فإنما أنا عبد»[4] لمحمد الذي يأمن عنده الخائف.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ١-٢٥.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٣٥.

(٣) حديث صحيح مر معنا وهذا لفظ ابن حبان ١٢-٤٩٠.

(٤) صحيح الجامع للإمام الفقيد الألباني رحمه الله.

ذات يوم أُتي له «برجل ترعد فرائصه، فقال له: هون عليك فإنما أنا بن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في هذه البطحاء»(١)

ليس محمد ﷺ فقط، بل أي مسلم.. عندما يتقدم للعالم بمشروعه نبيه الحضاري.. عندما يضع نفسه خلف مشروعه لا أمامه.. عندها فقط تجد كل شيء يحبه ويخافه.. تجده يبدع يتوهج.. يعيد صياغة العالم بأحرف نقية وجديدة، أما إذا رأيت خللاً في مشروع إسلامي ففتش عمن وضع نفسه أمام ذلك المشروع لا خلفه.. عندها تتهاوى أمام عينيك القيم والمبادئ والثوابت، وينتهي بك المشهد إلى أكوام جميلة، لكن يستحيل معها الإبداع والإقناع.. لم يكن الصحابة يقدمون للعالم أنفسهم وأهواءهم.. كانوا يقدمون كتاب الله وسنة رسوله.. كانوا يضعون أخطاءهم ضمن أرصدتهم لا ضمن أرصدة الإسلام، وهو ما قفز بهم في فترة قياسية إلى حدود فارس والروم، أما قريش.. ذلك الخصم الذي كان يحتقرهم، ويطلق عليهم ألقاباً لا تليق إلا بالمجانين وقطاع الطرق.. قريش اليوم دون طرق.. دون معنويات، فالمعنويات والانتصارات والمساحات لمحمد وأتباع محمد ﷺ، ولم يبق لقريش سوى شرف الحج، وقد تحول إلى موسم يسخر من قريش وأصنامها وعنادها. قريش اليوم مكبلة بعهد مع خصمها محمد، ومحاطة بمناطق يملكها خصمها محمد، ومخنوقة بإنجازات يصنعها خصمها محمد.

فما الذي بقي لقريش سوى مكة الحزينة، والأصنام التي بدأت بالتآكل..؟ وهو في الحقيقة ليس خصماً لها، بل هي التي تصر على خصومته، وهاهو المجد الذي وعدها به يرف على أرض فارس والروم، ولكنه للمؤمنين به، أما هي فقد أعماها رمد التحديق بهبل وبقية الأخشاب والأحجار الجاثمة على أنفاسها وعقولها، كما أعمى سيد اليمامة الذي لم يكتف بالوثنية والشرك، بل أقدم على شيء خطير يؤكد به كرهه لهذا النبي ودينه:

---

(١) سنده صحيح ابن ماجه ٢ - ١١٠١ وغيره عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس ابن أبي حازم عن أبي مسعود. إسماعيل ثقة ثبت. التقريب ١٠٧ وشيخه مخضرم ثقة ٤٥٦.

الفهرس

معركة ثانية على أرض بدر ٥
تحريم الخمر ٦
تحريم الميسر ٨
انتهت عدة زينب بنت جحش ١٠
سبب زواج النبي ﷺ من زينب ١٠
زيد يخطب زينب للنبي ﷺ ١١
زواج زينب فرح وتحول ١٢
الوليمة والهدايا والمعجزات ١٢
لنزول الحجاب قصة ١٤
ففرض الحجاب على المؤمنات جميعاً ١٥
الشبح يتسلل لاغتيال النبي ١٥
متى أهدى عمر قلبه؟ ١٦
دعوني أحدثكم عن الحب ١٧
تعالوا أحدثكم عن الحب والرحمة ١٩
يا هزال لو سترته بثوبك ١٩
المقارنة بين العرض وغيره ٢٢
خطر قادم من قبيلة بني المصطلق ٢٣
غزو بني المصطلق ٢٣
القرعة تقع على عائشة ٢٤
إغارة كالبرق ٢٥
النبي ﷺ يسبق عائشة ٢٧
مهلاً يا أماه ٢٩
عاصفتان ونفاق ٢٩
توزيع الغنائم.. توزيع الرحمة ٢٩
دخلت جويرية فدخلت الرحمة على قومها ٣٠
شهر من المعاناة ٣١

متى علمت عائشة بالإفك؟ ٣٢
النبي ﷺ يسأل زينب ٣٥
النبي ﷺ يستشير ويسأل عن حل ٣٦
استدعاء بريرة ٣٦
رسول الله ﷺ يخطب حزناً ٣٧
دعوة مكروب ٤١
براءة عائشة رضي الله عنها ٤٢
إعلان البراءة واستدعاء الجناة ٤٤
موقف أبي بكر الغاضب ٤٥
مشادة بين أبي بكر وعمر ٤٦
عبد الله بن أبي بن سلول، هل كان قواداً؟ ٤٧
قصة ابن عبادة مع القذف ٤٨
ما هي الملاعنة؟ ٥٠
بساتين الحب ٥٢
حزبان في بيت النبوة ٥٢
أم سلمة تهدي للنبي ﷺ وهو عند عائشة ٥٥
عائشة تدعو على نفسها بالموت ٥٦
حب النبي ﷺ لعائشة إلى أي درجة؟ ٥٦
آثار غزوة بني المصطلق ٥٩
غزوة سيف البحر ٦٠
اليهود يجمعون الأحزاب ٦٢
المشروع اليهودي من جديد ٦٤
غطفان تطلب ثمن انسحابها من الأحزاب ٦٥
حفر الخندق ٦٧
طعام رجال الخندق ٦٩
ثلاثة أيام من الجوع والحفر ٦٩
طعام جابر والمعجزة ٧٠

معجزة أخرى ٧٢
فتح فارس والروم واليمن ٧٣
وضع النساء والأطفال داخل إحدى الحصون ٧٥
فارس يبحث عن مبارز ٧٦
كلمة السر ٧٧
القتال يشتد ٨٠
عائشة تخاف على سعد بن معاذ ٨٠
هل أصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه؟ ٨٠
أمنية سعد بن معاذ قبل أن يموت ٨١
لقب الزبير ٨٢
خيانة ثالثة لليهود ٨٣
دعاء سيد البشر ٨٥
استجاب الله دعاء نبيه ٨٧
الريح في معسكر الوثنيين ٨٨
الخندق مقبرة لمشركي قريش ٩١
النبي ﷺ يضع سلاحه ٩١
إلى أين سيحمل ﷺ سلاحه؟ ٩١
النبي ﷺ ينطلق إلى بني قريظة ٩٢
النبي ﷺ يحاصرهم بالسيوف والشعر ٩٣
قريظة تبحث عن مخرج ٩٣
أبو لبابة يثير الرعب في نفوس اليهود ٩٤
قريظة تطلب خياراً ثالثاً ٩٤
مَن الذين خرجوا من حصن بني قريظة؟ ٩٥
وصول سعد إلى حصن بني قريظة ٩٧
المرأة الوحيدة التي ستقتل من بني قريظة ٩٨
قصة دينة بنت يعقوب ٩٩
موقف المنافقين مما حدث لقريظة ١٠٠

دعاء سعد بعد قريظة ١٠٢
سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري ١٠٤
مات عثمان بن مظعون ١٠٦
لا يحكم لأحد -حتى عثمان- بالجنة ١٠٧
اليهود بعد موت سعد بن معاذ ١١٠
قتل سلام بن أبي الحقيق ١١١
إسلام المغيرة بن شعبة ١١٤
عمرو بن العاص يهرب من مكة ١١٤
أبو رهم وأبو بردة وأبو موسى في الحبشة ١١٧
أم حبيبة تبكي في الحبشة ١١٨
رسالة قبل الموت ١١٨
النجاشي يهدي للنبي ﷺ مهر أم حبيبة ١١٩
النبي ﷺ يريد أداء العمرة ١٢٠
متى كانت عمرة الحديبية؟ ١٢٠
موقف بعض الأعراب من الخروج للعمرة ١٢١
التوقف بذي الحليفة ١٢٣
أمر النبي ﷺ برصد تحركات قريش ١٢٤
مهمتان لأبي قتادة ١٢٤
التوقف في عسفان ووصول الجاسوس ١٢٧
قريش تتحرك لمواجهة النبي ﷺ ١٢٩
مشاورة النبي ﷺ لأصحابه في شن الحرب ١٣٠
كيف صلى النبي ﷺ العصر؟ ١٣١
من عبر الثنية غفر الله له ١٣٣
القصواء تبرك في الحديبية ١٣٤
النبي ﷺ يعرض هدنة - وقريش تريد قتل رسوله ١٣٦
من هؤلاء الفرسان وماذا يريدون؟ ١٣٦
قتل عثمان واستعد عمر ١٣٨

متى كانت البيعة تحت الشجرة؟ ١٣٨
ما هي بيعة سلمة المميزة؟ ١٤٠
لماذا تخلف عثمان عن البيعة؟ ١٤١
قريش تحاصر الحديبية ١٤٢
عروة منبهر بإجلال الصحابة للنبي ﷺ ١٤٥
قريش تبعث مكرز بن حفص ١٤٦
قريش تقاطع محادثة مكرز ١٤٧
أرقاء يهربون من قريش ١٤٧
هل حدثت معجزة ثانية على أرض الحديبية؟ ١٤٨
محاولة اغتيال النبي ﷺ ١٤٩
شروط صلح الحديبية ١٥٠
مأساة أبي جندل ١٥١
لكن الصحابة لم يمتثلوا لأوامره ﷺ ١٥٤
أم سلمة تشير على النبي ﷺ ١٥٤
النبي ﷺ ينحر جمل أبي جهل ١٥٥
أسد يقال له: أبو بصير ١٥٦
بعض المشركين ينقضون المعاهدة ١٥٩
النبي ﷺ يعود بأصحابه إلى المدينة ١٦٠
قصة النوم حتى طلوع الشمس ١٦٠
النبي ﷺ لا يرد على عمر ١٦١
نزول سورة الفتح ١٦١
تحولت الركوة إلى نهر عذب ١٦٢
معجزة في الطعام أيضاً ١٦٣
على جبل بين الحديبية والمدينة ١٦٤
غزوة ذي قرد ١٦٥
سلمة يسابق رجلاً من الأنصار يتحدى الجميع ١٦٨
أبو بصير في المدينة ١٦٩

غزو خيبر ١٧١
أبو هريرة في الطريق ١٧٣
علي بن أبي طالب يتخلف في المدينة ١٧٤
القمر الذي هوى في حصن خيبر ١٧٤
على أرض خيبر.. تلكم العروس ١٧٥
الوصول إلى الصهباء ١٧٨
لا أذان في حصون خيبر ١٧٩
أبو بكر يقود أول حملة على حصون خيبر ١٨٠
عمر بن الخطاب يقود الحملة الثانية ١٨٠
ملك خيبر يبحث عن مبارز ١٨١
النبي ﷺ ينادي علياً ١٨٢
لا تلتفت ١٨٤
معجزة لجراح سلمة ١٨٦
ابتسامة النبي ﷺ في وجه عبد الله بن مغفل ١٨٧
بطل آخر إلى النار ١٨٧
بريدة والموت الأحمر ١٨٨
الاستسلام والخيانة ١٩٠
كيف يعطي النبي ﷺ خيبر لليهود؟ ١٩٠
أكل لحوم الحمر الأهلية ١٩١
بدأ عملياً توجه الإسلام نحو العالمية ١٩٢
كرم بنكهة يهودية ١٩٥
القمر يستقر في حجر الفتاة ١٩٨
احترام السبايا ٢٠٠
حكم جديد لزواج المتعة ٢٠٠
البيع والشراء على أرض خيبر ٢٠١
ماذا عن النساء.. .... ٢٠٣
صحابي يعود إلى قريش ٢٠٤

الرحيل.. وقصة النوم عن الصلاة ٢٠٦
قصة النوم والعطش والمعجزات ٢٠٦
نحو وادي القرى ٢٠٨
زفاف صفية ٢١٠
يسأل عن الكدمة حول عين حبيبته ٢١٢
ما الذي حدث لصفية على أبواب المدينة؟ ٢١٤
المدينة تعد مفاجأة للنبي ﷺ ٢١٥
مهاجرة تشكو عمر ٢١٦
المهاجرون يردون الجميل بالوفاء ٢١٩
بث السرايا من جديد ٢٢٠
غزوة فزارة ٢٢١
سرية من أربعين رجلاً وامرأة تقود قومها إلى الإسلام ٢٢٢
درس في حدود طاعة الأمراء ٢٢٥
سرية رأس عرانة ٢٢٦
سرايا تحدد صلاحيات المجاهد المسلم ٢٢٩
الأرض تلفظ جسد أحد المجاهدين ٢٣٠
في سرية (الحرقات) أسامة يقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله ٢٣١
يتمنون اغتيال المنافقين ٢٣٣
سرية الاثني عشر شهيداً ٢٣٤
غزوة ذات الرقاع الثانية ٢٣٥
غزوة نجد ٢٣٥
عمرة القضاء ٢٣٧
الزواج بميمونة ٢٣٩
النبي ﷺ يقدم عرضاً لقريش ٢٤٠
خالد بن الوليد وعمرو بن العاص يهاجران ٢٤١
مات النجاشي رحمه الله ورضي عنه ٢٤٤
كرامة على قبر النجاشي ٢٤٦

مراسلة الملوك والجبابرة ٢٤٧
النبي عليه السلام يأمر بصنع خاتم ٢٤٧
رد كسرى الفرس ٢٤٨
رسالة إلى المقوقس ملك الإسكندرية ٢٤٨
أزمة قريش ٢٥٠
رسالة النبي ﷺ إلى هرقل الروم ٢٥٠
إرسال عبد الله بن رواحة إلى خيبر ٢٥٥
سحر النبي ﷺ ٢٥٥
مؤتة ٢٥٧
ما القرار في مثل حال مؤتة؟ ٢٥٩
نصارى العرب يقاتلون مع الروم ٢٦٠
صنيع اليمني ٢٦١
جعفر ٢٦١
ابن رواحة والشعر والجنة ٢٦٢
أين خالد بن الوليد..؟ ٢٦٤
خالد بن الوليد واستراحة المحارب ٢٦٤
خالد بن الوليد سيف من سيوف الله ٢٦٥
ما الذي أغضب عائشة في ذلك اليوم الحزين؟ ٢٦٦
بين الصحابي اليمني وخالد بن الوليد ٢٧١
غزوة ذات السلاسل ٢٧٣
أبو بكر الصديق يتمكن من سرقة رافع ٢٧٦
كلمات أبي بكر لرافع الطائي ٢٨٠
شكوى ضد عمرو بن العاص ٢٨٢
عمرو بن العاص يبحث عن مكانه في قلب النبي ﷺ ٢٨٣
الفهرس ٢٨٦